كلية الدراسات العليا

برنامج الماجستير في الدراسات الإسرائيلية

رسالة ماجستير بعنوان

الصهيونية وعنف الفوضى: الاستشراق، الاستعمار الاستيطاني والمستعربين

Zionism and Violence of Chaos: Orientalism, Settler Colonialism, and the 'Musta'rbeen'

مُقدمة من:

أحمد الأغواني

الرقم الجامعي: 1155005

بإشراف: د. رنا بركات

2018

كلية الدراسات العليا

برنامج الماجستير في الدراسات الإسرائيلية

عنوان الرسالة:

الصهيونية وعنف الفوضى: الاستشراق، الاستعمار الاستيطاني والمستعربين

Zionism and Violence of Chaos: Orientalism ,Settler Colonialism, and the 'Musta'rbeen'

رسالة ماجستير مُقدمة من:

أحمد الأغواني

لجنة المناقشة:

د. رنا بركات

د. عبد الرحيم الشيخ

د. منير فخر الدين

قُدمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات درجة الماجستير في برنامج الدراسات الإسرائيلية من

كلية الدراسات العليا في جامعة بيرزيت– فلسطين

2018

الصهيونية وعنف الفوضى: الاستشراق، الاستعمار الاستيطاني والمستعربين

Zionism and Violence of Chaos: Orientalism ,Settler Colonialism, and the 'Musta'rbeen'

رسالة ماجستير مُقدمة من:

أحمد الأغواني

إشراف:

د. رنا بركات

تاريخ المناقشة: 26 أيار 2018

أعضاء لجنة النقاش:

د. رنا بركات (رئيسةً) .....

د. عبد الرحيم الشيخ (عضواً) .....

د. منير فخر الدين (عضواً) .....

قُدمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات درجة الماجستير في برنامج الدراسات الإسرائيلية من كلية الآداب في جامعة بيرزيت– فلسطين

2018

المحتويات

المحتويات ..... أ
شكر وعرفان ..... ه
ملخص ..... و
Abstract ..... ح
الفصل الأول: هيكلية الدراسة والإطار النظري 1
مقدمة 1
الإشكالية 2
الفرضية 2
حد المصطلحات 2
أهمية البحث 5
موقع/موقعية الباحث 6
المنهجية 7
الصعوبات 7
مراجعة الأدبيات 7
المستعربون في الخطاب الصهيوني الرسمي: 8
المستعربون في خطاب الأكاديميا الإسرائيلية: علاقة وإعادة إنتاج الخطاب الصهيوني 12
الرومانسية – عقدة الاتصال والانفصال: 16
الدراسات العربية: 23
المحتويات: 27

الفصل الثاني: من البقاء إلى الإقصاء: هجرة، استيطان، حراسة واستعراب صهيوني 29
مقدمة 29
البقاء والهجرة الاستيطانية 29
في معنى البقاء الاستيطاني 31
البقاء تبلور العلاقة ونمط الإنتاج 33
البقاء– الصهيونية – الأنا والآخر 37
الهجرة الثانية– استكمال البقاء نحو الإقصاء 41
بين الهجرة الأولى والثانية 42
الحراسة، التاريخ، صناعة الحدود والثنائيات الاستعمارية 47
الحراسة والاستعراب الصهيوني 51
احتلال العمل والحراسة 57
خاتمة 63

الفصل الثالث: باغيورا، هاشومير، والبالماخ 65
مقدمة 65
التأسيس السياق التاريخي 66
التأسيس: أفراد –جماعة – تنظيم 70
من بارغيورا إلى هشومير 74
التنظيم والاستعراب الصهيوني – الرومانسية/التعرف/التودد 76
من العنف إلى تنظيم العنف 80
هشومير واستكمال مسار الاستيطان 84

من العثمانيين إلى الانتداب 85
الانتداب البريطاني/خطاب "الدفاع" من حدود المستوطنة إلى حدود المشروع 87
ولادة الهاجاناه والصراع من أجل حدود المشروع 90
الاستعراب الصهيوني، الاستشراق، الطريق نحو المأسسة 93
المستعربون في البالماخ، مستقبل الاستعراب الصهيوني: العنف والفوضى 100
خاتمة 107

الفصل الرابع: نكبة مستمرة، استعراب مستمر 109
مقدمة 109
حرب النكبة 110
نكبة مستمرة، استعراب صهيوني مستمر 112
المستعربون بعد إقامة الدولة، تجربة جديدة 113
المستعربون، جذور مستمرة، مستقبل كثيف 117
الانتفاضة الفلسطينية الأولى: العنف كرد فعل مزدوج 120
المستعربون في الانتفاضة الأولى، تمثيل– تنكر، اختراق، عنف وفوضى 123
ظهور خطاب الاعتراف 129
من الانتفاضة إلى أوسلو 130
الانتفاضة الثانية، مقاومة أوسع، استعراب كثيف 131
المستعربون في الانتفاضة الثانية: مكانة استعمارية جديدة 132
العنف في فضاء جديد: المستعرب في دور مزدوج **2000–2018** 136
خطاب رواية المستعرب على صفحات الجريدة 137
تغطية مستمرة: المستعربون في فضاء الاذاعة 140

مسلسل "فوضى" 141
إنتاج متبادل، علاقة متبادلة 143
خاتمة 145
الفصل الخامس..... 148
مقاربة ختامية..... 148
-مقولة الدراسة ومسارها 148
-في الفوضى والعنف: 3 مشاهد 152
المشهد الأول: تنكر، اختراق واختطاف 152
المشهد الثاني: تنكر، اختراق، فض مظاهرة واطلاق نار..... 155
المشهد الثالث: تنكر، اختراق، قتل وفوضى 157
-تعقيب: الموقعية، الاستشراق، العنف، الثنائيات الاستعمارية 158
-استنتاج.... 160
قائمة المصادر والمراجع العربية 161

شكر وعرفان

كان هذا العمل لن يتم دون مساندة ودعم واشراف، د. رنا بركات، التي قدمت الكثير إيماناً وإخلاصاً..

و لم أكن لأبدأ دون أمي مها، التي لا زالت لم تضعني من حملها. وإلى والدي ابراهيم، الذي قدمني إلى الحياة. محمد ومن، إخوتي، الوجه الآخر من صورتي في الدنيا. وإلى عائلتي الكبيرة، أبو شادي، وصباح أمي الثانيـــة، وإلى نادي وفادي وجمعة، ريم وشادن ودانة، لكم كل الشكر على احتضاني. إلى إخوتي وأصـــدقائي، عهـــد حمدان، سنداً، وأخاً، وإلى روح والدته – والدتي ربيحة ذياب، وإلى شادي، الحاضر دائماً. وإلى الأصـــدقاء محمد ومراد، رائد وبسام، أديب ومحمود، ونعيم وسامر، محمد عياد وطارق وتامر، لكم كل الشكر والعرفان على مساندتي.

كما اشكر د. عبد الرحيم الشيخ، مثالاً، معلماً، ورفيق درب على مساندته، ود. منير فخر الدين على اهتمامه ودعمه المستمر، وجميع من ساهم في تسيير عملي، إلى لوزية، كل العرفان والتقدير.

ولا أنسى، مجد ولؤي ورأفت...

إلى أمير وزينة، القصة التي بدأت ولا زلت أرويها..

إلى أجمل اللحظات، وأروع الحكايات، إلى حبيبتي التي رافقتني في كل الرحلات، وتحملت عبء مغامراتي، إلى أجمل النساء، وأحن الأمهات، إلى ميس، لك كل التقدير والحب والعرفان.

الصهيونية وعنف الفوضى: الاستشراق، الاستعمار الاستيطاني والمستعربين

ملخص

تتناول هذه الدراسة ظاهرة المستعربين كأبرز أدوات الاستعمار الاستيطاني الصهيوني للنفي والإقصاء في فلسطين. وتحاول الدراسة كتابة تاريخ المستعربين، باعتباره تاريخ الاستيطان الصهيوني، حيث وثقت الدراسة بداية مسار الاستعراب منذ بداية موجات الهجرة والاستيطان في فلسطين، ومن خلال تتبع هذا المسار، تَعزّز ادعاء الدراسة في أن فهم تاريخ المستعربين يقترن شرطاً بفهم تاريخ الاستعمار الاستيطاني الصهيوني، خاصة في أن استمرار تجربة الاستعراب الصهيوني حتى يومنا هذا، كان بحكم استمرار مسار الاستيطان الصهيوني.

وتؤكد الدراسة بأن قراءة تاريخ الاستعراب، يجب أن يُقدَم من خلال أدوات ومفاهيم تنعتق من فلك الخطاب المعرفي الصهيوني، الذي يُعتبر المصدر الأساسي في توثيق وكتابة تاريخ المستعربين. لذلك تستند الدراسة لمفاهيم: العنف، الاستشراق، الاستعمار الاستيطاني، كمفاتيح تفسر الظاهرة، وتُمكن من كتابة رواية أصلانية حول المستعربين، خاصة أن هذه المفاهيم شكلت السمات الأساسية الثابتة في تطورات وتحولات الاستعراب الصهيوني منذ بداية الاستيطان والهجرة أواخر القرن التاسع عشر، وحتى العام 2018.

لقد مثل العنف مكون أساسي للاستعراب الصهيوني، بحكم دوره في عملية بناء الثنائيات والحدود الاستعمارية، واختراقها معا. كما كان الاستشراق مفتاحاً لفهم معاني التمثيل، التنكر، صناعة صورة ومكانة المستعرب مقابل الفلسطيني، انطلاقاً من الموقعية الاستعمارية. ومن خلال فهم الاستعمار الاستيطاني كبُنية تراكمية ومستمرة، تستند لممارسة الهدم/البناء، الإقصاء/السيطرة، كان الاستعراب بذلك أحد تجلياتها. وبالإضافة للادعاء الرئيسي للدراسة، تقدم فصول الدراسة مقولات إضافية، تكشف ملامح الحقبة التاريخية للاستعمار الصهيوني، من خلال علاقته بالاستعراب، فتناول الفصل الأول مقولة الدراسة المركزية وسؤالها والمنهجية ومراجعة الأدبيات، التي كشفت عن الملامح المركزية للرواية الصهيونية في كتابة تاريخ المستعربين، والتي قابلتها الدراسة بالنقد والتحليل من أجل بناء إطار معرفي خارج سلطة الخطاب الصهيوني، الذي يحتكر ويخفي المعلومات والمصادر بحكم الموقعية التي شكلت جزء من معيقات الدراسة. أما الفصل الثاني يتناول بداية سياق ظاهرة الاستعراب الصهيوني منذ موجة الهجرة الأولى، وحتى بداية موجة الهجرة الثانية1903، عبر ثلاثة محددات، أولها: مفهوم البقاء الاستيطاني؛ كمدخل لفهم بذور ومعاني الاستعراب الجنينية الأولى في تشكل المجتمع الاستيطاني، وثانيها: الحراسة؛ كاستجابة شرطية لواقع البقاء الاستيطاني، ومقدمة لصياغة فضاء الحدود الاستعمارية، فيما ثالثها: الاستعراب الصهيوني؛ كجزء بنيوي ملازم لظاهرة الحراسة. وفي الفصل الثالث، تقف الدراسة عند تحولات مسار الاستيطان بعد الهجرة الثانية، والتي أدت لظهور تنظيمات الحراسة والاستعراب

الأولى، وتتتبع ذلك مع نهاية الحقبة العثمانية، ودخول مرحلة الانتداب، حتى حرب النكبة من العام 1948. ولتوضيح ذلك يبرز الفصل ثلاثة محاور: التأسيس، احتكار وتنظيم العنف، والمأسسة. أما الفصل الرابع، فهو يتناول الحقبة التاريخية الأبرز في تاريخ المستعربين، ما بعد إقامة الدولة الاستعمارية 1948، وحتى يومنا هذا من العام 2018. ومن خلال هذه الحقبة يُظهر الفصل مسار الاستعراب المستمر، والمقترن بمفهوم النكبة المستمرة، بالإضافة إلى أنه يقدم مقولات فرعية تفسر صعود وكمون دور المستعربين في هذه الحقبة، والمقترنة بالمقاومة الفلسطينية، باعتبار أن عنف الاستعراب الصهيوني هو رد فعل على المقاومة، كما يقرأ الفصل ذلك من خلال كثافة استخدامهم كمؤشر على زيادة حجم وقوة المقاومة الفلسطينية. ويكشف الفصل ذاته عن تقنيات الاستعراب الأربع "تمثيل، اختراق، عنف وفوضى"، ويُضيف إليهم دور الخطاب الصهيوني الرسمي في الاعتراف بهم، واعطائهم مكانة مركزية في المشهد الاستعماري منذ مطلع التسعينات. وعبر اهتمام الخطاب الاعلامي في السنوات العشرون الأخيرة، لإبراز صورتهم وفاعليتهم، كجزء من خطاب الدولة، ترى الدراسة في ذلك علاقة إنتاج متبادلة، ورغبة في الظهور والاستعراض لصناعة نموذج وحوار داخل الفضاء الاستعماري، لإسماع الحيز المستَعمَر، بهدف إقصاءه والسيطرة عليه.

وتستخلص الدراسة، بأن فهم ظاهرة المستعربين، وممارساتهم، لا يمكن أن يكون بمعزل عن فهم تاريخ وبنية الاستعمار الاستيطاني الصهيوني المستمر في فلسطين. ويأتي فهمها عبر إدراك معاني العنف والفوضى كأدوات، وبذات الوقت كأهداف، يسعى المُستَعمر، ومن خلال ظاهرة المستعربين، إلى فرض المزيد من السيطرة المتواصلة، والتي تحاول إخضاع الفلسطيني وإحاطته بجو من عدم اليقين؛ الشك، الخوف؛ والارباك المستمر بتوسيع حيز السيادة الاستيطانية، في كل مكان وزمان ووقت حسب ادعاء الرواية الصهيونية عن فاعلية المستعربين، والتي تكشف عن معاني التمثيل والعنف والفوضى التي يسعى المُستَعمِر من خلالها لإخضاع الفلسطيني.

Abstract

This study explores the phenomenon of Musta'rbeen "undercover operatives", within the context of the Zionist settler colsonizatism in Palestine. It aims at interpreting the history of Musta'rbeen as part of Zionist settlement, where it documents the inception of the path to Arabization from the first waves of Jewish-Zionist immigration and settlement in Palestine. Through a meticulous exploration of this history, this thesis reinforces the claim that understanding the history of Musta'rbeen needs to be coupled with understanding the history of Zionist settler colonialism in Palestine, especially given the ongoing experiment of Zionist Arabization as part of the ongoing experience of Zionist settlement.

The study confirms that the reading of the history of 'arabization' must be facilitated by the use of tools and concepts derived from epistemological discourse of Zionism, which is considered the main source in documenting the history of 'Musta'rbeen'. Therefore, the study relies on the following concepts: violence, orientalism, and settler colonialism. These will be the keys to explaining the phenomenon of 'Musta'rbeen' and will enable an indigenous reading/writing of its origins, especially since these concepts formed the foundations and unchanging characteristics of the different iterations and evolutions of the Zionist Arabization since the beginning of the Israeli settlement at the end of the 19th century.

Violence has been an essential component of Zionist Arabization, by virtue of its omnipresent role through the process of constructing both dualities and colonial boundaries. Orientalism is essential to understanding the meaning of representation, interpretation, disguise, and the construction of the image and the status of the 'Musta'rb' vis-a-vis the Palestinian. By understanding settler colonialism as a cumulative and continuous structure that is based on the practice of destruction/construction, exclusion/control, we conclude that Arabization is one of its manifestations.

In addition to the main claim of this study, subsequent chapters provide additional arguments that help reveal the features of the history of Zionist colonization, through its relationship with the Arabization. The first chapter presents the central thesis, its main question, in addition to the methodology and the literature review. These will highlight the central features of the Zionist narrative regarding the history of the Arabization. Here, the paper will critique and analyze this narrative in order to build a framework outside of Zionist discourse that purposely monopolizes and hides sources due to the geographical location of this study, causing serious impediments to an indigenous understanding of Zionism.

The second chapter presents the context of the Zionist Arabization since the early waves of Jewish migration, "Alaiya, followed by the second wave in 1903, through three main factors:

a. The concept of "staying" (sustaining settlement) as a path to understanding the conception and meanings of the first embryonic expressions of Arabization during the formation of the settlement society.
b. The concept of security as a conditional response to the reality of survival of the settlement, and an introduction to the formulation of settler colonial boundaries.
c. The concept of Zionist Arabization, as a structural part of the phenomenon of security.

In the third chapter, the study investigates the evolution of Zionist settlement after the second wave of Jewish Alaiya which led to the appearance of security organizations and the first material onsets of Arabization. This investigation will review this period through the end of Ottoman rule, the British mandate up to the Nakba war of 1948. To illustrate this, the chapter highlights three axis: establishment; violence and the monopoly on violence; and institutionalization.

Chapter four deals with the most prominent period in the history of the 'Musta'rbeen', after the establishment of the settler colonial state in 1948, and

until the present day. . Through this period, the chapter shows the continuous path of Arabization, that is coupled with the concept of the ongoing Nakba. The chapter provides sub-arguments explaining the rise and changing role of the 'Musta'rbeen', within the context of Palestinian resistance, by considering Zionist Arabization as a reaction to this indigenous resistance. The chapter presents this through exploring the use of 'Musta'rbeen' as an indicator of the intensity and power of the Palestinian resistance. The chapter will also reveal the four techniques used by 'Musta'rbeen', which are recreation, penetration, violence, and chaos. It will then focus on the role of official Zionist government discourse in recognizing and establishing the presence of 'Musta'rbeen' and giving them a central role within the settler colonial landscape since the early nineties. During the last 20 years, the Israeli media has been keen to highlight the role and showcase their image and their effectiveness as part of the state's discourse. The chapter also explores the state's desire for the image of the 'Musta'rib' to publically emerge and be seen as a central paradigm within the colonial space in order to show the extent of its hegemony and power over the colonized to serve the purposes of control and elimination.

The study concludes that in order to understand the 'Musta'rbeen' and their practices, the phenomenon cannot be isolated from understanding the history and structure of the Zionist settler colonization of Palestine. By exploring the multi-layered meanings of violence and chaos as tools of power and at the same time as targets, one realizes that the colonizer seeks, through the phenomenon of 'Musta'rbeen', to impose continuous control, attempting to subjugate the Palestinian and surround him/her with an atmosphere of uncertainty, doubt, fear and constant confusion by continuing to expand the geographical area and sovereignty of settlements.

الفصل الأول

هيكلية الدراسة والإطار النظري

مقدمة

إن ظاهرة المستعربين، المستمرة، هي شكل من أشكال محاولات السيطرة المستمرة على الفلسطينيين. ولفهم ذلك تسعى هذه الدراسة إلى كتابة تاريخ ظاهرة الاستعراب الصهيوني، باعتبارها نتاج لحركة الاستعمار الاستيطاني الصهيوني في فلسطين. كما تحاول توضيح كيفية قراءة ظاهرة المستعربين في وقتنا الحالي، من خلال الكشف عن بنية ومسار الاستعراب التاريخي المرتبط ببنية ومسار الاستعمار الاستيطاني. ولتحقيق ذلك تبحث الدراسة حول كيفية ترجمة علاقة الاستعمار الصهيوني بالاستشراق والعنف، كأدوات استعمارية ترسخ ثنائيات المستعمِر/المستعمَر والمستوطن /الأصلاني، عبر إنشاء الحدود واختراقها بالعنف والفوضى، ليتم إعادة تشكيلها ثانيةً وفق الضرورة والحالة الاستعمارية. وتدعي الدراسة أن أهمية الاستعراب في سياق الصهيونية قبل وما بعد إقامة الدولة وحديثاً، هو احتواء تجربة المستعربين لأهم مكونات الخطاب والممارسة الصهيونية منذ بواكير المشروع الاستيطاني وصولاً لاستخدامهم اليوم كجزء من دور المؤسسة الاسرائيلية في فرض السيطرة على الشعب الفلسطيني. ويمثل المستعرب تعبيراً واضحاً عن بنية المشروع الاستيطاني ضمن الثنائيات الاستعمارية والموقعية، عبر تجسيد عملية إنشاء وتمثيل الأصلاني من أجل تعزيز منطق التصفية/الإقصاء، وبالتالي تعزيز أيضاً حدود الثنائيات بالتوازي مع قدرة اختراقها بالعنف والفوضى لأغراض السيطرة والنفي.

ومن أجل تحقيق رواية أصلانية، تقدم الدراسة قراءتها للاستعراب الصهيوني، وفق تحليل نقدي تاريخي للرواية الصهيونية، التي احتكرت إنتاج صورة ورواية المستعرب، بحكم موقعيتها، وإعادة صناعتها في الخطاب الرسمي والاعلامي كجزء من المشهد الاستعماري وأداة للسيطرة والإقصاء. ولتقديم هذه القراءة؛ تتساءل الدراسة عن معنى ودور الاستعراب في تاريخ تجربة الاستعمار الصهيوني في فلسطين، وبالتالي كيف نقرأها اليوم خارج الرواية والخطاب الصهيوني؟ وتفترض الدراسة، للإجابة على هذا التساؤل، بأن معنى الاستعراب يُدرك فقط من خلال فهم بنية الاستعمار الاستيطاني، والاستشراق والعنف، باعتبارهم مركب لتاريخ عمليات النفي ومحاولات السيطرة المستمرة.

الإشكالية

تتناول الدراسة موضوع المستعربين كظاهرة استعمارية لازمت تبلور بنية المشروع الاستيطاني الصهيوني في فلسطين، حيث تحاول الدراسة فهم وتفكيك هذه الظاهرة عبر تقديم مجموعة تساؤلات حول دور وعلاقة ومكانة المستعربين ببواكير المشروع الاستيطاني في فلسطين، وكيفية استيعاب وإنتاج فكرة المستعربين الأوائل ومأسسة الفكرة ضمن أجهزة الحركة الصهيونية ولاحقاً الدولة. كما تحاول الدراسة أيضاً كشف بنية الاستعراب من زاوية الثنائيات الاستعمارية التي خلقها المشروع الصهيوني، من حيث كيفية إنتاج واختراق حدود ثنائية (المستعمِر/ المستعمَر، المستوطن/الأصلاني) ، وتسأل الدراسة:

1- كيف نقرأ تاريخ الاستعراب الصهيوني، وما هي الحالة الاستعمارية التي أنتجت ظاهرة المستعربين؟

2- كيف تشكلت تجربة الاستعراب من خلال علاقة الاستعمار الاستيطاني بالاستشراق والعنف؟ وكيف نفهم مكانة وإطار عمل المستعربين ضمن تشكل الثنائيات الاستعمارية والموقعية؟

3- كيف يشكل المستعربون أداة للإنشاء/النفي والسيطرة/الإقصاء المستمر معاً؟

الفرضية

تدعي الدراسة أن فهم تجربة المستعربين اليوم، لا يكون إلا عبر الرجوع إلى المسار التاريخي الذي أنتجته تجربة الاستعمار الاستيطاني الصهيوني في فلسطين، ومن خلال فهم مكون العنف وعلاقته ببنية الاستعمار الاستيطاني الصهيوني والاستشراق تتضح قراءة تجربة المستعربين، باعتبارها جزء من مسار الاستيطان الصهيوني المستمر.

وبناء عليه، تقدم الدراسة افتراضاً بأن تجربة المستعربين كانت فائضاً لعلاقة كل من الاستعمار الاستيطاني الصهيوني في ادعاء السيادة الأصلانية على الأرض، والاستشراق الصهيوني الذي يقيد وينتج صورة الفلسطيني، والعنف في ترسيخ ثنائية المستعمِر/المستعمَر عبر إنشاء حالة مستمرة من بناء الحدود الاستعمارية واختراقها. بالتالي تفترض الدراسة أن الاستعراب الصهيوني هو النموذج الذي يجسد منطق الإنشاء والنفي المستمر، ومن خلاله يمكن فهم وتفسير تاريخ الاستعمار الاستيطاني الصهيوني في فلسطين.

حد المصطلحات

- **الاستشراق:** هو ذلك الموقف والخطاب الجغرافي والسياسي والثقافي المقترن بخلق وإنشاء ثنائية "الغرب/الشرق". ويشكل بنية المعرفة والخطاب الذي انتجه "الغرب" عن "الشرق" بحكم الموقعية المقترنة بتشكل المركز الأوروبي وحركة التوسع الاستعماري تجاه "الشرق". ومن خلاله تم موضعة "الشرق" على

مسرح التمثيل "الغربي" المرتبط بعلاقات القوة والتقسيم الجغرافي المتخيل، إذ عبرَ الاستشراق عن علاقات القوة التي ارتكزت عليها أوروبا في إنتاج وتوظيف المعرفة المنشبكة بالضرورة مع سلطة المركز الأوروبي، والذي أنشأ هويته وخطابه "كذات فاعلة" بموازاة تشكيل "آخر" كموضوع استعماري يخصه ضمن نظام صارم من الإنشاء والخطاب، بمعنى أنه نهج للإنشاء المرتبط بأليات المعرفة والسلطة في إنتاج صورة "الشرق" وتقييده بخطاب يجسد مصالح سلطة المركز الأوروبي[1]. حيث اقتضت هذه العملية التاريخية المتراكمة والتي يؤرخ لها سعيد من أواخر القرن الثامن عشر[2]، الفصل التام بين الجغرافيا والتاريخ عبر نزع سيرورة تطور المجتمعات في "الشرق" من واقعها الجغرافي، مقابل عملية إنتاج "الشرق" على قاعدة الفصل والتمثيل من أجل إخضاعه والسيطرة عليه.

- **الصهيونية**: تعود إلى الجذر اللغوي صهيون، حيث ارتبطت في التراث اليهودي بالإشارة إلى القدس[3]، وباتت تشير إلى الحركة المنبثقة من المؤتمر الصهيوني الأول، الذي عقد في "بازل سويسرا بين 29 و31 آب 1897 وتمثل انعقاده في الانتقال من حركة هواة صهيون إلى حركة صهيونية سياسية"[4]. ظهرت الصهيونية كحركة قومية أواخر القرن التاسع عشر في أوروبا، وجمعت ما بين الدين والعرق تحت سقف المشروع القومي الصهيوني، وقال "ناثان برنبويم" – وهو أول من صك المصطلح عام 1890– بأن الصهيونية تعني أن الشعب والعرق والقومية هم شيء واحد[5]. بالتالي فقد قامت الصهيونية على تحويل جماعة دينية إثنية إلى جماعة عرقية قومية. وكانت الصهيونية هي الترجمة العملية لحل "المسألة اليهودية" بإخراج اليهود من حالة الانعزال في أوروبا إلى الاندماج في المشروع الحداثي الأوروبي خارجها، بمعنى أن الحل الحداثي الأوروبي كان في إخراج اليهود من أوروبا فيزيائياً ليتم إعادتهم فكرياً وحضارياً إلى المركز[6]، ونرى الشرط في هذه العودة هو شرط استعماري بالضرورة. من ناحية أخرى فإن الصهيونية كانت رداً على فشل اندماج اليهود في مشروع التنوير الأوروبي[7]، مما أفضى لإنتاجها في رحم المركزية الأوربية التوسعية كحركة قومية مرتبطة عضوياً بمشروع "الحداثة الغربية"

---

[1] استخدم سعيد مفهوم ميشيل فوكو للإنشاء الكتابي من أجل تحديد هوية الاستشراق من حيث كونه نظام للسيطرة والضبط. في ادواردسعيد، **الاستشراق:المعرفة.السلطة.الإنشاء**، ترجمة: كمال أبو ديب، بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية. ط4، (1995): 39. انظر أيضاً حول ذات المفهوم في: ميشيل فوكو. **نظام الخطاب**، ترجمة محمد سبيلا. بيروت: دار التنوير، 1984.

[2] إدوارد سعيد، **الاستشراق: المعرفة، السلطة، الإنشاء**، ترجمة: كمال أبو ديب، بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية. ط4، (1995): ص38.

[3] Encyclopedia Judaica-second Edition, vol.21 (wel-zy). Jerusalem: Keter Publishing House. P/ 539-540: https://ketab3.files.wordpress.com/2014/11/encyclopaedia-judaica-v-21-wel-zy.pdf (processed 6.1.2017).

[4] افرايم مناحم تلمي، **معجم المصطلحات الصهيونية**. ترجمة أحمد العجرمي، عمان: دار الجليل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينية، 1988، ص404.

[5] عبد الوهاب المسيري، **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية**. المجلد السادس. القاهرة: دار الشروق، 1999، ص15.

[6] رائف زريق، **اسرائيل: خلفية أيديولوجية وتاريخية**. في دليل اسرائيل العام2011، تحرير كمال منصور. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية. 2011، ص 5.

[7] عزمي بشارة. "مائة عام من الصهيونية: من جدلية الوجود إلى جدلية الجوهر." **الكرمل**، العدد 53 ،1997، ص 11-20.

وموجة الاستعمار العالمي. لقد جسّد الاستعمار الاستيطاني البنية التي مكنت الحركة الصهيونية من العمل والاستمرار، وهو ما يحيل إلى أن الحركة الصهيونية هي حركة استعمار استيطاني بالضرورة.

- **الاستشراق الصهيوني**: هو نمط الاستشراق الذي ولدته الحركة الصهيونية في صياغة تصورات وأحكام وسياسات وبناء معارف عن العالم العربي وفلسطين مكاناً وسكاناً، وتضمن ذلك الفصل بين التاريخ والجغرافيا انطلاقاً من موقعية الصهيونية كونها جزء من فيض الحداثة الأوروبية الاستعمارية القائمة على فكرة التفوق[8]، والتي تنطلق فيها الصهيونية من ذات الموقعية من "الغرب الحداثي" إلى "الشرق المتخلف". وهذا يعني أن الاستشراق الصهيوني كان جزءً وضرورة ملازمة لبنية المشروع الاستعماري الاستيطاني الصهيوني ولا زال كذلك، وهو من أهم أدوات ترسيخ ثنائية المستعمِر/المستعمَر، بل وإعادة إنتاجها بقوالب متجددة على غرار (الفلسطيني المطلوب، المخرب، المتخلف، والإرهابي)، حيث يُمثِل الفلسطيني ويُمثَل في الخطاب الاسرائيلي وفق ضرورات المشروع الكولنيالي وعبر منظومة الاستشراق.
- **الاستعمار الاستيطاني**: هي ظاهرة تاريخية، ارتبطت بتوسع الامبراطوريات الكبرى وغزوها لمناطق جغرافية وراء البحار لغرض المنفعة الاقتصادية والتوسع والاستيطان، وهي تختلف عن أنواع أخرى من الاستعمار بحكم وجود الاستيطان الإحلالي المقترن بادعاء السيادة[9]. ولم تنتهِ ظاهرة الاستعمار الاستيطاني مع نهاية عصر الامبراطوريات الكبرى، بل أُعيد إنتاجها في سياق الدول القومية الحديثة التي انطلقت من المركز الأوروبي باتجاه غزو واستعمار بقع قصية في العالم، ولتستند بذلك على تقسيم الجغرافيات والسيطرة عليها وفق الرغبة والمصالح الاستعمارية. وتبدأ عملية الاستعمار الاستيطاني بالرغبة الجامحة في الاستيلاء على أرض ومقدرات سكان، وتستمر في انتزاع المجتمع الأصلاني من سيرورة تطوره ضمن منهجية البناء مقابل الهدم، ويوضح باتريك وولف أن منطق التصفية يفسر الاستعمار الاستيطاني بدون الاستناد فقط على مفهوم الإبادة كأداة تفسير ومدخل تحليل وحيد[10]، حيث تكون ملكية الأرض وادعاء السيادة بالتوازي مع ممارسة العنف من قبل المستوطنين هي من محركات عجلة الاستعمار الاستيطاني. يؤكد وولف بأن الاستعمار الاستيطاني بنية وليس حدث، وتعمل هذه البنية عبر مبدأ السلب والايجاب، والتي تقابلها عمليات النفي والإبادة والمصادرة مقابل بناء

---

[8] انعكست هذ الفكرة في كتاب هرتسل "دولة اليهود"، وكانت ولا تزال جزء من خطاب الصهيونية في كنف المركز الأوروبي في تعزيز ثنائية الحضارة /البربرية. انظر: ثيودور هرتسل. **دولة اليهود**، دار الزهراء للنشر، 1994.ص65 . انظر أيضاً في غيل أيال، **نزع السحر عن الشرق**. ترجمة حسن خضر، رام الله: مدار، 2009، ص54.

[9] Look at:Lorenzoveracini discussion about the definition of differences between colonialism and settler colonialism: Lorenzo Veracini, *Settler Colonialism: a Theoretical overview*. Basingstoke: Palgrave Macmillan , 2010, p1-15.

[10] Patrick Wolf ."Settler Colonialism and the Elimination of the Native". Journal of Genocide Research (2006), 8(4), December, 387–409.

مجتمع جديد، فيكون منطق التصفية والإلغاء ليس حدثاً إنما بنية تنظم المجتمع الاستيطاني[11]. إذاً فالاستعمار الاستيطاني هو عملية إحلال يتم عبرها إقصاء السكان الأصليين والسيطرة عليهم ضمن بنية تشمل الاستمرارية والتوسع، وتقوم على العنف في الاقتلاع والإنشاء معاً.

- **المستعربون:** الاستعراب لغةً هو من المصدر اِسْتَعْرَب: أي "صَارَ دخيلا في العرب ، وجعل نفسَه منهم"[12]، ويُطلق وصف المستعرب على من دخل في حياة العرب وتبنى لغتهم وعاداتهم. أما ما يُراد بالاستعراب وفق سياق الصهيونية هو اختراق الحياة العربية واستخدام اللغة والثقافة لأغراض استعمارية، أمنية استخباراتية وقتالية. حيث تبنى أوائل المستوطنون نمط الاستعراب، لتحقيق أهداف البقاء الاستيطاني، خاصة الحراس، ومن ثم قام أفراد منظمة "بارغيورا وهشومير" لحراسة المستوطنات اتخاذ الزي العربي أسوة بالحراس العرب[13]، كأول مرحلة لظهور بواكير تنظيمات الاستعراب. ولاحقاً في عام 1941 شُكلت وحدة المستعربين كفرع تابع لـ"البالماخ" باسم الدائرة العربية وكانت طبيعة عملهم تتطلب التخفي لأسابيع أو أشهر أو حتى لسنوات[14]. استمر عمل المستعربين ونشاطهم بعد إقامة الدولة، ويعمل المستعربون اليوم في وحدات تابعة للجيش والشرطة الاسرائيلية، حيث يقومون بالتنكر واختراق الأوساط الفلسطينية لتنفيذ عمليات اغتيال واعتقال بحق النشطاء الفلسطينيين.

أهمية البحث

يناقش البحث ظاهرة المستعربين كظاهرة نشطة في عملية السيطرة/الإقصاء المستمرة التي تستهدف الفلسطينيين في ظل المشروع الاستعماري الاستيطاني المستمر، حيث يرتبط نشوء الظاهرة سوياً مع بداية تشكل بنية المنظومة الاستعمارية، وهي منذ ذلك الحين تطورت وتعاظمت لتلعب دوراً بارزاً اليوم في عمليات السيطرة. وتكمن أهمية الدراسة في كونها تبحث ظاهرة معاشة وحيوية تمس حياة الفلسطينيين اليومية، خاصة في تعبير الظاهرة عن محاولة المشروع الاستعماري المستمرة في محو ذلك الوجود، ومحاولة تشكيله ضمن الرؤية الاستشراقية تمهيداً لنفيه مجدداً. كما تحاول الدراسة كتابة تاريخ المستعربين بمعزل عن فلك هيمنة الخطاب

---

[11] انظر: باتريك وولف. "البنى الأولية للعنصرية: الأرض والعمل والتمييز". ترجمة أحمد عوض، **الثقافة العالمية**: مجلد22،عدد116(2003):11-119.

[12] معجم المعاني، الموقع الالكتروني. http://www.almaany.com/ar/dict/ar-ar/%D9%85%D8%B3%D8%AA%D8%B9%D8%B1%D8%A8/ (استخدم بتاريخ، 30.12.2016)

[13] جوني منصور وفادي نحاس. **المؤسسة العسكرية في اسرائيل**. رام الله: مدار، 2009، ص24.

[14] שילוי، לוחמי הצללים: 10 דברים שלא ידעתם על המסתערבים، פורסם 18/11/15، http://www.mako.co.il/pzm-magazine/Article-5da80c044b91151006.htm (استخدم بتاريخ، 5.1.2017).
شاي ليفي. مقاتلو الظلال: 10 أشياء لم تعرفوهم عن المستعربين.

المعرفي الصهيوني، بمعنى أنها تسعى لـــتأريخ ظاهرة المستعربين ضمن أدوات معرفية وتفسيرية توضح للقـــارئ كيفية فهم هذه التجربة ضمن واقعها الاستعماري الاستيطاني والمرتبط شرطاً ببنية الاســـتعمار الاســـتيطاني والعنف.

موقع/موقعية الباحث

في منتصف العام 1998، كنت قد التحقت بجامعة بيرزيت، وتحديداً كلية الأداب، دون أن أحدد مسبقاً مجال دراستي الجامعية. لذى تنقلت بين كلية الاعلام والترجمة والتجارة، دون أن أجد ضالتي في الدراسة الجامعية، وكان اهتمامي أنذاك منصباً في مجال الرياضة، وتحديداً كرة السلة، حتى انقطعت عن الجامعة آواخـــر العـــام 2000، مع بداية الانتفاضة الثانية، إلى أن تم اعتقالي في اجتياح رام الله في 28.6.2002، حيث أمضيت في السجون الصهيونية أكثر من خمس سنوات. وفي بداية شهر أبريل من العام 2005، وداخل ســـجن النقـــب الصحراوي، تمكنت من الحصول على نسخة جريدة "يديعوت أحرنوت"، والتي كانت تـــوزع في الســـجن بشكل غير منتظم. وحينها كنت في بداية طريق تعلم اللغة العبرية، وكنت قد قررت محاولة خـــوض تجربـــة الترجمة. وفي ذلك اليوم وقعت الجريدة في يدي لأتصفحها باحثاً عن مقال يصلُح للترجمـــة، وكـــان مقـــال "الصياد" قد حاز انتباهي لعدة اسباب. و لم أكن أعرف أن هذا المقال عن أحد المستعربين، لكن طريقة تقديم المقال، والاستعارات المستخدمة في العنوان استوقفتني لما فيها من مساحة واسعة للعنف، والذي يتقاطع مـــع التجربة التي كانت أحد مفاتيح وجودي في السجن الصهيوني. والمحصلة أني ترجمت المقال حينها بشكل حرفي، وبدأت بالحديث شبه اليومي مع زملائي في القسم عن المقال، دون تقديم إطار معرفي يساعدني في فهم معـــنى الاستعراب الصهيوني، بمعنى أني كنت راوياً لحكاية المستعرب، إلى أن التقيت بالدكتورة رنا بركات، وجمعنا الحديث عن تجربتي الاعتقالية بعرض هذه الحكاية التي استوقفتها طويلاً، وكانت محور العديد مـــن نقاشـــاتنا سوياً، لأتحول في هذه الرسالة من راوي للحكاية إلى باحث عن جذور هذه الظاهرة، محاولاً تقـــديم روايـــة خارج فلك المعرفة الصهيونية، التي بدأت أتحسس بضرورة تفكيكها وتقديم رواية أصلانية، عـــبر تجـــربتي في برنامج الدراسات الاسرائيلية في جامعة بيرزيت، التي تحملت جزءً وفيراً من عنف المستعربين خارج وداخـــل أوسارها. كما أني في هذا البحث أُعبر عن موقعية مزدوجة، أولاً: كوني أُمثِل وأُمَثل ضـــمن ثنائيـــة الحالـــة الاستعمارية في فلسطين، وأقف في إطار التقسيم الاستعماري كمستعمَر. وثانياً: يشكل الحقل الأكاديمي الذي أشغله موقعية لا تدعي الموضوعية بإطلاقها بقدر اهتمامي باستخدام منهج علمي مقترن بمعنى واقعي المعـــاش لفهم ظاهرة المستعربين.

المنهجية

تحاول الدراسة تفكيك العلاقات التاريخية والعضوية التي أنتجت ظاهرة المستعربين في سياق تجربة الحركة الصهيونية ومشروعها الكولنيالي، وتسعى إلى ذلك عبر استخدام منهج التحليل التاريخي وتحليل الخطاب ضمن إطار تفسيري يتمثل باستخدام أدوات مفاهيمية تتمثل بالاستشراق والاستعمار الاستيطاني والعنف.

الصعوبات

تجسد البيئة الاستعمارية التي تحاول الدراسة العمل ضمنها معيقاً مركزياً، كون مؤسسات المشروع الكولنيالي تحتكر المعلومات وتقوض الأدوات البحثية بحكم استمرار المشروع الاستعماري على أرض الواقع والقائم على فكرة الأمن كترجمة لحاجة احتكار وممارسة العنف، حيث تكتنف ظاهرة المستعربين حالة من الإخفاء والإظهار المستندة إلى الشرط الاستعماري، كما تشكل قلة المصادر وموقع الباحث أحد صعوبات الدراسة.

مراجعة الأدبيات

الاستعراب الصهيوني، ظاهرة استعمارية تشكلت في إطار تبلور المشروع الصهيوني في فلسطين، منذ بدايات الاستيطان، ووصولاً إلى استمرار محاولة إحكام قبضة السيطرة والإقصاء على الفلسطينيين حتى يومنا هذا. أسعى ضمن هذه المراجعة إلى مناقشة الخطاب الصهيوني في تأريخ الظاهرة ووصفها ومحاولة إنتاج رواية عنها، بالإضافة للمساهمات الأدبية التي تناولت ذات الظاهرة من عدة جوانب أخرى. وتستند مراجعتي للكتابات حول المستعربين إلى عدة مستويات، أولاً: الخطاب الصهيوني الرسمي[15]، والمساهمات الأدبية المرتبطة بشكل مباشر بالمؤسسة الرسمية، مثل الروايات التأريخية والسيرة الذاتية. ثانياً: المداخلات الأكاديمية التي تعارف على وصفها إسرائيلياً بـــ "ما بعد صهيونية"، والتي عبرت عنها مساهمات علماء الاجتماع ضمن المؤسسة الأكاديمية الإسرائيلية، وهذه المداخلات ذات ارتباط مباشر وغير مباشر بدرجات متفاوتة بالخطاب الصهيوني الرسمي، ويبرز فيها مفاهيم جديدة مثل "الرومانسية، سياق الاتصال/الانفصال". ثالثاً: الأدبيات التوثيقة والوصفية للظاهرة التي أنجزها باحثون عرب، والتي حاولت تقديم رواية مقابلة للرواية الصهيونية.

تسعى مراجعة الأدبيات حول ظاهرة المستعربين إلى الوقوف عند أبرز المحاور المركزية التي تقاطعت واختلفت فيها الرواية حول المستعربين، والتي تراوحت بين الخطاب الرسمي، والسيرة الذاتية، والرواية، والنقد الملتزم

[15] الخطاب الصهيوني الرسمي، هو الخطاب الذي يصدر من المؤسسة الرسمية في اسرائيل، حيث تعبر عنه المواقع الرسمية، أو الدراسات والروايات التي تحمل حقوق طبع وإصدار حصرية "لوزارة الدفاع الاسرائيلية".

بفلك الرواية الرسمية، والتوثيق المقاوم للمشروع الاستيطاني. وبهذا تتقارب مجموعة الدراسات السابقة مع مداخلة هذه الدراسة التي تموضع الاستعراب الصهيوني ضمن ثلاثة محاور – توضح من خلالهم بأن قراءة الاستعراب تكون عاجزة ولا تستوفي الواقع الاستيطاني وتاريخه في فلسطين – وهم: مقاربة الاستعمار الاستيطاني، مقاربة الاستشراق والاستشراق الصهيوني، ومقاربة العنف. وبحسب ادعاء هذه الدراسة بأنه ومن خلال قراءة العنف كمركب رئيسي ومنتج معاً للاستعمار الاستيطاني والاستشراق الصهيوني، يمكن تفسير بزوغ ظاهرة المستعربين وتحولاتها منذ بدايات الاستيطان في فلسطين وحتى الحاضر من يومنا هذا. وعبر هذا الإطار النظري يمكن قراءة المسار التاريخي، والتحولات التي اكتنفت ظاهرة المستعربين.

إذاً، كيف استوعب الخطاب الصهيوني الرسمي هذه الظاهرة، وكيف أعاد انتاجها؟ وهل استوفت الدراسات الأكاديمية الإطار التحليلي- الوصفي لهذه الظاهرة؟ بالمقابل تتساءل هذه المراجعة حول الكتابات عن المستعربين في الخطاب الصهيوني بعدة مستويات، أهمها: هل هي ظاهرة عبرت عنها "الطلائعية الصهيونية" وحاجة الأمن؟ أم أنها ظاهرة ارتبطت بالاستشراق وحده؟ أم أنها تُفسَّر من خلال إحالتها كتجربة استعمار استيطاني فقط؟ أم أن حاجات سوق العمل الاستيطاني والوعي القومي للمستوطنين هما من دفعا لإنتاجها؟. أم أن بدايات الاستعراب كانت "رومانسية" بفعل "اللقاء" بين "الغرب-الشرق" مما دفع لإنشائها؟. في محاولة الإجابة على كل التساؤلات السابقة، والتي تبلورت من داخل الأدبيات ذات العلاقة، سواء الصهيونية أو غيرها، يمكن أن نشير بأن هيمنة الخطاب والراوية الصهيونية من حيث طغيان المفردات والتأثير في مشارب الوصف والتحليل، باختلافها وتقاطعها، وغياب الصوت الأصلاني في تأريخ التجربة، كان من أبرز سمات المراجعة. كما أن وجود إجماع على "الإعجاب" بالظاهرة صهيونياً، ومحاولة تجسيد فرادة خاصة، برز أيضاً بشكل متفاوت بين مختلف الأدبيات.

المستعربون في الخطاب الصهيوني الرسمي:

اعتمد الخطاب الصهيوني الرسمي في عرض تجربة المستعربين على ركيزتين أساسيتين، ربط التجربة بمفهوم "الطلائعيين"، وتسجيل تاريخ الظاهرة مع تاريخ مأسسة قوة العمل كقوة محاربة ترتبط بمفهوم "الأمن – الدفاع"، والتي ستتحول لاحقاً كجزء من التنظيم العسكري- الصهيوني "الهاجاناة، والبالماخ". ويعكس تعريف المستعربين والاستعراب في الموقع الرسمي "للهاجاناة" عنصري "الأمن والطلائعية" بوضوح، حيث ورد في التعريف:

يعود الإسم إلى الكلمة العربية "استعرب"، والتي تشير لحالة يعيش فيها غير العرب كعرب. في الهاغاناة والبالماخ كان الهدف بتجنيدهم وتدريبهم لانتحال معيشة العرب في كل تفاصيلها. خدم الاستعراب في حقل الاستخبارات وجمع المعلومات،

والحرب النفسية، بالإضافة للمهمات الخاصة في الدول العربية المجاورة...، كان المستعربين هم أعضـــاء في الهاجانـــاة، وفي اختيارهم للتجنيد أخذ بالحسبان المهارات المهنية، والولاء، والتمسك بفكرة الطلائع الصهيونية. كما كان الحرص علـــى تدريبهم على تعلم الدين والفلكلور الشعبي ونمط الحياة واللهجات المحلية في بلد المقصد[16].

تشير الرواية الرسمية أيضاً إلى دور موجة الهجرة الثانية في تحمل عبء دمج الفكر القومي مع حاجة "الـــدفاع والأمن"، وهو ما ترجم عملياً في احتلال العمل والحراسة. كما توثق الرواية الرسمية ظهور ممارسة الاستعراب كجزء من نشاط تنظيم "بارغيورا" ولاحقاً "هاشومير". وهما اللذان انبثقا من تنظيم "بوعالي تسيون– عمـــال صهيون" كتشكيلات طلائعية مسلحة تمكنتا لاحقاً من احتلال الحراسة[17]. كذلك تقدم روايات تأريخ الظاهرة المرتبطة بالخطاب الصهيوني الرسمي باعتماد تاريخ تشكيل المستعربين مع تأسيس الدائرة العربية في "البالماخ"، وهي الرواية التي تعكس صورة المستعرب من خلال المؤسسة، حيث يظهر فيها المستعرب من خلال عناصـــر الخطاب الصهيوني بصورة أشد وضوحاً من مرحلة التبلور إبان الحراسة. بمعنى أن صورة المستعرب بدت عليها ملامح الاكتمال والنضوج صهيونياً في سياق عملية المأسسة، وليس قبلها. فقد تشكلت الوحدة رسمياً بناء على طلب الانتداب البريطاني، وحاجته اختراق المحيط العربي خاصة في دمشق، لبنان، والعراق، في العام 1941، وتتجاهل الرواية نشاط تجربة الاستعراب قبل عملية المأسسة، كما يظهر في كتاب "المستعربون الأوائل"[18] لـــ "جملال كوهين"، وكتاب "مستعربو البالماخ"[19] لـــ "تسفيكادورر"، وكلاهما من إصـــدار "وزارة الـــدفاع الاسرائيلية"، وهذا مؤشر على تمكن الخطاب الصهيوني الرسمي من احتواء وإنتاج رواية المســـتعربين ضـــمن مفرداته وحسب حاجاته.

في مقال نشره الموقع الاخباري العبري "mako" بتاريخ 18.11.2015، يؤكد الصحفي "شاي ليفـــي" بأن: "المستعربون الأوائل كانوا رجال الوحدة العربية التابعة للبالماخ، والذين حاولوا فهم الســـكان المحلـــيين، وامتدت مهماتهم لأسابيع وأشهر، وأحياناً سنوات"[20]. ومن خلال قراءة العنوان "عشرة أشياء لم تعرفوهم عن المستعربين: منذ أيام البالماخ وحتى اليوم، مقاتلي الوحدات المختارة في الجيش والشرطة يعملون بـــالتخفي في

---

[16] ארגון ההגנה – האתר הרשמי:
http://www.irgon-haagana.co.il/show_item.asp?levelId=59798&itemId=47755&itemType=3 (استخدم بتاريخ 12.9.2017).

[17] חני זיו ויואב גלבר. בני קשת- מאה שנות מאבק-חמישים שנות צה"ל. משרד הבטחון,1998,ד29-26. حني زيو ويؤاف جلبر، أبناء برج القوس–مئة عام نضال– خمسون عام لجيش الدفاع.

[18] גמליאל כהן. המסתערבים הראשונים (סיפורה של המחלקה הערבית של הפלמ"ח). ישראל: הוצאת משרד הביטחון. 2002. جيملال كوهن. المستعربين الأوائل (قصة الدائرة العربية للبالماخ).

[19] צביקה דרור. המסתערבים של הפלמ"ח. הוצאת משרד הביטחון، 1986. تسفيكا دورر. مستعربون البالماخ.

[20] شاي ليفي. مقاتلي الظلال، مصدر سبق ذكره بالعبرية.

مهمات حساسة بهدف أن تناموا بشكل أفضل في الليل"[21]، تظهر الحبكة التي تقدم صورة المستعرب عبر المؤسسة فقط، والتي يظهر فيها المستعرب كمقاتل نوعي وكتجربة فريدة.

إن نموذج السيرة الذاتية ارتبط بشكل مباشر بسلطة المؤسسة الرسمية وخطابها، واستنتج ذلك من خلال ملاحظة جهة الإصدار ومسؤولية النشر وحقوق الطبع التابعة حصراً "لوزارة الدفاع الإسرائيلي"، بالإضافة لوقوف السيرة الذاتية عند ذات المعايير التي اعتمدها الخطاب الصهيوني الرسمي. فمثلاً، تقدم رواية السيرة الذاتية للمستعرب "حيمكا لبكوك"[22] نموذج المستعرب قبل وبعد المأسسة، وتشير إلى حالة التحول "كطلائعي"، فتكون الإشارة لبدايات الاستعراب قبل المأسسة مرتكزة على مفهوم التحول وقابلية التقمص كسمة تعكس العلاقة بالأرض، ثم تؤكد بعد تجربة المأسسة على حاجات "الأمن والدفاع". إن نموذج السيرة الذاتية، وروايات المستعربين الأوائل والجدد، تشير إلى وجود نزعة استشراقية عنيفة أولاً، وميل لأسطرة التجربة الشخصية للمستعرب ثانياً. في كتاب "السلام على الخراب"[23] لـ"رزيال ممط"، وهو قصة المستعرب "حيمكا لبكوك" الذي التحق بحراس المستوطنات، وانتظم في "الهاجاناة والبالماخ" لاحقاً، ونفذ عمليات استخباراتية وقتالية في المحيط العربي، يروي الكتاب بنمط قصصي حكاية "حيمكا" منذ طفولته، ويركز في عرض مناحي العلاقة المنشبكة والمشتبكة مع الفلسطينيين، وإظهار السياق الصهيوني كإطار تحول برزت من خلاله "جاذبية" و"عبقرية" حيمكا. والنزعة الأكثر وضوحاً والأعلى صوتاً، هي نزعة ادعاء الأصلنة. ليكون المنتج هو نموذج المقاتل – المستعرب و"الطلائعي"، لكنه أكثر ارتباطاً بالأرض وتاريخها من سكانها الأصليين كما يدعي، ولديه من الصفات الأسطورية ما يكفي لهضم ثقافة وتاريخ الفلسطينيين، وإعادة إنتاجها في سياق استعرابه، والمحصلة أنه وعبر ما سبق سيكون هو نموذج لليهودي الجديد الذي تروى عنه الحكايات[24]. وفي إشارة أخرى، تقدم هذه الحكاية مؤشرات على دور الحركة الصهيونية في "فكفكة" عوامل "الاتصال" بالمحيط العربي، وترسيخ ثنائيات الانفصال، وهو ما اجتمعت عليه بعض الكتابات الأكاديمية في شد الخطاب الصهيوني نحو مقاربة الاستعمار، والتي سنناقشها في المحور القادم حول الأدبيات المندرجة تحت مظلة علم الاجتماع في إسرائيل.

---

[21] المصدر السابق.

[22] هو من المستعربين الأوائل، وله سيرة ذاتية في كتاب "السلام على الخراب" ستتناوله الدراسة لاحقاً.

[23] רזיאל ממט. שלום על הרובים-סיפורם של חיימקה לבקוב וחבירו. תל אביב, משרד הביטחון، 1986. رُزيال ممط. السلام على الخراب–قصة حيمكا لبكوب ورفاقه.

[24] سيتناول الفصل الثاني من الدراسة الوقوف عند حيثيات النزعة الاستشراقية وادعاء الرومانسية في محاولة أسطرة رواية المستعرب.

يقدم "جيلِ حسكين" في مقال "هاشومير– التنظيم اليهودي بمعايير الهجرة الثانية"[25]، قراءة حول بدايات تنظيم هاشومير، والأبعاد التي استدعت إنشاء هذا التنظيم، حيث يعيد حسكين إنتاج مفهوم "الدفاع" بالتوازي مع فكرة البعث القومي، ويقدم تجربة تنظيم هاشومير وهو التنظيم الذي تضمن بدايات ظاهرة المستعربين حسب قرائته. ويشير حسكين بأنه في إطار ظهور الفكر القومي مرحلة الهجرة الثانية، كان من الضروري أن يتضمن ذلك إنشاء قوة "دفاع" كجزء من ذات المسار، حتى أن هذا الطموح كان منذ الهجرة الأولى[26]. كما يضيف بأن هدف التنظيم كان زرع قوة "رادعة – مدافعة" داخل مجتمع اليشيوف، وأثاره كانت عميقة في الحياة الأمنية داخل اليشوف[27]. بذلك يجسد عمل حسكين إعادة إنتاج للخطاب الصهيوني الرسمي، وهو الخطاب الذي يركز على دور الفلسطيني كمصدر تهديد، بالمقابل الوقوف عند حاجة "الأمن" للمجتمع الاستيطاني قبل إنشاء الجسم المؤسساتي الرسمي، بمعنى أن بذور المشروع الصهيوني – الأمني كانت تتوازى مع التطلعات القومية والحاجة.

وبصيغة أخرى تظهر ذات الرواية في كتاب "Military And Politics In Israel" لـ"عاموس برلمتير" وبشكل أكثر عمقاً، إذ يؤكد بأن الصهيونية الاشتراكية احتضنت"عدد واسع من الرجال والأفكار والتنظيمات في الشتات وفي فلسطين، لكن فقط في فلسطين تشكلت كحركة مع أثار كبيرة. وهناك أصبحت تمثل التفاعل بين الالتزامات الاشتراكية الأيديولوجية، والاعتبارات العملية التي تؤثر فيها. والنتيجة كانت في التحول التدريجي للمساعي الكولنيالية إلى مشروع للتحرر القومي"[28]. بمعنى أن الحركة التي تبلورت في فلسطين على أثر الفكر الصهيوني الاشتراكي في الشتات، كانت العراب الرئيسي في بنية التجربة الأمنية التاريخية والمرتبطة بالعنف منذ بواكير الاستيطان الصهيوني، خاصة الهجرة الثانية، والتي تجسدت فيها بنية ما سيطلق علية لاحقاً مؤسسة الجيش في إسرائيل. كما يشير عاموس وبوضوح إلى أن "الجيش الحديث في إسرائيل له جذوره في البنية الأمنية لحركة الطلائعيين—الثوريين قبل الاستقلال في فلسطين. فقد تم إنشاء وحدات الدفاع هذه من قبل الصهيونية الاشتراكية، وهي المكون الأكثر تأثيراً وفاعليةً في الاستعمار اليهودي"[29]. يرى عاموس أيضاً أن "عبقرية الطلائعين" اليهود مكنتهم من تطوير إطار مؤسسي مفصل سابق

---

[25] גיל חסקן, השומר –ההתגוננות היהודית בתק' העלייה השנייה: http://www.gilihaskin.com/ (استخدم بتاريخ 1.10.2017). جيل حسكين، هشومير–الدفاع اليهودي فترة الهجرة الثانية.

[26] المصدر السابق.

[27] المصدر السابق.

[28] Amos Perlmutter, *Military And Politics In Israel Nation- Building And Role Expansion*. London: cass,1969,p3.

[29] المصدر السابق، ص3.

لتحقيق وحدة الأمة اليهودية، وفاعلية هذه التجربة لم يكن لها نفس الأثر عندما تبلورت البنى المؤسساتية للهاجاناه[30]. أي أن مفهوم "الدفاع القومي" تحقق عملياً مع ممارسة دور الهاجاناة كقوة محاربة من أجل المشروع القومي. والملفت هو ما يتناوله عاموس كإطار مفاهيمي-عملي لتشكل الجهاز العسكري في التجربة الصهيونية، والتي يراها من خلال مفهومان: النمط المهني، والذي عكسته رؤية جابوتنسكي في وجود جيش قومي – مهني لا ينحاز لأي حزب أو فكرة، ويكون حليف لسلطة الانتداب من أجل تحقيق أهداف قيادة البيشوف وغلبتها في فلسطين. والثاني ما قدمه يوسف ترامبردور حول فكرة الجندي كطليعي، والذي تم تفسيره وممارسته من قبل كتائب العمل العبري[31]، حيث اعتبرت وظيفة الدفاع كضرورة للوجود اليهودي، والالتزام بحياة الجندي – الطليعي كانت طريق لتحقيق "الخلاص" الفردي والجماعي.

تفيد هذه المقاربة في موضعة التجربة العسكرية – الأمنية لليهود قبل الدولة في سياقين، الأول تشكل هذه التجربة ضمن مفهوم "الدفاع"، والمنحدر من تجربة اليهود خارج فلسطين، خاصة أن بدايات تنظيم "هاشومير" كانت قد تشكلت في شرق أوروبا قبل وفودها إلى فلسطين، كمحاولة لتجنيد الشباب اليهودي للدفاع عن وجودهم كأقلية قومية مهددة. ثانياً، الوعي القومي– الحداثي بشكل الكيان السياسي على غرار الدولة الوطنية التي تسيطر على منابع الوعي القومي عبر المدارس والمؤسسات، وخاصة الجيش في التجربة الصهيونية[32]، بل وتضيف الصهيونية مفهوم الطلائعيين كشرط لإنتاج الرواية القومية– الرسمية. تجدر الإشارة إلى أن مفهوم القومية وعلاقته بتشكل وتطور ظاهرة المستعربين سيتم التركيز عليه في الفصل الثاني من الدراسة بين الخطاب الصهيوني الرسمي والدراسات الأكاديمية المنحدرة تحت مدارس علم الاجتماع التي تطورت ما بعد إقامة الدولة.

المستعربون في خطاب الأكاديميا الإسرائيلية: علاقة وإعادة إنتاج الخطاب الصهيوني

ليس ببعيد عن الرواية الصهيونية –الرسمية والتي تجسدت في مقولة المؤسسة، تأتي الأدبيات التي أطلق عليها كتاب وباحثين إسرائيليين متأثرين بالنظريات النقدية للمقولات القومية والتاريخية الكبرى في العالم بـ"ما بعد صهيونية"، لتعيد إنتاج رواية تدور في فلك الخطاب الصهيوني، ولكن بلغة تعبر عن سياق مختلف في ذات المنظومة. ولتوخي الدقة، فقد قدمت مداخلات العديد من الباحثين في المؤسسة الأكاديمية الإسرائيلية، مؤشرات ملفتة قد تظهر كتحدٍ للرواية التاريخية الصهيونية. وهو ما أشار له عزمي بشارة عند تقديمه لكتاب "باروخ

---

[30] المصدر السابق، ص4.

[31] المصدر السابق، ص4.

[32] انظر إلى :بندكت أندرسون. **الجماعات المتخيلة: تأملات في أصل القومية وانتشارها**، ترجمة ثائر ديب. الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2014.

كيمرلينغ– المجتمع الاسرائيلي". إذ يقول: "وعلينا أن نذكر طبعاً أنه حتى عندما شد كيمرلينغ الخطاب الجامعي الإسرائيلي إلى هذه الحافة، أي مقاربة المشروع الصهيوني كمشروع استعماري، فإنه بقي في إطار الخطاب الأكاديمي المأسس. وبقي إسرائيلياً، بمعنى الثقة بالنفس اللازمة لمقاربة الأمور كما هي"[33]. أي أن المؤسسة الأكاديمية في إسرائيل وصلت لدرجة من الثقة تدفعها لاستيعاب مقاربة الصهيونية كحركة استعمار، بالتالي إعادة إنتاج الرواية في سياق تطويعها حداثياً بلغة العصر، فمثلاً في عرضه لقراءة تكوين "مجتمع مهاجرن– مستعمرين ما قبل الدولة" ، يقول كيمرلينغ : "كانت الهجرة اليهودية إلى فلسطين جزءاً من ظاهرة عالمية مع أنها تأخرت عن وقتها وحصلت عندما كانت الممارسة الاستعمارية في أواخر عهدها"[34]، هذا النموذج يفسر قدرة مؤسسة الخطاب والخطاب ذاته على إبراز ادعاء قد يبدو محكماً بلغة المعرفة الأوروبية، بالتالي استنساخ ذات النموذج وتأويله لصالح تفسير معاصر.

وكما تعرض الرواية الرسمية في إسرائيل، تبلور ظاهرة المستعربين كجزء من بنى المؤسسة التي انبثقت من مساعي الصهيونية، على شاكلة الخطابات القومية السائدة، يعرض كيمرلينغ رواية تولي أهمية للبنى التحتية في تبلور المجتمع والدولة، ويرى أن المكونات الاجتماعية والسياسية لها جذور مشتركة ومنفصلة، وبالتالي فإنها تتصارع وتتحد وهذه العملية مهمة لفهم كيفية قراءة المجتمع الاسرائيلي[35]. ويقول مفسراً ذلك بأن "بنيت جالية المهاجرين هذه على مستويين مختلفين، في وقت واحد، كانا مع ذلك مرتبطين ببعضهما البعض: أ- خلق ثقافة، لغة، ونمط حياة، وأيديولوجيا قومية، وهوية جماعية تتلاءم مع الظروف المتغيرة للفترة والمكان، ب- تأسيس مؤسسات اجتماعية، وسياسية، واقتصادية، وميليشيوية يمكن أن تستخدم بالتدريج كبنية تحتية لمجتمع كامل يؤدي في النهاية إلى إقامة دولة قومية يهودية"[36]. هكذا تكون عوامل الصراع والحاجة، بالإضافة للمتغيرات المحيطة بالمجتمع الاستيطاني من أبرز مقومات نشوء ظاهرة المستعربين بحسب قوله. ولا يسقط كيمرلينغ دور مفهوم "الطلائعية" كحاجة لإنتاج نموذج اليهودي الجديد، مضيفاً الإشارة إلى الرابطة بين الفرد والأرض عبر الاستعمار الزراعي، فقد "كان تبني الاستعمار الزراعي كهدف صهيوني مفضل وتمجيده، إضافة إلى الميول البدائية القديمة والرومانسية الكامنة في الربط بين الإنسان والأرض ورؤية الزراعة كعمل جسدي

---

[33] عزمي بشارة، في تقديم :باروخ كيمرلينغ. **المجتمع الاسرائيلي مهاجرون مستعمرون مواليد البلد**، ترجمة هاني العبد الله. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2011، ii.

[34] باروخ كيمرلينغ. **المجتمع الاسرائيلي مهاجرون مستعمرون مواليد البلد**، ترجمة هاني العبد الله، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2011، ص109.

[35] المصدر السابق ، ص13.

[36] المصدر السابق، ص110.

يهدف إلى إصلاح الإنسان والمجتمع وخلق –يهودي جديد"[37]. وهذا ما تحقق في موجة الهجرة الثانية، خاصة وأنها جلبت معها "نزعات تقديس القوة والبطش، سواء كان ذلك إزاء الداخل "الصراع الطبقي" أو إزاء المحيط العربي. وأضيف إلى هذه النزعات مفاهيم قومية علمانية واشتراكية بأنواعها وألوانها المختلفة اِلتحمت جيداً بالوهج الثوري الذي كان معششاً في داخلهما"[38]. تفيدنا هذه الإشارة لفهم مركب القومية والعنف في الاستعراب الصهيوني، باعتباره جزء من ممارسات تحقيق المشروع القومي[39].

يبرز كيمرلينغ مفهوم الصراع في إطار تبلور حاجات سوق العمل، والتي تكللت باحتلال العمل والحراسة، وهذا مرتبط بالوعي القومي لحاجات السيادة الاستيطانية، فقد "عرّف رجال الموجة الثانية أنفسهم كطبقة عاملة، وكطليعة لبناء مجتمع وأمة في آن. وتحت شعار العمل العبري حصرياً والحراسة العبرية، طالب هؤلاء بإبعاد العمال والحراس (النواطير) العرب من المستعمرات (الاستغناء عن قوة عميلهم) في سياق تعهد بالحلول مكانهم"[40]. كما وأنه مع تشكيل جمعية "بار غيورا" التابعة لتنظيم "بوعلي تسيون" كمنظمة حراسة سرية، "اعتبر رجال هذه الجمعية أنفسهم طليعة نخبوية في القيادة، ووضعوا نصب أعينهم هدف إقامة قوة مسلحة لاحتلال البلد بروح شعارهم (بالدم والنار سقطت مملكة يهودا، بالدم والنار تقوم يهودا)"[41]. أي أن العنف لم يكن منفرداً أو بمعزل عن إطار القومية الاستيطانية، وكلاهما معاً بالإضافة لدور سوق العمل شكلوا بدايات بذور الاستعراب كما نقرأ من مداخلة كيمرلينغ.

يتناول كيمرلينغ دور الصراع في سوق العمل، وأثره في بنية المجتمع الاستيطاني، ويشير بذلك إلى أحد العوامل التي انتجت الاستعراب الصهيوني. في المقابل تركز مداخلة شفير حول تاريخ بناء المجتمع الإسرائيلي على المقاربة التي تتقاطع فيها إقامة المستوطنين الصهيونيين لمجتمع يهودي في فلسطين مع تطور "الصراع" بين اليهود والعرب[42]. ويضع شفير حركة العمل كأبرز أدوات تفسير تطور بنى الاستيطان بموازاة احتلال الأرض، فمن خلال احتلال الأرض والعمل تمكنت الحركة الصهيونية من تحقيق بذور تأسيس مجتمع استيطاني يمهد لقيام الدولة. ويرى شفير أن "موقع حركة العمل في سيرورة بناء المجتمع، والتطابق الواسع بين الاستيطان والأمن"[43]،من الأشياء التي تركت بصماتها على بناء المجتمع. حيث يؤكد أن الظروف المادية كانت الشأن

---

[37] المصدر السابق ، ص113.

[38] المصدر السابق ، ص116.

[39] ستتوقف الدراسة في الفصل الثاني والثالث على دور القومية وعلاقته بالعنف في نشوء وتطور ظاهرة المستعربين بشكل أكثر دقة.

[40] المصدر السابق ، ص118.

[41] المصدر السابق ، ص151.

[42] غرشون شفير. الأرض، العمل والسكان في الاستيطان الصهيوني. (**الكرمل**: مجلد 20، العدد 58، 1999)، ص129.

[43] المصدر السابق.

الأبرز في تاريخ تبلور المجتمع الاستيطاني، و"داخل هذه الظروف كانت هناك أهمية حاسمة لثلاثة عوامل: سوق الأرض وسوق العمل والنسبة العددية بين المستوطنين وبين السكان المحليين. وادعائي، فيما يلي، هو أنه ضمن سياق التجربة والخطأ في سوقي الأرض والعمل تبنى المستوطنون اليهود –منذ الفترة العثمانية– أنماط نشاط كان لها تأثير حاسم على خصائص المجتمع والدولة العتيدين"[44]. بذلك يكون الاستعراب الصهيوني هو من الأنماط التي نتجت بسبب "التجربة والخطأ في سوقي الأرض والعمال"[45]، وكانت ضمن سياق السيطرة على سوق العمل بما يتوازى مع تبلور الوعي القومي الاستيطاني في مواجهة الفلسطينيين، حيث أكد شافير بأن "الصراع من أجل احتلال العمل حدد الوعي القومي للعمال وبلورهم كجماعة قومية مقاتلة في الجالية اليهودية"[46]. يميز شفير أيضاً بين ست مراحل لتطور الاستيطان، مراحل ثلاث أولى تتوازى مع فترة الهجرة الأولى 1882–1903، ومراحل ثلاث لاحقة تتوازى مع فترة الهجرة الثانية 1904–1914[47]. وكانت السمة الأبرز هي تبني نموذج المستوطنات الطاهرة، أي النقية والتي تعتمد على فئة إثنية تحقق مردود مجدي يتكفل بإنجاز مسار نجاحها اقتصادياً كشرط لاستمرار تطورها الاستيطاني والاجتماعي السياسي. وهو ما تسبب في إعادة نظر البارون روتشليد في جدوى دعم المستعمرات، وفتح المجال لاحقاً بعد فشل زراعة البعل في الهجرة الأولى إلى "الانتقال نحو أساليب استيطان جماعية – قومية اشتراكية– قومية، بهدف تأسيس مستعمرات استيطان طاهر"[48]، والتي كانت أهم معالمها هي حركة الاقصاء واحتلال سوق العمل، المدفوعة بوعي صهيوني قومي بالإضافة لدواعي اقتصادية، فكان طرد العمال العرب نتيجة حولت المستعمرات الزراعية – الإثنية إلى نواة المشروع العملي الصهيوني على أرض الواقع، أي أنه مع بداية 1900 وظهور أثر الهجرة الثانية 1904، وتبني الهستدروت الصهيوني للنشاط الاستيطاني 1909[49]، بدأت مرحلة جديدة للاستيطان الصهيوني في فلسطين تميزت ببدء ممارسة الإقصاء تحت لواء الشعار القومي الصهيوني. وكما يستخلص شفير فإنه "إجمالاً سعت حركة العمل إلى إنشاء مستعمرات استيطان طاهرة ذات طابع خصوصي"[50]. وهذا يشير– حسب فهمي – إلى أن تجربة المستعربين التي نشأت سوياً مع موجة الهجرة الثانية، كانت تعبيراً عن حاجة الفصل والإقصاء للمشروع الاستعماري الاستيطاني، وما نموذج الاستيطان النقي إلا عملية ترسيخ للحدود بين

---

[44] المصدر السابق، ص130.
[45] المصدر السابق، ص130
[46] المصدر السابق، ص139.
[47] المصدر السابق ، ص137.
[48] المصدر السابق ، ص138.
[49] المصدر السابق ، ص140.
[50] المصدر السابق، ص142.

المستوطن والأصلاني. يضيف شفير "أن المهاجرين الجدد حاولوا، خلال فترة وجودهم الأولى في البلاد، كما حاول الذين سبقوهم من الهجرة الأولى، أن يتبنوا نمط الحياة المحلي. الهجرة الأولى حاولت تبني أسلوب زراعة الأرض الذي اتبعه الفلاح العربي، وحاولت الهجرة الثانية تبني مستوى معيشة العامل العربي. وفي الحالتين جرى التخلي عن هذه المحاولات بعد عدة شهور"[51]. إن محاكاة طبيعة حياة العمال والفلاحين العرب، وإن كان ينبع حسب ما يشير له شفير من الحاجة الاقتصادية، إلا أن وجود مجموعة استيطان إثني تبحث عن ذاتها باتجاه المشروع القومي الاستيطاني، كانت مؤشراً لبواكير حركة الاستعراب، بالتالي فإن تحقيق فكرة المستوطنة النقية ثم حراستها بعد طرد الحراس العرب والشركس كان تعبيراً عن حاجات ذلك المشروع، الذي استخدم الاستعراب كأداة كولونيالية لأغراض السيطرة /الإقصاء.

تتماهى قراءة شافير وكيمرلينغ في إبراز دور حركة العمل، والتي حسب قراءتي لا تكفي لتفسير النشوء التاريخي للمستعربين، فمع إضافة التنافس في سوق العمل، واحتلال الأرض، بوجود المستوطنين وطغيان نموذج المستوطنة الطاهرة، تم اخفاء بنية الثنائيات الاستعمارية والحدود، ومحاولة إبرازها من خلال حقبة احتلال العمل، وكأنها لحظة تبلور تلك الثنائية وتجسيد بداية الفصل بين المستعمِر/المستعمَر، أي تحويل الفلسطيني إلى "آخر" كمصدر تهديد مثل ما يظهر في الخطاب الصهيوني الرسمي، بل إن قراءتي التي سأعرضها في الفصل الثاني، تؤكد عكس ذلك، عبر استخدام مفهوم البقاء الاستيطاني كأساس لتبلور الثنائيات الاستعمارية.

الرومانسية – عقدة الاتصال والانفصال:

رأيت أن أتوقف في المراجعة عند مفهوم الرومانسية، لما يحمله من أهمية كمحور استخدمته المداخلات الأكاديمية الإسرائيلية، ولما أرى فيه من ادعاء يستوجب الفهم والتفكيك لاقترانه بخطاب الاستشراق ومحاولته استنساخ تجربة الاستشراق الأوروبي، متعمداً اسقاط الثنائيات الاستعمارية، ومؤسساً لخطاب دور الصهيونية في "فكفكة الاتصال" وتحقيق الانفصال تحت ستار الحاجة القومية والتجربة الاستعمارية.

لقد استخدمت بعض الأدبيات العبرية مفهوم الرومانسية، والذي يبرز من خلاله وصف مسار "العلاقة – اللقاء" منذ بدايات حركة الاستيطان، وحسب قراءتي فإن هذا المفهوم تركز على محورين هما؛ النزعة الاستشراقية المتخيلة حول الفلسطينيين، ثم استخدام تلك النزعة بشكل مزدوج لتفسير العلاقة بين المستوطن/الأصلاني من حيث الإشارة لوجود حالة تاريخية من "الاتصال" انتهت بتحقيق الانفصال بسبب سلطة وممارسة الخطاب الصهيوني. مثل هذه المقاربات، تستخدم إطار مفهوم الاستعمار والاستعمار الاستيطاني

[51] المصدر السابق ، ص139.

من باب تفسير تحولات العلاقة مع السكان الفلسطينيين بإحالتها لنزعات الصراع الداخلي في المجتمع الاستيطاني، وبتوازي تجربة الاستشراق والاستعمار الأوروبي مع التجربة الصهيونية في فلسطين.

وبالعودة لمداخلة كيمرلينغ فإن النقاش لم يقتصر فقط على إبراز دور حركة العمل، بالتوازي مع مفهوم "الطلائعية"، بل إن كيمرلينغ تطرق في تناول تاريخ المستعربين وبدايات تبلور التنظيمات المسلحة لمفهوم "الرومانسية". إذ تشير "الرومانسية" إلى الفترة التي كان الاستعراب ضمنها مدفوعاً بحالة من الإعجاب والتقليد والتقرب من العرب، على غرار النموذج الاستعماري –الاستشراقي في الاعجاب ب"البدائي- النبيل". يقول كيمرلينغ: "أخذ رجال هاشومير قسطاً في عملية احتلال الأرض في أثناء استعمار أراضي مسحة 1909 ومرحافيا 1911. وتبنى رجال هاشومير مفهوماً خاصاً للثقافة العربية (والبدوية في الأساس) المحلية: في لباسهم وأساليب عملهم وحرصوا على الاندماج بالعادات والتقاليد العربية المألوفة ومحاكاتها، سواء كان ذلك لأسباب عملية أو من خلال مفهوم رومانسي اختلط فيه عنصر "النبيل البدائي"، وخيالهم المتصور لحياة اليهود القدامى"[52]. ويضيف لاحقاً: "اختفت هذه المقاربة الوجدانية – المشرقية إزاء الثقافة العربية، مع تفكيك التنظيم وقدوم موجة الهجرة الثالثة، وحل محلها النظرة إلى العربي الآخر كمتخلف يكيد المكائد والشرور وفاسد"[53]. بمعنى أن حالة "الرومانسية" هي حالة متخيلة، عبرت عن حاجة ودافع المستوطن لتقمص صورة الأصلاني كتعبير عن العلاقة مع المحيط الجديد والأرض، لكن كما يؤكد لاحقاً، فإن هذه النزعة تلاشت مع تمكن المؤسسة من إنتاج روايتها حول العرب.

تتقاطع هذه الصورة مع المنظور الاستشراقي الذي أحاط بتلك الحالة "الرومانسية"، فكما يتم تخيل العربي "الآخر" بصورة "البدائي—النبيل" يتم تحديد جذور العلاقة التي ستكون مهاد لحركة المستعربين لاحقاً. يستخدم كيمرلينغ مفهوم "الرومانسية" بالتوازي مع الصورة الاستشراقية التي أُنتجت حول البدو خاصة والسكان المحلين عامةً، وعبر هذا المفهوم يؤكد: "ظلت شخصية المحارب البدوي القوي والأصيل سائدة منذ فجر الرومانسية، سواء في كتابات باحثي الشرق أو في النظرة العامة التي سادت الغرب تجاه البلاد"[54]. هنا يجب الالتفات للتوازي بين وصف الرومانسية والاستشراق، والنظر من خلال هاذان المركبان كأدوات تفسيرية استخدمتها الأكاديمية الإسرائيلية لإنتاج رواية حول جذور الاستعراب قبل المأسسة وفي بدايتها. كذلك الحال بالنسبة لمداخلة "غيل إيال" فهو يؤكد بأن المهاجرون اليهود قابلوا العرب أو "تلك الآخرية بمزيج من الخوف والإعجاب. كان البدو بلا شك نموذجهم المتخيل عن "المتوحش النبيل"، وعند الكلام عنهم كانوا يشيرون إلى

---

[52] باروخ كيمرلينغ. مصدر سبق ذكره، ص153.

[53] المصدر السابق ، ص153.

[54] باروخ كيمرلنغ ويوئيل شموئيل مغدال. **الفلسطينيون صيرورة شعب**، ترجمة محمد غنايم، رام الله: مدار، 2001. ص21

مجد قديم، والأهم ظهور المستعربين، وهم جماعة جديدة من الشبان، تسلتهم وتقلد ما تعتق بأنه يمثل طريقة البدو في الحياة"[55]. يضيف كيمرلينغ توصيف حالة الانفصال كنزعة ظهرت مع مأسسة قوة العمل وتوجيهها نحو الصراع القومي، وهذا الاستخدام سيتردد بشكل أكثر عمقاً في مداخلة "غيل إيال – نزع السحر عن الشرق". حيث يشير كيمرلينغ بأنه:

كانت لدى المنظمة مفاهيم خاصة للغاية تخص طرق عملها. اعتقد أفرادها أنه لكي يتم تقديم خدمات جيدة للزبائن عليهم "أن يستعربوا": تعلموا لغة العرب بل لبسوا الزي البدوي، ركبوا الخيول الأصيلة وتبنوا ظاهريا عادات العرب (بنوع من الخليط المكون من ثورية اشتراكية عنيفة ورمانسية استشراقية). تجدر الإشارة إلى أن أفراد الموجة الأولى من المهاجرين أيضاً، موجة ما قبل الصهيونية (بدايتها في 1882)، لم يحرصوا على الانفصال التام عن سكان المنطقة وعملوا على تقريب عمالهم ومستخدمي بيوتهم العرب إليهم، رغم كونهم يهودا متدينين بمفاهيمهم ونمط حياتهم. مقابلهم، كان أفراد الموجتين الثانية والثالثة علمانين واشتراكيين بمفاهيمهم، لكن باستثناء مجموعة "هشومير" فقد أيدوا الانفصال التام عن المحيط والثقافة المحلية.[56]

بإضافة مفهوم الانفصال سوياً مع الرومانسية والاستشراق، تصبح المقاربة أكثر انسياباً إلى لغة الأكاديميا المتعارف عليها إسرائيلياً بـ"ما بعد الصهيونية"، وهذا ما استند إليه تماماً "غيل إيال" في مداخلته، لكنه ركز على مفهوم الحدود ودور الاستشراق الصهيوني. فتجربة المستعربين قبل قيام الدولة عام 1948، وقبل إنجاز مشروع المأسسة 1941، تدلل حسب قراءة غيل لوجود ميل لمحاكاة "الشرق"، بصرف النظر عن الدوافع. كما ويطرح فكرة تبلور الخطابات المعرفية استناداً لمفهوم الحدود الفاصلة، أي تعزيز الفوارق والحدود الثقافية والجغرافية للفصل بين القوميات. والتي تستدعي رفض "الهجنة"، وهو المصطلح الذي يستخدمه لوصف حالة استدعت سيرورة انجاز التحول من اليهودي القديم الخامل، إلى اليهودي الجديد الذي يقدم نموذج بناء الدولة والتضحية مقابل الخمول والسلبية. ضمن هذه العملية وتحت ادعاء "اللقاء" مع "الشرق" يستخدم غيل مفهوم "الهجين" ليصف تجربة المستعربين في بداياتها كتعبير عن محاولة إنتاج اليهودي الجديد.

إن شخصية العربي منذ الهجرة الأولى وصورته كانت "تتوسط" كما يدعي غيل بين اليهودي القديم والجديد، وهي تلك الصورة التي أنتجت محاولة تقمصها أو تحديد المسافة منها نموذج "الهجين" الأول كما يعرفه في وجود المستعربين الأوائل[57]. لكن ما حدث لاحقاً في النصف الأخير من القرن التاسع عشر كما يناقش غيل، بأن الاستشراق اليهودي بات انعزالياً، "كما أصبحت معارفه مكرسة لتأكيد الشرخ الثقافي بين الإسرائيليين

---

[55] غيل إيال. نزع السحر عن الشرق، ترجمة: حسن خضر، مدار: رام الله، 2009، ص65.

[56] باروخ كيمرلنغ ويوئيل شوئيل مغدال. مصدر سبق ذكره، ص89.

[57] يناقش غيل نموذجان من الأدب اليهودي منذ الهجرة الأولى، والتي تعكس توسط شخصية العربي بين اليهودي الجديد والقديم. انظر: جيل إيال. نزع السحر عن الشرق، ترجمة: حسن خضر، مدار: رام الله، 2009، ص11-15.

وجيرانهم"[58]، مثل هذا الادعاء يحتاج لمعالجة أكثر دقة من زاوية محاولته إعادة إنتاج القراءة السعيدية لبواكير الاستشراق من جهة، ثم محاولة تطبيع واقع الاستشراق كجزء من ظاهرة عالمية – أوروبية استدعت بناء حقل المعارف الأكاديمية والثقافية بما يتناسب وحركة الاستعمار. ويضيف غيل في ادعاءه بأن الاستشراق قبل قيام الدولة "لم يعد معنياً بتضييق المسافة بين العرب واليهود لتحقيق التعايش، بل شغل نفسه بدور برج المراقبة المطل على حدود تزداد صلابة بين الإسرائيليين والعرب"[59]. هذا الادعاء يشكل مدخلاً لإنتاج رواية المستعربين الأوائل – كحالة كان من الممكن بمعزل عن الاستشراق الصهيوني– أن تخلق توازناً وتعايشاً بين العرب و"المهاجرين الجدد"، وهو الأمر الذي يتجاوز حدود اليوتوبيا، كونهم تحت مختلف التوصيفات "مستوطنون"، وكما يؤكد "باتريك وولف" بأن المستوطنين أتوا ليبقوا[60]، بالتالي تكون السيادة والأمن وضرورات السيطرة الاستعمارية هي أهم أدوات تثبيت وتوسع المجتمع الاستيطاني.

يرى غيل أن مساعي الصهيونية المبكرة خلقت ثلاث أنواع من الهويات – الشخصيات التي أطلق عليها المهجنين، ويعني بالصهيونية المبكرة كما نفهم، أي قبل نضوج الفكر والمأسسة التي ترعى تنفيذ المشروع الاستيطاني، وكأنه يشير إلى أن غياب ومركزية وسلطة المشروع الصهيونية أدت إلى إنتاج ثلاث نماذج تعبر عن ارتباك وضياع الهوية بمعزل عن المشروع، ويضيف:

> **خلقت الصهيونية المبكرة ثلاثة أنواع مختلفة من المهجنين يقومون بتعيين وفي الوقت نفسه تجاوز الحد الفاصل بين العرب واليهود في فترة ما قبل الدولة: 1– المستعربون، أي اليهود الذين تعلموا تقليد عادات الفلسطينيين ولهجتهم إلى حد الإتقان. لم يكن من الصعب تمييزهم عن الفلسطينيين وحسب، بل قامت محاكاتهم للفلسطينيين، مقام التضحية في سبيل الصالح العام بذواتهم القديمة، لصياغة ذات صهيونية جديدة. بهذا المعنى كان المستعربون على غرار القديسين وشهداء المسيحية الاوائل. كانوا أشخاص موهبين. كانت التضحية بذواتهم القديمة، والصياغة الزاهدة للذات الجديدة منطلق دعواهم لقيادة جمهور أقل حظا، عن طريق المثل الصالح**[61].

وبالإضافة للمستعربين حسب قول إيال يضيف إليهم السفارديون والفلاحون الذين صورتهم الصهيونية كأيقونات مخفية ينحدرون من صلب العبرانيين القدامى[62]. إن وجود فكرة التضحية بالهوية القديمة مقابل الهوية الجديدة، هي إعادة لإنتاج رواية "الطلائعيين"، لكن من الملفت أن يقف غيل عند قراء المستعربين كتعبير عن محاولة لتحقيق هذا التحول، أي أن فكرة التحول بمعزل عن المشروع الصهيوني –كما نستدل من فهمنا–

---

[58] غيل إيال. مصدر سبق ذكره، ص14.

[59] المصدر السابق، ص15.

[60] Patick Wolfe. *Settler Colonialism And The Elimination Of The Native* : Journal of Genocide Research (2006), 8(4),December, p388.

[61] غيل إيال. مصدر سبق ذكره، ص22.

[62] المصدر السابق، ص23.

كانت حاجة تفتقر إلى إطار ناظم لها، فتكون الصهيونية هي "الحل" لإنتاج هوية المجتمع الاستيطاني وإنجاز سيادته بعيداً عن توتر الهويات الهجينة. لكن أي نزعة تفسيرية تلك التي يسقط منها كون المستوطن هو حالة من الإحلال بحد ذاته، وكل تجليات الشخصية اليهودية في إطار الاستيطان القومي جاءت من خلال حاجة السيطرة على الأرض بالتوازي مع نفي الفلسطيني منها.

يؤكد غيل بأن المستعربين عاشوا في المنطقة الحدودية[63]، في منطقة الأرض الحرام المحيطة بالحد الفاصل، لكن "حرب العام 1948، وإنشاء دولة إسرائيل، أوصلا هذا الوضع إلى نهايته، وغيرا بالكامل دور الاستشراق في الثقافة الإسرائيلية"[64]. في المقابل فإنه لا يعزو كل تلك التغيرات إلى الحرب بحد ذاتها، بقدر الصراعات بين الخبراء أثناء وبعد الحرب. حتى أن الحرب لم تفصل بشكل قاطع بين اليهود والعرب، وأنتجت ثلاث أنماط هجينة: المتسللون، "العرب الإسرائيليون"، و"اليهود الشرقيون". وهو بذلك يعيد تعريف المستعربين: فهم خبراء غير أكاديميين، سيطروا على حقل المعارف الاستشراقية قبل قيام الدولة، وهم "يهود أجادوا اللهجة الفلسطينية والعادات المحلية بقدر يمكنهم من الكلام والتصرف كالفلسطينيين، وعقدوا صداقات مع الفلسطينيين، وزعموا بأنهم يستطيعون التفكير على طريقة الفلسطينيين"[65]، بالتالي فإن السيطرة على حقل المعارف الاستشراقية أنتجت حيز قابل للعبور بين الهويات. ويقول غيال "أن تجربة المجابهة مع الشرق في فترة ما قبل الدولة، خاصة في الأيام الأولى للاستيطان الصهيوني في فلسطين، وحتى العام 1936 تقريبا، شكلت شيئاً أكثر ضخامة، وتعقيداً، ودلالة من مجرد الرفض والعزلة. كانت تلك تجربة أفق مفتوح للهوية، ولحظة إدراك واعية لمعنى تحول وتبدل الهويات، ومنطقة حرام يقطنها المهجنون"[66]. وهذا ما كنت قد تناولته سابقاً في مناقشة مثل هذا الطرح، والذي يفصل بين المستوطن والمشروع الاستيطاني، ويحمل الصهيونية مسؤولية تفويت فرصة "الانفتاح" على الهويات والتواصل مع المجتمع الفلسطيني. في المقابل ينقد إيال وجهة النظر التي تعرف الصهيونية من خلال الاستشراق فقط، تلك التجربة التي اتسمت بالالتزام بخطاب الاستعلاء الأوروبي أمام الهمجية والدونية في "الشرق"، وهي التي تضع تجربة الحضارة في مواجهة البربرية. ويسوق مجموعة من خطابات ومواقف قادة الصهيونية الأوائل على غرار هرتسل وجابوتنسكي، والتي تعزز من قراءة الصهيونية كحركة استشراق مرتبطة بالمركز الأوروبي. ويقول ناقداً الارتكاز على هذه الرواية فقط بأن: "تكمن المشكلة الرئيسية

---

[63] يردد غيل استخدام هذا المفهوم، ويعني به أن بين الفلسطينيين والمستوطنين منطقة حدودية، لكنها غير مكتملة وتحتمل وجود مساحات غير واضحة تمثل أراضي حرام، وفي هذه المساحات تتجلى هويات هجينة تعبر من خلالها مثل المستعربين.

[64] المصدر السابق ، ص 24.

[65] المصدر السابق، ص49.

[66] المصدر السابق، ص54.

في هذه المحاجة في كونها محاجة جزئية"[67]، في مقابل الكثير من الروايات الصهيونية الأولى التي كانت "مليئة بتعبيرات الانجذاب إلى الشرق والافتتان به...، وقد كان في وسع بعض الأشخاص الذين ذكرناهم قبل قليل أن يكتبوا أحياناً تعبيرات مغايرة تماما. فقد فتنتهم صورة البدو كمحاربين نبلاء، وأرادوا أن يكونوا مثلهم، كما أعجبهم تسامح وتنوع المدينة الشرقية، ورأوا في حياة الفلاحين نافذة تطل على الأزمنة التوراتية"[68]. بيد أن غيل يقدم الروايتان كمجابهة نقدية لدحض تعريف الصهيونية فقط عبر الخطاب الاستشراقي، وتقفي النصوص المولدة لذلك الخطاب، لا تدلل وحدها على ماهية الصهيونية في السياق التاريخي الذي سبق إقامة الدولة حسب قراءته. من زاوية أخرى يعرض المقولة التي تعرف الصهيونية كنوع من الكولونيالية، ويعترف بكونها إشكالية بحكم القوة التحليلية المكتسبة من مقارنتها بحركة التوسع والكولونيالية الأوروبية. ونقد في هذا السياق مقاربات غرشون شفير وباروخ كيملبنغ استخدامهم هذا الإطار المقارن، والارتكاز على عوامل الصراع الداخلي وحركة العمل في المجتمع الاستيطاني فقط. وهنا يقدم رواية الوجهاء اليهود التي غابت عن هذه التحليلات، وغياب دورهم الفاعل إبان فترة الحكم العثماني والبريطاني، كوسطاء أصحاب نفوذ وأثر متبادل بين السكان والسلطة أنذاك. ويضيف إيال:

> **كانت فئة الوجهاء اليهود تضم كبار ملاك بيارات الحمضيات، والتجار، والصناعيين، وأعضاء الجمعيات الزراعية، والحاخامات، وزعامات اليهود الشرقيين في القدس، ورؤساء البلديات والمخاتير، والقضاة، والمثقفين والأساتذة...، والأهم أن العديد من الوجهاء اليهود ربطتهم علاقات تجارية وصداقة وثيقة مع الوجهاء الفلسطينيين، خاصة مع أوساط النخبة المتعلمة والمتأوربة.**[69]

والقصد هنا بأن تهميش دور الوجهاء، والتركيز على سيطرة حركة العمل، لا يمكن أن ينفي دورهم في التعبير عن لحظة "انفتاح" الهوية والتوسط في العلاقة مع العرب الفلسطينيين. بمعنى أن الصهيونية كنوع من الكولونيالية هي طرف من الرواية التي تعكس وجهاً واحداً لا يفسر "الصراع" لترسيم الحدود الفاصلة، والتي انتهى إليها المشروع الصهيوني في إقامة الدولة. ومن جهة أخرى فإن الصهيونية كنوع من الاستشراق الأوروبي وخطاب الاستعلاء، تخفي الكثير من أهمية وجود خطاب أخر يتبنى تجربة الاعجاب والافتتان بالشرق ومحاولة محاكاته، كنوع من مسار التحول من هوية اليهودي القديم إلى هوية اليهودي الجديد. لذى يخرج إيال من هذا النقاش عبر اعتبار الروايتان "الصهيونية كنوع من الاستشراق، والصهيونية كنوع من الكولونيالية" ليستا بديلاً عن فرضيته بل استكمالاً لها، وخاصة من باب الصراع في ترسيم الحدود الفاصلة قبل الدولة، ووجود "المهجنين" حسب ادعاءه كهويات تتعرض للتطهير في المنطقة الحرام ضمن هذه الحدود.

---

[67] المصدر السابق، ص55.

[68] المصدر السابق، ، ص 55-56.

[69] المصدر السابق، ص59.

في قراءة أخرى تتناول موضوع المستعربين، يتم إبراز معضلة اليهود الشرقيين قبل وبعد إقامة الدولة، وتركز هذه الأدبيات على دور الصهيونية بصبغتها الأوروبية –الأشكنازية، على فرض سياسات صارمة في إنتاج وعي قومي مشترك، أدت لـ"صهينة اليهود الشرقيين"، أي نزع جذور هويتهم العربية لصالح هوية صهيونية أساسها المشروع القومي الاستيطاني. يشير "يونتان مندل" في مقالته " Re-Arabising the De-Arabised: The Mista'aravim Unit of the Palmach"، إلى ثلاث ظواهر رئيسية في تجربة المستعربين: الاستخدام الكبير للمهارات اللغوية لليهود العرب من قبل المنظمة الأمنية الصهيونية، والارتباط بين الاستخبارات الصهيونية والجهود البريطانية بما يخص الشرق الأوسط، وأخيراً، تفوق تجربة "العربية في خدمة الأمن مقابل العربية في خدمة السلام"[70]. ضمن هذه المحاور الثلاث يستخلص مندل بأن توظيف اليهود الشرقيين في المؤسسة الأمنية الصهيونية كان عملياً ضمن مسار تخليصهم من هويتهم كيهود–عرب، بالمقابل استخدام خصائص هذه الهوية كالمهارات اللغوية ومعرفة العادات والتقاليد وقدرة الاختراق، من أجل تحقيق أهداف السيطرة المقترنة بمفهوم الأمن. وكأن عودة الشرقيين – حسب ما يقوله مندل– إلى جذور هويتهم لم يكن مسموحاً به إلا من خلال العمل كمستعربين في مؤسسة أمنية تحت غايات المشروع الصهيوني[71]. ويجسد هذا النموذج نمط "تطهير المهجنين" كما طرحه غيل إيال، ولكن مع التركيز على إبراز دور "الأمن" في إنتاج الحدود. إن إشكالية طرح مندل تتجسد في نقطتين أساسيتين، أولاً: تقديم النقاش في إطار بروز ظاهرة المستعربين بحكم الواقع الصهيوني كاستجابة لعلاقات القوة بين المؤسسة الأمنية وأطرافها فقط، وهو ما لا يصح نفيه مطلقاً، أو الاستناد إليه فقط. لكن مثل هذه القراءة تقدم نموذج المستعربين "كضحايا" لصرامة المنهج الأمني الصهيوني، بالتالي فإن مندل لا يخفي اعتقاده بأن وجودهم قبل دمجهم في المؤسسة كان من الممكن أن يجعل من هويتهم ما قبل الصهيونية بمثابة "جسر" بين الغرب–الصهيونية من جهة، والعرب من جهة أخرى. لذا يستخدم مندل كلمة "الاستغلال" للإشارة لدور الحركة الصهيونية بجناحها الأمني في استخدام اليهود الشرقيين كمستعربين. كما أضيف بأن مندل كان قد أغفل بأن أوائل المستعربين قبل حالة المأسسة 1941 كانوا من اليهود المهاجرين من شرق أوروبا أمثال أعضاء تنظيم هاشومير الذين استخدموا الاستعراب مع موجة الهجرة الثانية 1903، وتحديداً منذ تأسيس التنظيم عام 1909. ثانياً: يشير مندل بشكل مباشر إلى أن تجربة الاستعراب الصهيوني كانت جزء ونتيجة "للصراع" السياسي في فلسطين[72]. في المقابل أرى عبر مداخلتي بأنها مكون وأداة ونتيجة

[70] Yonatan Mendel. *"Re-Arabising the De-Arabised: The Mista'aravim Unit of the Palmach,"* in A. Bernard, Z. Elmarsafy, and D. Attwell (eds.) Orientalism: Thirty Years Later, Palegrave Macmillan, 2013, p94.

[71] المصدر السابق، ص110.

[72] المصدر السابق، ص110.

معاً للاستعمار الاستيطاني، ولا تنطبق على فكرة "الصراع" السياسي، بحكم أن الصهيونية هي حركة استعمار استيطاني تسعى للسيطرة/الإقصاء، ولا تقبل موضعتها في إطار "الصراع" السياسي في فلسطين، والاستعراب في سياق الصهيونية هو جزء من منطق التصفية المستمر والقائم على وجود ثنائية المستعمِر–المستوطن/المستعمَر–الأصلاني.

الدراسات العربية:

تناولت الدراسات باللغة العربية موضوع المستعربين في إطار "تقليدي"[73]، هذا الإطار يتعامل مع الظاهرة من خلال رصدها وتوثيقها في المقام الأول، بالإضافة لقراءة تاريخها بدءاً من تأسيس قوات "البالماخ" من العام 1941، مع الإشارة السطحية والعابرة لوجود استخدام سابق للتنكر بالزي العربي، وتعلم اللغة والعادات من قبل تنظيم "هاشومير". مثلاً يقدم غسان دوعر هذا التعريف التمهيدي في دراسته: "أطلق اسم المستعرب على اليهودي الذي يمتزج في الوسط العربي الذي يتواجد فيه، يعيش أسلوب حياته ويمتص ثقافته، ولكنه في نفس الوقت يتمكن من المحافظة على قيمه القومية. وكان أفراد (هاشومير) يعتبرون تقليد حياة البدو والتكيف مع أسلوب حياتهم أمراً مثالياً"[74]. لا تقدم تلك الدراسات إطار تحليلاً مفاهيمياً يمكن من خلاله فهم وتفسير نشوء وتطور الاستعراب الصهيوني، بمعنى تركيزها على سرد تاريخي مقتضب حول بدايات الاستعراب، ثم التركيز على الشكل والممارسة الحديثة للمستعربين. وينصب الجهد الأكبر على توثيق عمليات قتل واعتقال قامت بها وحدات المستعربين منذ بداية الانتفاضة الأولى 1987، وصولاً للانتفاضة الثانية من العام 2000 وما بعدها. تبدأ كافة الأدبيات العربية في تعريف الكلمة "مستعريفيم"، وهي بالمجمل تتقاطع عند تناول المصطلح بالتفسير. وهذا ما أشرنا إليه سابقاً بالنمط "التقليدي"، حيث تبدأ جميعها بالتعريف الاصطلاحي ثم السرد التاريخي المقتضب بمعزل عن الإطار المفاهيمي التفسيري. ومثال على ذلك دراسة دوعر "المستعربون، فرق الموت الاسرائيلية"[75]، ومقالة خديجة حسونة "المستعربون بين الماضي والحاضر"[76]، بالإضافة لتعريف عبد الوهاب المسيري في "موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية"[77]. إذ تتقاطع الدراسات السابقة في اعتبار بداية ظاهرة

---

[73] للتوضيح، ماذا أعني بالقراءة التقليدية: هي القراءة التي تعيد انتاج الرواية حول المستعربين دون تحقيق أي مسعى تفكيكي يفيد في فهم تحولاتها ونشوئها ضمن مسار تاريخي مرتبط بتحولات وبنية المشروع الصهيوني. وهي القراءة التي تستند لوصف الملامح الظاهرة للمستعربين، دون الاهتمام بالمكونات الأساسية للاستعراب والمرتبطة ببنية الاستعمار الاستيطاني التي أدت لنشوء الظاهرة وتطورها.

[74] غسان دوعر. **المستعربون فرق الموت الاسرائيلية**، رام الله: دار الشروق، 2004، ص15.

[75] المصدر السابق، ص15.

[76] خديجة حسونة. المستعربون بين الماضي والحاضر، (**التراث والمجتمع**: العدد 42، شتاء 2005\2006)، ص72.

[77] عبد الوهاب المسيري.**موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية**، دار الشروق: القاهرة، 1999، ص 146.

المستعربين من تاريخ تأسيس "البالماخ" وإقامة "الدائرة العربية" كفرع استخباراتي له مهمات خاصة، وهي ذات الرواية التي اعترف بها الخطاب الصهيوني، مع فارق تناول فكرة "الطلائعية" والمستعرب كحالة تحول إلى اليهودي الجديد والمرتبط بتاريخ المؤسسة الصهيونية.

وفي سياق آخر، موازي ومختلف، تأتي دراسة جوني منصور "المستعربون: البدايات والجرائم"[78]، لتقدم رؤية أكثر موضوعية، حيث يمر منصور على ذات السياق التقليدي، مع إضافة رؤية داخلية من المجتمع الإسرائيلي لدور المستعربين، وهو هنا يضيف تبلور مكانة خاصة للمستعربين من حيث أهمية الوحدة في إطار حاجة المجتمع الإسرائيلي للأمن وروايات البطولة والتضحية. يقول منصور :

> **يتمتع المستعربون بمكانة محترمة في المشهد الاسرائيلي، خاصة وأن العمليات الارهابية التي يقومون بتنفيذها ضد الفلسطينيين تلقى وقعا حسناً وتشجيعاً وتعكس بطولات يجري الحديث عنها في الشارع العام داخل اسرائيل بكون هؤلاء (أي المستعربين) يؤدون رسالة انسانية أساسها توفير حماية للمجتمع الاسرائيلي الذي يتعرض وفق الرواية والسياسية الاسرائيلية الى الارهاب من قبل الفلسطينيين**[79].

المهم كما أقرأ في هذه المداخلة هو تسليط الضوء على صورة المستعرب والخطاب الذي يصنع هذه الصورة، بالإضافة لتناول موضوع المستعربين ليس فقط في سياق بناء صورة "الآخر" واستخدامها، إنما فتح النقاش حول الدور المركزي الذي لعبه المستعربون قبل وبعد تنفيذ "الهاجاناه" لخططها العسكرية مع نهاية الحرب العالمية الثانية، ودورهم في جمع المعلومات مع الشراكة البريطانية ولاحقاً لصالح العصابات الصهيونية والمشروع الصهيوني.

إن الملفت في مختلف الدراسات العربية حول المستعربين، هو الثقل الوصفي للظاهرة من زاوية ارتباطها بالعنف، فترد الكثير من العبارات والكلمات التي تربط المستعربين بـ"الإرهاب، الجريمة، القتل، التصفية، التعذيب والعنف الدموي"، وهذا كما تشير إليه معظم العناوين المختارة في الدراسات والمقالات حول ظاهرة المستعربين. بيد أن ربط العنف بالاستعراب الصهيوني هو جزء من عملنا التفسيري لتفكيك الظاهرة، لكن أزمة تلك الأدبيات هو طغيان الحكم والصبغة الوصفية المثقلة بحاجة رد الفعل على حساب الفهم التحليلي المعمق لدور العنف في نشوء وتطور الاستعراب الصهيوني. إذ لا يكفي وصف المستعربين بالقتلة والمجرمين كرد على العنف الصهيوني، بل يجب كتابة هذا التاريخ من عدسة التجربة الساعية للتحرر من فلك الخطاب الصهيوني.

نموذج آخر في تغطية أثار الاستعراب الصهيوني تتجسد بتجربة التوثيق وإثارة النقاش حول مخالفة عمليات المستعربين لمواثيق حقوق الإنسان الدولية، وبروتكولات إطلاق النار المعمول بها في مؤسسات الأمن ضمن

---

[78] جوني منصور. المستعربون: البدايات والجرائم، كيف اعدوا المستعرب وما هي مهماته. **(قضايا اسرائيلية:** العدد 15، صيف 2004)، ص6.

[79] المصدر السابق، ص7.

المعايير العالمية. إذ تسعى مثل هذه المساهمات لتسليط الضوء على الاستخدام المفرط للعنف، أو إمكانية تنفيذ الاعتقال بدون إطلاق النار، أو وجود فرصة لتفادي عمليات القتل من قبل وحدات المستعربين في مهماتهم لاعتقال المطلوبين الفلسطينيين. ففي دراسة قدمها إيليا زريق وأنيتا فيتولو "تصويب بهدف القتل: الوحدات الخاصة الاسرائيلية"[80]، كان المسعى من وراء العمل بعد التوثيق هو مخاطبة الرأي العام الغربي ضمن أدواته ولغته، لذلك تجلت ضمن الدراسة مفاهيم تعريفية حول الوحدة وعملياتها التي تعتبر "خارجة عن القانون". في زاوية أخرى تؤرخ الدراسة لبداية ظاهرة المستعربين مع تشكل قوات البالماخ[81]، وهي ذات الرواية التي تعيد إنتاجها الكتابات العربية التي تناولناها، والتي بمعنى آخر تتبنى الرواية الصهيونية الرسمية في الاعتراف بالظاهرة عبر مأسستها صهيونياً منذ العام 1941 وليس قبل ذلك. وبالعودة لمنهجية زريق في دراسة أخرى بعنوان "الحصاد الدامي لفرق الموت الإسرائيلية"[82]، يقدم مع جهود التوثيق عنواناً فرعياً "أعمال القتل الخارجة على القانون كسياسة"، حيث يسعى زريق لكشف مغزى سياسة التصفية عبر وحدات المستعربين لأغراض تقليص مواجهة الشبان الفلسطينيين مع الجيش، وتقليص عدد المظاهرات، وحل مشكلة التغطية الإعلامية[83]. ويمكن هنا أن يرد مباشرة لذهن القارئ منطق التناقض، بمعنى هل يوجد عمليات قتل داخل القانون، فيكون حد القانون هو الفاصل في تعريف قتل الفلسطينيين بين شرعي وغير شرعي، وهذا فيه نسف لتاريخ المستوطن المقترن بالتصفية، وتاريخ الفلسطيني المقترن بالمقاومة، وتسليم برواية تطبيع الدولة والاستعمار والاستيطان كجزء من ظاهرة عالمية، كما قدمتها الأكاديميا الإسرائيلية. في المقابل، يجب الأخذ في عين الاعتبار موضعة هذا الجهد كجزء من الخطاب الموجه لجمهور مختلف، لذى تراه يستخدم أدوات تخضع لسلطة الخطاب المعرفي الغربي. فمثلاً يقدم زريق أيضاً قراءة بينية تضادية[84]، بين روايات المؤسسة الأمنية الإسرائيلية وروايات "شهود العيان"، فيكون موقع الفلسطيني هنا "ضحية" وشاهد عيان، وموقع المستعرب كفاعل ضمن مؤسسة تنتمي لمنظومة معترف بها دولياً وتخضع لذات المعايير الدارجة في النظام العالمي للدول الحديثة، وكأن الحديث هنا يدور عن خروقات نظام الدولة بحق المواطنين، بعيداً عن واقع الاستعمار الاستيطاني، وواقع العلاقة بين المستعمِر والمستعمَر. بالمقابل نرى أن التحرر من فلك المركزية الأوروبية لسلطة المعرفة لا يعني القطع الكلي ثم

---

[80] Elia Zeraq. *Targeting To Kill: Israel's Undercover Units*, Jerusalem: Palestine Human Rights Information, 1992.

[81] المصدر السابق، ص 6.

[82] ايليا زريق وأنيتا فيتولو، الحصاد الدامي لفرق الموت الإسرائيلية. (**مجلة الدراسات الفلسطينية**: المجلد 3، العدد10، 1992).

[83] المصدر السابق، ص102.

[84] بمعنى أنها قراءة تنتقل بين الادعاء المعلن للجيش الاسرائيلي في تبرير عمليات القتل ضد الفلسطينيين، وبين رواية الفلسطينيين كشهود عيان، وتقوم بعمل مواجهة بينهما تستند لمقاييس حقوق الانسان وأنظمة استخدام القوة من قبل المؤسسة العسكرية.

الجمود في انتاج خطاب مقاوم أيديولوجيا فقط، بل إن الأولوية تقع على كاهل العمل على تأريخ الرواية بمسافة فارقة عن هيمنة تلك السلطة المقترنة شرطاً بتجربة الاستعمار.

أُضيف أيضاً على نقاش الأدبيات العربية لظاهرة المستعربين، ما سأُطلق عليه "خطاب الاخفاقات"، وهو الخطاب الذي يندرج تحت الرواية التقليدية كما تعرضها تلك الأدبيات، والذي يتناول بعض عمليات المستعربين التي انكشفت للفلسطينيين وتم إحباطها. حيث تولي بعض الدراسات تحت عنوان "إخفاق" أو "فشل" عمليات المستعربين مساحة لعرض تلك التجارب، وتركز ضمن عرضها على تجريم العمليات وربط فشل بعضها بفشل خيارات العنف ضد الفلسطينيين، والمقترن بانهيار أسطورة القوة للجيش الإسرائيلي "الجيش الذي لا يقهر". تقدم خديجة حسونة مثل هذه القراءة كما يقدمها من قبلها غسان دوعر[85]، وتقول:

> **لم تكن هذه الوحدات بأحسن حالا من الجيش الإسرائيلي الذي قيل أنه لا يقهر، حيث أصاب الفشل العديد من العمليات والمهمات الخاصة واخفق المستعربون بتحقيق بعض الأهداف التي سعوا لأجلها، أقرب الأمثلة على ذلك دخول ثلاثة مستعربين مدينة رام الله صباح أحد الأيام بواسطة سيارة اسعاف أثناء انطلاق مسيرة في وسط المدينة خلال فعاليات الانتفاضة الثانية، وقد كشف أمرهم وانتهى بهم الحال إلى القتل وفر أحدهم بأعجوبة**[86]

إن إشكالية هذا العرض تكمن في أن استخدام مفهوم "الفشل" كما نراه إشكالي من حيث أن وصف ودراسة التجربة الاستعمارية لا تخضع لمثل هذه المعايير، بل تتجاوز ذلك لضرورة فهم البنية وعلاقات القوة المقترنة شرطاً بثنائيات الاستعمار وأدواته وبنيته[87]، كما أن مثل هذا الطرح يبرز سؤال نسبة "النجاحات" مقابل "الفشل" دون الوصول إلى نتيجة معرفية ذات مغزى، بل يكتفي باستخدام هذا المفهوم لتعزيز الأحكام مقابل توفير حاجة إنتاج رواية أصلانية خارج سلطة المعرفة الاستعمارية.

بالمحصلة، لم تستوفِ الدراسات العربية البحث الكافي حول ظاهرة المستعربين، وهي الظاهرة التي أرى أنها يجب أن تفسر بعمق كونها أحد أعمدة ومقومات المشروع الصهيوني الاستيطاني في فلسطين، كما أن إشكالية الدراسات العربية التي تطرقت لدراسة المستعربين، كانت بتأثرها بالخطاب المعرفي السائد صهيونياً، فهي لم تطرح مقولتها وافتراضها الخاص لكتابة تاريخ الاستعراب الصهيوني، كما انزلقت لتبني الرواية الصهيونية في بعض المواقع. إن محاولتي في كتابة تاريخ المستعربين عبر فهم مكون العنف كمتغير يفسر نشوء الظاهرة

---

[85] انظر في : غسان دوعر. مصدر سبق ذكره ، ص151-167.

[86] خديجة حسونة. مصدر سبق ذكره، ص82.

[87] See for this argument: Rana Barakat. *Writing/righting Palestine Studies: Settler Colonialism, Indigenous Sovereignty and Resisting The Ghost (s) of History*, setller colonial studies,2017: http://www.tandfonline.com/doi/abs/10.1080/2201473X.2017.1300048?journalCode=rset20 (processed 15.9.2017).

وتحولاتها، وعلاقة ذلك ببنية الاستعمار الاستيطاني والاستشراق، يقدم مدخلاً تفسيرياً لقراءة أكثر عمقاً حول المستعربين، كما أن إسقاط مفهوم العنف وثنائيات الاستعمار يجعل من قراءة الظاهرة تدور في فلك سلطة الخطاب الصهيوني، وهذا ما لا أسعى للوقوع فيه.

المحتويات:

الفصل الأول: **هيكلية الدراسة والإطار النظري**. ويبدأ بملخص عن مقولة الرسالة وأهدافها ومسارها ونتائجها. ويحتوي على الكلمات المفتاحية، مقدمة، الإشكالية، الفرضية، المنهجية، الأهمية، وصعوبات البحث. ثم يقدم الفصل مراجعة نقدية للأدبيات التي تناولت ظاهرة المستعربين، ثم يختتم الفصل بعرض محتويات وفصول الرسالة.

الفصل الثاني: **من البقاء إلى الإقصاء، هجرة استيطان، حراسة واستعراب صهيوني**. ويتناول الفصل توثيق بداية تاريخ الاستعراب الصهيوني مع بداية مسار الاستيطان، ولتوضيح ذلك يقف الفصل عند مفهوم: البقاء الاستيطاني، الحراسة والاستعراب. ويتتبع من أجل ذلك أثار الهجرة الأولى 1881، والهجرة الثانية 1903، وموقع حركة احتلال العمل والحراسة باعتبارهم جزء من تجليات البقاء الاستيطاني، حتى يصل إلى بذور تبلور تنظيمات الحراسة الأولى.

الفصل الثالث: **بارغيورا، هاشومير، والبالماخ**. يقف الفصل عند بدايات تكون تنظيمات الحراسة الأولى1907، بالتوازي مع تطور حركة احتلال العمل والحراسة، وعلاقتها بالفكر القومي الصهيوني الاشتراكي، بالإضافة لنقل تجربة "الدفاع الذاتي" و"حماية الأرواح والممتلكات" من خارج فلسطين إلى داخلها. وعبر ذلك يبرز الفصل ثلاث محاور: التأسيس، احتكار وتنظيم العنف، والمأسسة. ليناقش من خلالهم مسار تطور الاستعراب من تنظيم بارغيورا وهاشومير إلى مؤسسة البالماخ. وتأثير نهاية الحقبة العثمانية، والدخول في مرحلة الانتداب البريطاني كحاضنة استعمارية، وعلاقتها في بلورة نمط المأسسة. وينتهي الفصل عند الدخول في حرب النكبة 1948، وتبيان دور المستعربين ضمن المؤسسة العسكرية-الأمنية في ممارسة العنف والفوضى.

الفصل الرابع: **نكبة مستمرة، استعراب مستمر**. يتناول الفصل مسار الاستعراب الصهيوني بعد إقامة الدولة، ويناقش استمرار نشاط المستعربين ضمن مفهوم كثافة استخدامهم المرتبطة بالمقاومة الفلسطينية. يوضح الفصل تقنيات الاستعراب التاريخية والمستخدمة حالياً (تمثيل-تنكر، اختراق، عنف وفوضى)، ويقرأ أيضاً دور الخطاب الصهيوني الرسمي والإعلامي في الاعتراف بالظاهرة مطلع التسعينيات، وكيفية إعادة إنتاج دور المستعرب كجزء من عملية السيطرة المستمرة، عبر إبراز مكانة المستعربين في المشهد الاستعماري، الذي يوضح عمق

تجذرهم في بنية وتاريخ الاستيطان الصهيوني. ويخلص الفصل لعرض أمثلة على ظهور المستعربين في الفضاء الإعلامي (الصحافة المكتوبة، الإعلام المسموع والمرئي) كنماذج على محاولة فرض السيادة الاستيطانية من خلال المستعرب باعتباره نموذج إقصائي.

الفصل الخامس: **خلاصة وخاتمة**. يقدم الفصل إيجازا لمسار تتبع المستعربين تاريخياً وفق محطات الدراسة، ويسعى لإبراز مشاهد حاضرة وتاريخية، لتوضيح العلاقة المترابطة بين تاريخ وحاضر الاستعراب. ويؤكد من خلال ذلك على مقولة الدراسة وفرضيتها، بأن تاريخ الاستعراب الصهيوني، لا يمكن أن يُقرأ بمعزل عن تاريخ الاستيطان الصهيوني، وبنيته الاستعمارية القائمة على الموقيعة والثنائيات الاستعمارية، وعبر عمليات السيطرة/الإقصاء المستمرة.

الفصل الثاني

من البقاء إلى الإقصاء: هجرة، استيطان، حراسة واستعراب صهيوني

مقدمة

يقدم هذا الفصل قراءة تاريخية لبداية نشوء ظاهرة المستعربين في فلسطين، والتي يوثق بذور تبلورها منذ بداية الاستيطان والهجرات اليهودية لنهاية القرن التاسع عشر. وتقوم هذه القراءة التاريخية –لبروز وتطور الاستعراب الصهيوني– عبر ادعاء الدراسة القائل بأنه: لا يمكن فهم المستعرب بدون فهم تاريخ الاستعراب الصهيوني، وتاريخ الاستعراب الصهيوني هو ذاته تاريخ الاستيطان الصهيوني في فلسطين. إن ظاهرة الاستعراب الصهيوني والمستعربين في فلسطين يجب أن تقرأ عبر اقترانها أولاً بالاستيطان كمسار متصل منذ بدايته، وصولاً لتحقيق الفصل والإقصاء عبر العنف الذي أفضى لإنشاء منظومة وبنية الاستعمار الاستيطاني المستمر في فلسطين. ثم كما هو الحال في وصف علاقة المستوطن بالأرض والسكان الأصليين من خلال مفهوم الاستعمار الاستيطاني لـ"باتريك وولف"، بأن "المستعمر المستوطن يأتي ليبقى"[88]، فإن المستعرب الصهيوني هو مستوطن يُمثل ويُقصي ليبقى أيضاً، أي أنه يستخدم ويُطور أدوات استعمارية من أجل البقاء.

من خلال هذه المقاربة أقوم ببناء قراءتي القائمة على فهم معنى البقاء الاستيطاني، بحيث استخدم مفهوم البقاء كأداة تفسير لمسار الاستيطان وتحولاته، باعتباره مسار متصل يتخلله تحولات مترابطة تتقاطع جميعها من أجل الوصول لنموذج استيطاني إحلالي. وعليه فإني أفسر العلاقة بين تحولات مسار الاستيطان والاستعراب، من حيث ثبات المضمون وتحولات الممارسة القائمة على البقاء. وعبر ذلك اتناول في هذا الفصل كل من نمط الإنتاج الزراعي، العلاقة مع السكان المحليين، التقليد والمحاكاة، الحراسة ومفهوم "الدفاع الذاتي"، كأدوات تطورت مع تطور المجتمع الاستيطاني أنتجت الاستعراب الصهيوني، وأركز في ذلك على عدم إسقاط ثنائيات المستوطن/الأصلاني والمستَعمِر/المستَعمَر، بل قراءتها من ناحية إنتاجها وإعادة إنتاجها المستمر.

البقاء والهجرة الاستيطانية

يمثل عنصر البقاء أساس الاستيطان الصهيوني في فلسطين، ولفهم معنى البقاء يجب قراءة كل العوامل التي طرأت على الوجود الصهيوني في فلسطين، باعتبار أن ارتباطها كان بشرط عامل البقاء الاستيطاني. وسواء كانت هذه العوامل من ادعاء سيادة استيطانية مطلقة في ملكية الأرض، أو منظومة علاقات القوة التي تطورت حتى تطهير

[88] Patick Wolfe."*Settler Colonialism And The Elimination Of The Native*", p388.

وتوسيع الحيز الاستيطاني بإقصاء السكان المحليين، بالإضافة إلى ممارسة العنف، كل ذلك تحقق عبر البقاء الاستيطاني كأساس لاستمرار المشروع الصهيوني.

جاءت الهجرات اليهودية الأولى إلى فلسطين، وبشكل خاص الأولى 1881- 1903 والثانية 1904- 1914، نتاج واقع مزدوج تمثل بوجود قوة طاردة من أوروبا، وقوة جاذبة نحو فلسطين، حسب المنظور الصهيوني. وبين وجود القوتين، بلور المستوطنون الأوائل الخطوة الأولى نحو إقامة المشروع الاستعماري الاستيطاني الصهيوني في فلسطين، مع العلم أن وصول المهاجرين الأوائل محملين بدوافع التخلص من أزمة التضييق في أوروبا، وحاجتهم لصياغة بداية بعيدة عن الذوبان أو الاندماج[89]، قد تم عبر صياغة فضاء استيطاني قائم بالأساس على فكرة البقاء النقي لمجموعة المهاجرين-المستوطنين، بما يضمن استمرار وجودهم كجماعة عرقية متجانسة.

بدأت الهجرات اليهودية إلى فلسطين منذ العام 1881، وهو ما بات يطلق عليه موجة الهجرة الأولى حتى العام 1904. هذه الفترة التي وصل فيها أربعين ألف مهاجر يهودي إلى فلسطين[90]، حملت وجهين مترابطين: الحالة السائدة في أوروبا تجاه أوضاع اليهود والتي تعارف على تسميتها ب"المسألة اليهودية"، وكانت بمثابة حجر أساس في بلورة الخطاب الصهيوني لتبرير مسعى الاستعمار في فلسطين. والواقع الذي ساد فلسطين تحت الحكم العثماني على الصعيد السياسي والاجتماعي والاقتصادي، والذي ترتب عليه بناء المستوطنين الأوائل لنموذج استيطاني قابل للحياة ضمن تلك الظروف. علاوة على ذلك ظهور الحركة الصهيونية من العام 1897 عبر مؤتمرها الأول في بازل-سويسرا، وأثر ذلك في كيفية النظر ودعم حركة الهجرة والاستيطان في فلسطين[91].

مع بداية العام 1880، تنامت تطورات مهمة في شرق أوروبا بما يخص أوضاع اليهود هناك، والتي ألقت ظلالها لاحقاً على فلسطين، وكانت من الأسباب التي دفعت بوصول أوائل المهاجرين اليهود إلى فلسطين. وبالتوازي مع تعرض اليهود للتضييق والملاحقة خاصة في روسيا[92]، وتحديداً "في أعقاب المذابح التي نفذت ضد اليهود في جنوب روسيا في الثمانينيات من القرن التاسع عشر"[93]. وبعد تدهور مكانة اليهود كأقلية معرضة

---

[89] شكلت فكرة الاندماج تحدٍ للفكرة الصهيونية في العودة إلى فلسطين، انظر كيف تناول هرتسل في كتابه "الدولة اليهودية" قراءته "للمسألة" اليهودية والنقاش حول قضية الاندماج، حيث يبرر هرتسل بأن الحل الأفضل "للمسألة" اليهودية هو في "رحيل" اليهود خارج أوروبا وإقامتهم لكيان قومي. انظر: ثيودور هرتسل. **الدولة اليهودية**، ترجمة محمد عدس: دار الزهراء للنشر، 1994، ص41-55.

[90] غرشون شفير. الأرض العمل والسكان في الاستيطان اليهودي، ترجمة محمد غنايم، (**الكرمل**: العدد 58، 1999)، ص138.

[91] انظر حول دور الصهيونية في: صبري جريس. **تاريخ الصهيونية 1862-1948: الجزء الأول-التسلل الصهيوني إلى فلسطين(1862-1917)**. رام الله: مركز الأبحاث منظمة التحرير الفلسطينية، 2015.

[92] صبري جريس. مصدر سبق ذكره، ص30-34.

[93] افرايم ومناحيم تلمي. **معجم المصطلحات الصهيونية**، ترجمة أحمد العجرمي. عمان: دار الجليل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينية، 1988، ص330.

بشكل مستمر للتضييق والملاحقة، وكما يؤكد كيمرلينغ فقد "خاب أمل جزء من اليهود في شرق أوروبا من الانعتاق السياسي والاجتماعي الذي تعهد لهم به العصر الجديد، ولكنه لم يأت، فبدأوا يفتشون عن بدائل"[94]. تركزت هذه البدائل في عدم البقاء داخل إطار التضييق في شرق أوروبا، بل سبب ذلك في ظهور دعوات وتنظيم مبادرات مثل تشكل منظمة "بيلو" من العام 1881 في روسيا، وهي منظمة "شبيبة يهودية وطنية" دعت إلى "العودة إلى أرض إسرائيل والاستيطان بها"[95]. كذلك الأمر في ظهور حركة "حوفقي تسيون– أحباء صهيون" والتي أسست أيضاً في روسيا من العام 1881، وكان هدفها كرد فعل على أعمال القمع في إقامة انبعاث قومي بعودة اليهود إلى فلسطين[96]. وبناء على ذلك نفذت الهجرة الأولى "تحت شعار حركة هواة صهيون التي أرادت أن تقيم في فلسطين استيطاناً زراعياً عاملاً"[97]. بمعنى أن بداية الهجرات اليهودية إلى فلسطين ارتبط بشكل مباشر بتحقيق بقاء استيطاني فيها، والذي سيكون العامل الأساسي في بلورة مسار الاستعمار الاستيطاني وتجلياته.

في معنى البقاء الاستيطاني

من خلال مفهوم البقاء كما أتناوله، أفسر ما ترتب على الهجرات اليهودية الأولى من تفسير لمعنى ملكية الأرض، وسلوك نمط الإنتاج الزراعي، وصياغة العلاقة مع السكان المحليين من أجل البقاء، سواء فترة الهجرة الأولى والثانية. ولتوضيح معنى البقاء الاستيطاني، سأقوم بموضعته أمام مفهوم الوجود الأصلاني، والذي يعني الوجود التاريخي المنتمي للمكان وثقافته، ولا يشترط نفي أي جماعة أخرى لتحقيقه. أما البقاء الاستيطاني الإحلالي كما هو في الاستعمار الصهيوني لفلسطين، فقد اشترط بالضرورة تحقيق مبدأ المحو والإنشاء.

مع بداية الهجرة الأولى نحو فلسطين، ظهر أمامنا بأن قوة الدفع في أوروبا، قابلتها قوة جذب كما ذكرنا نحو فلسطين. وكما يضيف زئيف سترنهيل بأن رفض اليهود دعاة الفكرة الصهيونية "للشتات" ترتب عليه عدة نتائج، كان أبرزها "هي أن كل الآمال والجهود تركزت على فلسطين. كانت فلسطين تعتبر المركز الوحيد، ليس للوجود اليهودي فقط، بل للتاريخ اليهودي، مصدر الإلهام واكسير الحياة"[98]. لكن هل كانت فلسطين هي الوجهة الوحيدة لهجرة اليهود؟. يؤكد كيمرلينغ بأن الهجرة اليهودية لم تتركز فقط نحو فلسطين، وهو ما نتج عنه اختفاء مركزين ديمغرافيين رئيسيين كانا يمثلان "مخزون السكان اليهودي": الأول في شرق أوروبا،

---

[94] باروخ كيمرلينغ. مصدر سبق ذكره، ص110.

[95] افرايم ومناحيم تلمي. مصدر سبق ذكره، ص64.

[96] المصدر السابق، ص196.

[97] المصدر السابق ، ص330.

[98] زئيف سترنهيل. **الأساطير المؤسسة لإسرائيل**، ترجمة عزت الغزاوي. رام الله: مدار، المركز الفلسطيني للدراسات الاسرائيلية، 2001، ص63.

والثاني في العالم الإسلامي[99]. في المقابل ظهر مركزين جديدين، الأول في فلسطين، والثاني في الولايات المتحدة[100]. وهذا يعني أن قوة الدفع في أوروبا انتجت مجموعتين من "المهاجرين" –بشكل عام– مجموعة فضلت الذهاب نحو بلاد تكتسيها حالة الاستقرار السياسي والاقتصادي، وتتسع لفرصة أكثر مرونة في العيش، والمجموعة الثانية التي فضلت فلسطين، أو بقيت دون مغادرتها، حملت مجموعة صفات مكنتها من مواجهة واقع أكثر قساوة من الولايات المتحدة، وأقل بدرجات من توقعاتهم نحو الأرض "الموعودة".

ولتأكيد ذلك، نجد الكثير من المؤشرات التي تدل على خيبة أمل المهاجرين الأوائل بمجرد الوصول إلى فلسطين. بل لقد كانت خيبة الأمل من المميزات البارزة في الموجات الأولى للهجرة اليهودية، إذ تباينت توقعات المهاجرين الأوائل إلى فلسطين، مع الواقع الذي وجدوه، ويؤكد رائف زريق ذلك مشيراً بأن "لم تكن فلسطين مكاناً سهلاً ولا مكاناً مغرياً للاستيطان الكولونيالي. فقد كانت مواردها الخام وثرواتها الطبيعية محدودة، كما كانت نسبة عدد السكان الفلسطينيين إلى مساحة الأرض التي يعيشون فوقها نسبة عالية جداً"[101]. في توضيح ذلك استخدمت أنيتا شابيرا لوصف توقعات المهاجرين اليهود قبيل وصولهم إلى فلسطين، اقتباس من رسالة كان قد كتبها دافيد بن غوريون وقال فيها: "عادةً، يميل أولئك الذين يتحضرون للسفر إلى فلسطين لحمل تصوراً رومانسياً، فلسطين جميلة والتفكير بمستقبلها، الذكريات لتاريخها العريق وسحر العصور القديمة، متجاهلين فلسطين الحقيقية، وبساطتها، وخشونة حياتها اليومية"[102]. هنا يؤكد بن غوريون على وصف الفجوة بين زخم توقعات المهاجرين اليهود والواقع الذي واجهوه عند وصولهم. وهذا يفسر ما تناولته سابقاً في مغادرة جزء من المهاجرين اليهود بعد وصولهم إلى فلسطين نحو أماكن أكثر مرونة في العيش، مثل الولايات المتحدة. وحسب ما يشير كيمرلينغ فإن نصف المهاجرين اللذين وصلوا إلى فلسطين بداية موجة الهجرة الأولى غادروا وبقي النصف الآخر[103].

إن ما ذكرته سابقاً، عن خيبة أمل المهاجرين من الواقع الذي واجهوه فور وصولهم إلى فلسطين، بالإضافة لتوجه جزء للهجرة بشكل مباشر من شرق أوروبا نحو الولايات المتحدة، ومغادرة جزء آخر بعد الوصول إلى فلسطين، إنما يعني أن دوافع الهجرة كانت متباينة لدى اليهود في أوروبا، وبالتالي ولدت حركة الهجرة نحو فلسطين مساراً مختلف عن الهجرة لأماكن أخرى. ولتفسير ذلك يبقى أمامنا عامل البقاء لفهم هذا الفارق،

---

[99] باروخ كيمرلينغ، مصدر سبق ذكره، ص51.

[100] المصدر السابق، ص44 وص105.

[101] رائف زريق. **إسرائيل خلفية أيديولوجية وتاريخية**، في دليل اسرائيل العام2011. رام الله: مؤسسة الدراسات الفلسطينية،2011، ص24.

[102] Anita Shapira. *Land and Power :* the Zionist Resort to Force 1881 – 1948. New York: Oxford University Press , 1992, p53.

[103] باروخ كيمرلينغ، مصدر سبق ذكره، ص111.

والذي يعبر عن نية واضحة لدى المهاجرين الأوائل – على غرار حركة هواة صهيون وبيلو– في إقامة استيطان على قاعدة قومية في فلسطين. فكما يؤكد كيمرلينغ "أسسَ هذه الجالية مهاجرون وصلوا إلى هـذا الإقليم مدفوعين بدوافع مختلفة، وأحياناً بخليط من الدوافع الدينية، والأيديولوجية، والسياسية، والمادية، مثل الطموح لتحسين شروط الحياة والمعيشة والهرب من الملاحقة والاضطهاد وشظف العيش في بلدان المنشأ"[104]، ويضيف أيضاً :"وبعد فترة قصيرة بلور هؤلاء المهاجرون وعياً وانتماءً إلى المكان، قومية محلية وطموح لتقرير المصير في إطار سياسي، وحتى أن بعضهم وصل مع وعي كهذا"[105]. بالتالي يظهر بأن ترجمة دوافع الهجرة إلى وعي بالمكان وطموح لتقرير مصير قومي، ضمن إطار سياسي، لم تتشكل إلا عبر وجود عامل البقاء، لأنها لم تتشكل في مراكز أخرى تمت الهجرة إليها غير فلسطين. وهذا يعني بأن عامل البقاء هو محرك الوعي الاستيطاني، وركيزة الوجود الذي ترتب عليه ممارسة "المهاجرين" المستوطنين اليهود لنمط استيطاني يهدف إلى استبدال معنى البقاء الطارئ كأقلية في أوروبا، إلى معنى بقاء استيطاني يمارس شروط وجوده الاقصائية بمعايير استعمارية – قومية.

البقاء تبلور العلاقة ونمط الإنتاج

تمكن الاستيطان الصهيوني منذ مطلع الهجرة اليهودية، من البقاء والنمو تحت محددات البيئة السائدة في فلسطين، سواء الاقتصادية، أو السياسية والاجتماعية. كما أن نمط الحكم العثماني كان له أثر على مسار الهجرة والاستيطان، فمثلاً، وبالرغم من عدم تسهيل الهجرة اليهودية[106]، إلا أن تسوية قوانين ملكية الأراضي وتسجيلها، بما يسمح للأجانب بالتملك[107]، كان ذو أثر عميق في بداية نقل ملكية بعض الأراضي للمستوطنين اليهود. ضمن هذا المناخ وتحت مظلة الحكم العثماني، ونمط الإنتاج الزراعي السائد، تأسست حركة الاستيطان في فلسطين كاستيطان إثني يقوم على الزراعة.

لقد كانت أراضي المستعمرات الأولى قد تم تملكها من ملاك عرب إقطاعيين، وبناء على ذلك فقد تم طرد المزارعين العرب منها بعد إقامة المستعمرات[108]. وعاشت المستوطنات الأولى على الزراعة، التي لم تحقق مردوداً اقتصادياً مجدي بسبب جهل المهاجرين الأوائل بطبيعة التربة والمناخ، وعجزهم عن تحقيق الجدوى التي حققها

---

[104] المصدر السابق ، ص109.

[105] المصدر السابق ، ص109.

[106] تحدث كيمرلينغ عن انقطاع الهجرة الأولى لفترة محددة بسبب ضغط السكان المحليين على السلطنة العثمانية، لكنها تجددت مع إزالة الحظر لاحقاً في العام 1890. انظر: باروخ كيمرلينغ. مصدر سبق ذكره، ص111.

[107] انظر في: هند البديري. **أراضي فلسطين بين مزاعم الصهيونية وحقائق التاريخ**.القاهرة: جامعة الدول العربية: الأمانة العامة، 1998، ص26-40.

[108] باروخ كيمرلينغ. مصدر سبق ذكره، ص112.

الفلاح الفلسطيني. لكنهم لجأوا لاستخدام اليد العاملة للسكان المحليين، في هذا السياق تتحدث شابيرا عن تكون علاقة تبادلية لغرض المنفعة بين المحيط العربي والمستوطنات، حيث احتاج المزارعين العرب لتوفير دخل من العمل في المستوطنات، من أجل دعم زراعتهم الخاصة في أراضيهم، كما احتاج المستوطنون المهاجرون إلى أيدي عاملة للعمل في بساتين الكروم لديهم[109]. هذا النموذج السائد من العلاقات في المستوطنات المقامة خاصة (بتاح تكفا، ريشون ليتسيون، وزخرون يعقوف)، استخدمت فيها الأقلية الاستيطانية عمالة السكان المحليين لتطوير اقتصادها[110]. وبالرغم من مشابهة هذا النموذج الاستيطاني لنماذج استيطانية أخرى، قائمة على أساس توظيف طاقة المجتمع المحلي لخدمة اقتصاد المستوطنات، كانت الممارسة الاستيطانية تخضع للشروط الموضوعية في سوق العمل والمناخ السائد إبان فترة الحكم العثماني، والتي تغيرت لاحقاً، مع وصول موجة الهجرة الثانية، التي سنتوقف لدراستها بتمعن.

شكلت تجربة الاستيطان الزراعي، والتي رأت فيها الصهيونية خطوة أولى نحو مشروعها، قاعدة تأسيسية عاش من خلالها المستوطنون الأوائل إمكانية البقاء والاستمرار، ليس بجهدهم الذاتي فقط، بل أيضاً بفضل دور البارون روتشليد في تبني دعم المستوطنات اليهودية، حيث اهتم بدوره في دعم المستوطنات القائمة وإقامة بعض المستوطنات الجديدة، كما "إن المستوطنات التي أقامها روتشيلد قد شكلت قاعدة أولى من البنى التحتية للمشروع الصهيوني الاستيطاني"[111]. لقد كان تدخل روتشليد في دعم الاستيطان الزراعي بعد عجز المستوطنين من النجاح في الإنتاج الزراعي، بالتالي توجهوا إليه من أجل محاولة توفير مساندة لهم، بمقابل ذلك قام البارون روتشليد بتعيين سلطة إدارية تكون مسؤولة عن الموشافات[112]. وكما يؤكد افرايم ومناحيم تلمي، بأن المكسب الأهم الذي حققته الهجرة الأولى هو "وضع الأساس للاستيطان اليهودي الزراعي، وإحياء اللغة العبرية وإقامة شبكة تعليم عبرية وإقامة مؤسسات عامة مختلفة"[113]. لذى لم يكن الاستيطان الزراعي وسيلة للبقاء فقط، بل مثل معنى عميقاً للبقاء الاستيطاني القائم على النفي، حيث تضيف أفيفا أفيف في كتابها عن المجتمع الإسرائيلي:

> **كان الاستيطان الزراعي منذ بداية النشاط الصهيوني أهم انجاز للحركة القومية للعودة إلى الأرض. فالزراعة كانت تعني العودة إلى الأرض، إلى الجذور، كما كانت تعني أيضاً احتلال الأرض، وتحويل الأرض التي كانت بلا شعب، لتصبح أرضاً ملكا لشعب يحتفظ بها. ولم تكن الزراعة محور التوجه الأيديولوجي فحسب بل كانت**

---

[109] Anita Shapira, 1992,p57.

[110] المصدر السابق، ص57.

[111] نزيه بريك. الكيبوتس – بين نمط الاشتراكية والاستعمار الاستيطاني.(**قضايا اسرائيلية**: العدد 7\6، 2002)، ص102.

[112] غرشون شفير. مصدر سبق ذكره، ص138.

[113] افرايم ومناحيم تلمي. مصدر سبق ذكره، ص330.

فعلياً المجال الساسي الذي يركز الآمال نحو التطوير الاقتصادي وخلق مصادر جديدة تمكن من استمرار استيعاب أفراد جدد في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين[114].

ولتوضيح تطور مسار الاستيطان الزراعي، أعود لتقسيمات شفير لموجة الهجرة الأولى، والتي توضح كيفية الاستناد لنمط إنتاج يضمن البقاء، ويمهد لتحقيق الإقصاء كما سيظهر أمامنا عند تناول موجة الهجرة الثانية. يقسم شافير الهجرة الأولى إلى ثلاث مراحل من حيث الاستيطان، الفترة الواقعة بين 1882 و1903 "المرحلة الأولى في الاستيطان الصهيوني بدأت في 1882 بمحاولة المستوطنين تأسيس مستعمرة استيطان طاهر لمزارعين يهود أصحاب قسائم صغيرة من الأرض. وسعى أفراد موشافات الهجرة الأولى إلى توفير رزقهم بواسطة محاكاة الأسلوب الزراعي الذي كان مألوفاً في فلسطين وفي سائر مناطق الشرق الأوسط"[115]. المرحلة الثانية، وبعد عجز المستوطنين في إنجاح نمط الإنتاج الزراعي، توجهوا بطلب توفير مساعدة للبارون روتشليد، وهذا في أقل من سنة على بدء الهجرة. و"في ظل السلطة الإدارية لروتشليد دارت المرحلة الثانية في تاريخ الاستيطان الصهيوني، وبين السنوات 1882-1900 تحول الييشوف اليهودي إلى مستعمرة مزارع إثنية، بهدف أن تؤمن لسكانها مستوى معيشة أوروبياً"[116]. ما يميز نمط الاستيطان هذا كما يشير شفير هو أن "هذا الاستيطان كان مستنداً إلى ملكية فردية للمزارع، إلى تشغيل قوة عمل عربية موسمية غير مدربة، مطعمة بعدد قليل من العمال اليهود. وأدى تشغيل العرب، من أصحاب الأيدي العاملة الرخيصة، إلى تقييد قدرة النمو الديمغرافي اليهودي في أرض إسرائيل بصورة كبيرة"[117]. أما المرحلة الثالثة والتي بدأت بأزمة جديدة "ففي 1900 توقف البارون روتشلد عن تقديم مخصصات دعم للكروم والمعاصر وطلب تحويلها إلى مرافق ربحية. وفي إطار سياسة التنجيع الصارمة التي انتهجها اقتلعت الكروم، وتم تخفيض أجور العمال اليهود. ونتيجة لذلك اختار كثيرون منهم مغادرة البلاد"[118]. بموازاة هذه الأزمة ظهرت أزمة جمود في عملية تملك الأراضي، تمثلت بامتناع الهستدروت امتلاك أراضي وانسحاب روتشلد من عملية الامتلاك[119]. لقد شكل الاستيطان الصهيوني في مراحله الأولى، مساراً تمهيدياً، ومدخلاً عملياً للمشروع الصهيوني الاستيطاني، وبالرغم من تعثره في بعض المنعطفات، وتباين الآراء في جدواه الاقتصادية، إلا أنه بدأ في موضعة الثنائية الاستعمارية التي سترسم موقع السكان الفلسطيني بالنسبة للوجود الصهيوني في فلسطين. وبشكل مباشر، فقد أسست موجة الهجرة الأولى

---

[114] أفيفا أفيف. **المجتمع الاسرائيلي**، ترجمة محمد صالح.القاهرة : مركز الدراسات الشرقية، جامعة القاهرة، 1998، ص173.

[115] غرشون شفير. مصدر سبق ذكره ، ص138.

[116] المصدر السابق ، ص138.

[117] المصدر السابق .

[118] المصدر السابق، ص139.

[119] المصدر السابق.

نمط علاقة قائم على وجود مستوطن يسعى للحلول تدريجياً مكان السكان المحليين، سواء في الملكية أو حتى نمط الإنتاج.

إن توجه المستوطنين إلى تبنِّي الزراعة كركيزة اقتصادية أساسية للمستوطنات، هو ما نراه كمحاكاة من أجل البقاء، وبالرغم من اختلاف السياق السابق لحياة المستوطنين قبل الهجرة، إلا إن الزراعة كانت ممارسة اقتصادية، ونهج حياة سائد في فلسطين، أنتجته التجربة التاريخية للوجود الفلسطيني في أرضه. بالتالي سعت موجة الهجرة الأولى، خاصة مع غياب مركز ميتروبوليتاني إلى أن تبقى وفق شروط الواقع الغالب في فلسطين. فقد أسست الهجرة الأولى الاستيطان الريفي الذي كان قوامه "الموشفاه"، ثم "اتضح لاحقاً أن التشديد على الاستعمار الزراعي كان ناجعاً من حيث إدارة النزاع مع المحيط العربي، وكجزء من مراكمة تملك الأراضي والسيطرة على مساحات واسعة قدر الإمكان. كانت المستعمرات الحضرية تبنى على مساحات من الأرض مقلصة نسبياً، بينما الاستعمار الريفي يستهلك مساحات أوسع بكثير، ويبرز الحضور والسيطرة"[120]. بالتالي كانت حاجة الأرض تقترن بحاجة البقاء المهادي لمجموعة المستوطنين الأوائل، لكن من المهم فهم تطور البنية الاستيطانية لا على قاعدة الأهداف الصهيونية فقط، وإن كانت أبرزها، بل على قاعدة تجربة البقاء أيضاً، خاصة كما يؤكد كيمرلينغ بأن "حصلت في الأساس عملية البناء المؤسسي وصياغة المجال الجغرافي للجماعة/ الجمهور اليهودي كمجتمع مهاجرين – مستعمرين، في المرحلة الأولى من دون أهداف سياسية محددة ومبلورة"[121]. وهذا يشير إلى وجود هدف أساسي واحد، ألا وهو البقاء.

يلخص شافير في ادعائه بأن تجربة الاستيطان تطورت بما يتناسب مع حاجات سوق الأرض وسوق العمل، موضحاً بأنه "لم يتطور الاستيطان الصهيوني في أرض إسرائيل طبقاً لبرنامج مجهز مسبقاً. لقد تطور عبر طريق التجربة والخطأ، التي قادته من مرحلة إلى أخرى حتى تبلور في النهاية – منذ الفترة السابقة للحرب العالمية الأولى – نموذج استيطاني فاعل تناسب، سواء بسواء، مع ظروف سوق الأرض وسوق العمل التي سادت في البلاد، ومع النسبة العددية بين السكان وبين خصائص المستوطنين اليهود"[122]. لكن هل يعني ذلك بأن الظروف الموضوعية وبعض الخصائص الذاتية هي ملخص تجربة الاستيطان الصهيوني؟. طبعاً لا، في المقابل أيضاً لا يمكن إسقاط أهم مبدأ يقوم عليه الاستعمار الاستيطاني، كما يؤكد وولف وهو النفي والإقصاء[123]. لذى سعت قراءتي للهجرات اليهودية ونمط الإنتاج الزراعي لمراعاة المداخلات الصهيونية والأكاديمية – صهيونية،

---

[120] باروخ كيمرلينغ. مصدر سبق ذكره، ص113.

[121] المصدر السابق، ص111.

[122] غرشون شفير. مصدر سبق ذكره، ص129.

[123] Patick Wolfe. *Settler Colonialism And The Elimination Of The Native* : Journal of Genocide Research (2006).

لكن بالارتكاز ضرورةً على فهم بنية الاستعمار الاستيطاني القائم على البقاء، وعدم تناول السياق التـــاريخي كحدث نتج عن تجربة فقط، بل كبنية أنتجت ثنائيات وتقسيمات استعمارية.

البقاء– الصهيونية – الأنا والآخر

لقد فقد المهاجرون اليهود عنصر البقاء في أوروبا مقابل صياغته كأسس مستقبلي ووجـــودي في فلســـطين، بموازاة ذلك، كانت عملية إعادة إنتاج تجربة البقاء في فلسطين تشترط في عقلية الاستيطان اليهودي، وخاصة الأفكار الصهيونية في "العودة"، بأن تتحول الأقلية اليهودية الخاضعة لهيمنة أكثرية إلى مجموعـــة ذات ســـيادة خارج أوروبا، وهوما ترتب عليه سلسلة خطوات تراكمية نحو وجود استيطاني احلالي. وما أحاول توضيحه هو أن الثنائية الاستعمارية المستوطن/الأصلاني كانت شرطاً ملازماً – منذ بداية الهجرة اليهودية إلى فلسطين – لعملية البقاء.

إن عزل فاعلية الفكرة الصهيونية عن حركة الهجرة اليهودية، خاصة الهجرة الأولى، لن يفيد في ربط علائقي بين مسار الاستيطان وتحولاته. فكما هو من المهم إدراك دور الصهيونية الناشئة أواخر القرن التاسع عشـــر في أوروبا، في كيفية بلورة الخطاب الاستعماري ضمن منظومة تحمل مشروع قومي استيطاني. فإنه من المهم أيضاً الإشارة بأن الفكرة الصهيونية كانت قد سبقت الحركة من حيث الوجود، فقد انتشرت العديد من الأفكـــار والمبادرات بهدف الوصول لانبعاث قومي يخلص اليهود من أزمة "الشتات". وفي الواقع وقبل ظهور حركـــة هواة صهيون 1881 كانت هناك "أفكار وخطط مختلفة خاصة بأفراد منهم الحاخام تسفي هـــيرش كليشـــر ويهودا حاي الكلعي والمفكر موشه هس، والأدباء دافيد غوردون وبيرتس سمولنسكين واليعزر بـــن يهـــودا وغيرهم"[124]. وكما يشير حاييم وايزمان أن كتاب "روما والقدس" لموشى هس وكتاب "التحرر الذاتي" لليون بنسكر كانا قد سبقا وبشرا بصحوة قومية، لكنهما لم ينجحا في تحقيقها مثل ما فعل كتاب ثيودور هرتســـل "الدولة اليهودية"[125]. كذلك الأمر قبل ظهور الحركة الصهيونية في العام 1897، فقد كانت الفكرة الصهيونية مصلحة استعمارية أوروبية هدفها الاستفادة من خلق كيان/حاجز في العالم العربي، لغرض التقسيم وتحقيـــق السيطرة الاستعمارية لأوروبا على العالم، مثال ذلك ما طرحه "هنري بالمرستون 1784-1865"؛ وزيـــر خارجية بريطانيا في مذكرة كان قد أرسلها إلى سفير بريطانيا في تركيا بتاريخ 11.8.1840، والتي عرض

---

[124] افرايم ومناحيم تلمي. مصدر سبق ذكره، ص196.

[125] حاييم وايزمن مقدماً في ثيودور هرتسل. **الدولة اليهودية**. ترجمة محمد عدس: دار الزهراء للنشر، ص25-31.

فيها فكرة توطين اليهود في فلسطين لمواجهة طموحات محمد علي باشا في التوسع نحو الشرق[126].

إذاً، فإن الحركة الصهيونية التي انبثقت من المؤتمر الصهيوني الأول في بازل سويسرا بين 29 و31 آب 1897 والذي كان الترجمة العملية للانتقال من حركة هواة صهيون إلى حركة صهيونية سياسية[127]، عبرت عن اتحاد مسارين: حاجة اليهود لإنهاء أزمة "المسألة اليهودية"، والرغبة الاستعمارية الأوروبية في خلق كيان استعماري في "الشرق" كحاجز يحاكي النمط الأوروبي استعمارياً. بالتالي أقول بأن في ظهور الصهيونية كان هناك تحولاً تاريخياً على مسارين متوازيين ومترابطين، الأول في طرح مشروع قومي – استعماري يحاكي المشاريع القومية والتجربة الاستعمارية في أوروبا. وبهذه الروح تم تقديم المشروع كحل "للمسألة اليهودية" عبر إقامة وطن قومي يضم اليهود تحت مظلة تجربة الحداثة الأوروبية. المسار الثاني، كان يتمثل في ممارسة المشروع الصهيوني بدء الاستيطان في أراضي فلسطين عبر الهجرات اليهودية المتوالية. المهم في هذا السياق هو أن نقرأ الصهيونية من زاوية كونها حركة استعمار استيطاني تكونت في أوروبا وحملت معها الفكرة القومية وروح الاستعمار بمعايير الحداثة الغربية[128]، خاصة أنها تمكنت من تحويل الجماعة الدينية اليهودية إلى جماعة قومية[129]، بمعنى أنها هدفت منذ نشأتها إلى أن تجمع بين العرق والدين تحت مظلة مشروعها القومي.

لم تكن الصهيونية استجابة فقط للتضييق والملاحقة والاضطهاد الذي تعرض له اليهود في شرق أوروبا، بل كانت تفسيراً وملاذاً لخطر فقدان الهوية[130] –كما يؤكد سترنهيل– بمعنى الخطر الجمعي على وجود أمة، وهو تعبير عن قلق وجودي يرتبط بالجماعة حسب تعبير سترنهيل. بالتالي كان تبلور الوعي بهوية الجماعة، في وقت اكتساح عصر القوميات، قد دفع يهود أوروبا أن ينظروا لمستقبلهم ضمن تصاعد مصطلحات وأفكار تلك الحقبة، والتي اكتفت في النظر لليهودي كآخر، ضمن مجتمعات أكثرية تعبر عن هويتها باتجاه الفضاء القومي، أرض، وحدة ثقافية –سياسية ، لغة ودين[131]، واستبدالها بالنظر للجماعة كأنا.

منذ انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول كان الهم لدى الحركة الصهيونية هو تحقيق هدفها باستخدام أزمة اليهود في أوروبا ضمن معايير القومية الحديثة في حينه، شريطة أن يتم الخلاص عبر الخروج من أوروبا، بمعنى مغادرة

---

[126] مذكرة بالمرستون إلى سفير بريطانيا في تركيا بخصوص توطين اليهود في فلسطين. موسوعة النكبة: http://www.nakba.ps/historical_documents_details.php?id=14 (استخدم بتاريخ 25.1.2018).

[127] افرايم ومناحم تلمي. مصدر سبق ذكره، ص404.

[128] انظر: مقالة أيليا زريق ونقاش الصهيونية كحركة استعمار استيطاني في: إيليا زريق. الصهيونية والاستعمار. **(عمران للعلوم الاجتماعية والانسانية:** مج2، ع8، 2014).

[129] للتوسع في هذا السياق انظر مداخلة شلومو ساند حول نقد الفكرة الصهيونية في إنشاء فكرة الشعب اليهودي كجماعة قومية. انظر: شلومو ساند. **اختراع الشعب اليهودي**. ترجمة سعيد عياش، رام الله: مدار، المركز الفلسطيني للدراسات الاسرائيلية، 2013.

[130] زئيف سترنهيل. **الأساطير المؤسسة لإسرائيل**، ترجمة عزت الغزاوي. رام الله: مدار، المركز الفلسطيني للدراسات الاسرائيلية، 2001، ص25.

[131] انظر: بندكت اندرسون وآخرون. **القومية مرض العصر أم خلاصة**. اعداد فالح عبد الجبار. بيروت: دار الساقي، 1995، ص25–39.

أوروبا فيزيائياً والارتباط بها فكرياً وحضارياً[132]. والخروج في هذا السياق كان عبارة عن مراكمة الهجرة والاستيطان، وإن كانت في البداية تدريجية، لكن يجب أن لا يغيب عن أذهاننا أن هدف الاستيطان هو "استبدال السكان العرب والسيطرة على الأرض كمادة رئيسية لإنجاز المشروع الصهيوني"[133]. بالتالي "لم تكن الصهيونية حركة استعمارية وحسب، وإنما هي حركة استيطانية إحلالية (أرض بلا شعب) وهو ما يعني ضرورة أن تخلي الأرض التي سينفذ فيها المشروع الصهيوني من السكان الأصليين"[134]. من أجل ذلك استخدمت الصهيونية أدوات عصرها القومية الاستعمارية من أجل شق طريقها لتحقيق مشروعها، وجاءت "بواسطة الأدوات والمفاهيم ذاتها التي كانت سائدة في أوروبا، وخصوصاً في شرقها، وتبنت عالم المفاهيم القومي (والليبرالي؟) نفسه، القائم في الأساس على توحيد اللغة والأرض"[135]. وضمن هذه الرؤية تم النظر إلى تجربة اليهود المستقبلية كنقيض لتجربتهم في "الشتات"، والتي تتحدد في صياغة سياق قومي على غرار التجربة الأوروبية من حيث وحدة الأرض واللغة.

إن الصهيونية كحركة استعمار استيطاني، جاءت لتحول فكرة البقاء الاستيطاني للمهاجرين الأوائل، من مجرد ممارسة نشاط استيطاني غير معلن لأهدافه، إلى ممارسة منهجية ومعلنة ضمن مشروع قومي. وكأنها تمثل الخروج من أوروبا والهجرة بموازاة عصر الاستكشافات الاستعمارية، لتصبح الهجرة هي تجربة الاستكشاف للعالم الجديد، والمهاجرين الأوائل هم طلائع استكشافية. ضمن هذا التقاطع مع حركة الاستعمار الأوروبية أحاول قراءة صناعة الأنا الاستعمارية الصهيونية خارج أوروبا، والتي تستكمل مسار تشكل الأنا الاستيطاني للمهاجرين الأوائل، مقابل الآخر الأصلاني.

يقول هرتسل ضمن مسوغات إقامة الدولة والخيارات المتاحة بين الأرجنتين وفلسطين، بأن اختيار فلسطين سوف يشكل "جزءاً من استحكامات أوروبا في مواجهة آسيا كموقع أمامي للحضارة في مواجهة البربرية"[136]، هذا التقسيم بثنائية الحضارة والبربرية يكشف أحد الخطابات الاستعمارية من جهة، وتفكيك الجغرافية إلى شمال متحضر وشرق بربري من جهة أخرى، وهو تقسيم لم يكن هرتسل من ابتدعه، إنما هو حصيلة إعادة إنتاج الخطاب الاستعماري الذي يرى في الآخر كل ما هو سواه. لكن أمام هذا الخطاب المتأثر بروح الاستشراق الأوروبي، كان عنصر البقاء والحاجة الاستيطانية، إضافة لعمق فكرة العودة إلى التاريخ "المقدس للأرض"، يطرح مفارقة أخرى، وهي التي ترتب عليها وجهان لصناعة الآنا الاستعمارية الاستيطانية

---

[132] رائف زريق، مصدر سبق ذكره، ص 5.

[133] نزيه بريك. مصدر سبق ذكره، ص102.

[134] عبد الوهاب المسيري. **الصهيونية والعنف من بداية الاستيطان إلى انتفاضة الأقصى**، القاهرة: دار الشروق، 2001، ص41.

[135] رائف زريق، مصدر سبق ذكره، ص5.

[136] ثيودور هرتسل. مصدر سبق ذكره.ص65

مقابل الآخر: الوجه الأول كان في الخطاب الاستشراقي المتعالي الذي مثله هرتسل في مقولته السابقة، والذي يعكس حاجة بقاء الأنا بشرط نفي الآخر، فيكون الآخر هو نقيض لصورة الأنـــا الاســـتعمارية المتحضـــرة والفاعلة. فتكون "شعوب العالم الجديد الأصلية قد تم تصويرها وليدة الصدام الأوروبي معها، وبالتالي يلفهـــا خطاب من البداءة، ومن ناحية أخرى يتم بناء الشرق على أنه بربري أو منحط"[137]، فلا يُعرف الآخر إلا عبر فاعلية الأنا الاستعمارية عند "اكتشافه" من المنظور الاستعماري، ويكون بذلك هو صاحب الحق في إخضاعه، وصناعة صورته.

أما الوجه الثاني، فجسد التعبير عن حاجة البقاء الاستيطانية عبر التقليد والمحاكاة لثقافة السكان المحليين، فكانت الأنا الاستعمارية التي تشترط نفي الآخر قائمة على التقليد كتعبير عن قلق في ادعاء الأصـــلنة، وكمحاولـــة لانتزاع صفة الأصلنة، وممارسة نمط حياة يتوافق مع المكان وبيئته الثقافية السائدة. يقول جيل إيال : "فمحاكاة ثقافة الفلسطينيين وعاداتهم ممارسة أنجبت المهجنين–المستعربين – في محاولة لطمأنة الـــذات الصـــهيونية إلى أصالتها"[138]. لقد تأثر المجتمع الاستيطاني الزراعي في محاكاة التقاليد والعادات المحلية السائدة، وتظهر بعـــض الشواهد كيف تعلق فتية المستوطنين الأوائل بتعلم عادات وممارسات العرب في تصرفاتهم مـــع البـــهائم، وفي الرعي والحصاد. وقضوا أوقات في خيمهم ومساكنهم التي في محيط المستوطنات، وتعلموا رقص الدبكة وأغاني الأفراح[139]. شواهد أخرى أوردها "عاموس بلوفيشتين" في دراسته عن المستعربين تناول فيها نموذجين ليهـــود مهاجرين من أوروبا تعمدوا تقليد العرب والتعلم منهم وهما: "مناحم فزيم، كان من أتباع "الشطرايميل"[140] ، وعند قدومه إلى فلسطين "عاش مع العرب وارتدى ملابسهم، حتى لم يعرف بأنـــه يهـــودي"[141]، و"زلمـــان كوهن، كان مسؤول عن أملاك البارون في سوريا، كان يركب الحصان، ويغطي رأسه بالكوفية"[142]. مـــن الواضح أن حالة التطبع بالتقاليد المحلية، سواء من أبناء المستوطنين أو بعض كبارهم من الوجهاء، كانت تعبر عن أزمة الأنا الاستيطانية وقلقها تجاه تعريف ذاتها بين بلد المنشأ والمقصد.

---

[137] آنيا لومبا. **في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية**. دمشق: دار الحوار،2007، ص117.

[138] غيل إيال. مصدر سبق ذكره. ص67.

[139] رزيال نماط. السلام على الحراب–قصة حيمكا لبكوب ورفاقه (بالعبرية)، سبق ذكره، ص41.

[140] **שטריימל** – بالإيديش، بالعبرية : **מִזְנֶבֶת**. وهي تعني القبعة التي كان يرتديها طائفة من اليهود الحريديمالحسيديم في شرق أوروبا. والمعنى في النص أن "مناحم بزيم" كان من أتباع هذه الطائفة قبل أن يهاجر مع بعثة للبارون إلى فلسطين.

[141] **עמוס בלובשטין. המסתערבים- הוותה ודרכי פעולתה של המחלקה הערבית בפלמ"ח 1940-1950، 1**. عاموس بلوفوشتين. المستعربين– تأسيسها وطرق العمل للدائرة العربية في البالماخ.

[142] المصدر السابق.

بالمحصلة، فإن الصهيونية أعادت إنتاج عنصر البقاء الاستيطاني من المرحلة الجنينية، والمتمثل بالهجرة الأولى والمدفوعة بدوافع دينية أيديولوجية[143]– كما يؤكد كيمرلينغ– إلى بقاء ضمن معايير المشروع القومي المرتبط بالحداثة الأوروبية وروح الاستعمار. وترتب على ذلك صياغة الأنا اليهودية من أنا خاملة في أوروبا إلى أنا فاعلة داخل فلسطين، وكما يضيف المسيري "انتقد الصهاينة ما يسمى (بالشخصية اليهودية) لعجزها وطفيليتها وهامشيتها. وقد طرحوا مفهوماً جديداً للشخصية اليهودية يستند إلى الأساس العرقي والإثني (شأنهم في هذا شأن منظرو القومية العضوية في الغرب)، وهي شخصية حديثة داروينية عنيفة مرنة في ذات الوقت، يفترض فيها المقدرة على أن تأخذ القانون في يدها وأن تلجأ للعنف والإرهاب"[144]. تجدر الإشارة أيضاً إلى أن مسعى الصهيونية في بلورة اليهودي الجديد ارتبط بضرورة وجود سيادة قومية له، عبر شخصية صهيونية تؤمن وتمارس السيادة الاستيطانية، والتي تجلت في نفي الأنا القديمة في أوروبا، مقابل نفي الآخر في فلسطين. كما أن تبلور الأنا/الآخر حمل وجه الاستعمار الأوروبي من زاوية، وحمل أيضاً التقليد والمحاكاة في صياغة أنا أصلانية ونفيها عن الآخر من زاوية أخرى. وما تجربة الاستعراب كما سنناقشها لاحقاً إلا تجسيدا لهذه المقولة.

الهجرة الثانية– استكمال البقاء نحو الإقصاء

كنت قد ذكرت في مقدمة الفصل بأن الاستعراب الصهيوني لا يُقرأ بمعزل عن الاستيطان، ولفهم مسار الاستيطان آنذاك تناولت مفهوم البقاء كعامل رئيسي يفسر نمط الانتاج الزراعي كضرورة وجودية، بالإضافة لظهور الصهيونية وإعادة إنتاجها لمفهوم البقاء ضمن خطاب ومشروع قومي استيطاني في فلسطين. كذلك الأمر فإن قراءة الهجرة الثانية، لا أقدمها على نحو الخصوصية التي أفردت الأدبيات المختلفة لها مساحة واسعة، بحكم التحول الذي انتجته من حركة استيطان قائمة على الإقصاء عبر احتلال العمل والحراسة، بل أقف في قراءتي لها، ومن خلال عنصر البقاء، بتناولها كمسار متصل لما سبقها، وجسر يفسر ما تبعها. حيث وعبر تناول سياق الهجرة الثانية، أُركز على تجربة الحراسة والاستعراب الصهيوني و"الدفاع الذاتي"، بالتوازي مع نقاش نمط العلاقة بين المستوطنين والسكان الفلسطينيين، وبدء ممارسة احتلال العمل والحراسة.

تعتبر الفترة بين العام 1903 و1904 هي مرحلة نهاية موجة الهجرة الأولى، وبداية موجة الهجرة الثانية. فقد "قدِم إلى فلسطين خلال الفترة ما بين العام 1904–1914، زهاء خمسة وثلاثين ألف مستوطن جديد، من

---

[143] باروخ كيمرلينغ. مصدر سبق ذكره، ص111.

[144] عبد الوهاب المسيري. مصدر سبق ذكره، ص 35.

بينهم حوالي عشرة آلاف شاب قدموا من أوروبا الشرقية"[145]. إن عددا كبيرا من المهاجرين كان لهم تجربة مع المذابح في روسيا. ومنذ العام 1905 أصبحت المذابح أكثر تكراراً، وهو ما رفع من شعور الغضب والسخط بين هؤلاء الشباب، ومثل هذه التجربة باتت من المكونات النفسية للهجرة الثانية[146]، و"معظم أفراد هذه الهجرة جاءوا من روسيا بعد المذابح التي نفذت في اليهود في كيشينوف عام 1903. وفي هوميل عام 1904 وبعد فشل الثورة الروسية وعمليات شغب أخرى ضد اليهود، وقد برز في هذه الهجرة العدد الكبير من الشبان اليهود ومعظمهم أعضاء في حركات اشتراكية تطلعوا إلى تكوين طبقة عمالية عبرية كأساس لشعب عامل في أرضه"[147]. ويصنف جوني منصور خلفيات الهجرة وأبرزها قرارات المؤتمر الصهيوني السابع عام 1905 بإلغاء مشروع أوغندا، ويأس الشباب اليهودي بعد فشل الثورة في روسيا عام 1905، زيادة حدة الاضطرابات والتضييق على اليهود بدءا من كيشينيف، وتطور طرق النقل والمواصلات إلى فلسطين، وتشجيع زعماء ومنظرين الصهيونية لهجرة الشباب إلى فلسطين[148]. كما أن الذين قدموا في هذه الموجة كجماعات وأفراد من روسيا، رومانيا، بولندا، صربيا والقوقاز، وكانت المشكلات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والأيديولوجية في محور حياتهم[149]. وهذا العامل البارز كان له الأثر الهام على كيفية تطور مرحلة جديدة من الاستيطان في فلسطين.

بين الهجرة الأولى والثانية

تُولي مختلف الدراسات أهمية خاصة لموجة الهجرة الثانية، كونها حملت معها مكون أيديولوجي مختلف عما حملته الهجرة الأولى تمثل بالأفكار الاشتراكية، وميول المهاجرين لممارسة العمل الإحلالي. وكما يؤكد كيمرلينغ فقد كانت عملية بناء المجتمع الاستيطاني في بدايته قد حصلت بدون أهداف سياسية محددة[150]، وهذا ما تميزت به موجة الهجرة الثانية. أما عبر قراءتي فإني لا أولي أولوية للتمييز بين الموجة الأولى والثانية عبر تقدير وقياس الأهداف السياسية المتبلورة حينذاك، بل أقف عند المكون الأساسي للاستيطان، وهو البقاء، والذي أُعيد إنتاجه في كل مرحلة وفق المصالح والحاجات الاستيطانية. بالتالي فإن الحقبة الأولى للاستيطان كانت

---

[145] عناد السرحي. **الكيبوتس منذ النشأة –استمرارية أم تغيير 1881_2007**. رام الله: مدار، المركز الفلسطيني للدراسات الاسرائيلية، 2008، ص19.

[146] Anita shapira.1992,p63.

[147] افرايم ومناحيم تلمي. مصدر سبق ذكره، ص331.

[148] جوني منصور. **معجم الأعلام والمصطلحات الصهيونية والاسرائيلية**، رام الله: مدار، 2009، ص488.

[149] حاني زيو ويوأف جلبر. أبناء برج القوس–مئة عام نضال، خمسون عام لجيش الدفاع، (بالعبرية)، ص26.

[150] المصدر السابق ، ص111.

بهدف البقاء، والثانية كذلك، وما بلورة الممارسة الإقصائية والخطاب السياسي الصهيوني إلا عاملا طارئا على البقاء بهدف إعادة إنتاجه لتحقيق المشروع القومي الاستيطاني.

جاءت هذه الهجرة لتجد قاعدة تأسيسية سبقتها، وبنية تنطلق منها نحو المزيد من الاستيطان. إن تتبع مسار العلاقة بين المستوطنين والسكان المحليين خلال موجة الهجرة الأولى والثانية، يفيد بأن موجة الهجرة الأولى حملت معها نمط استيطاني قوامه الحفاظ على الوجود واستغلال اليد العاملة المحلية، وكانت أدواتها لذلك عبر علاقات العمل. أما موجة الهجرة الثانية، فهي استكملت مسار الاستيطان كما في الموجة الأولى لكن بالاتجاه الذي توظف فيه علاقات العمل كأداة نفي وإقصاء. لذى سأحاول قراءة نظام العلاقات القائم بين المستوطنين والسكان المحليين في فترة الهجرة الأولى والثانية، من خلال مؤشرات العنف الاستيطاني، والذي أرى بأنه وجد بالتوازي مع حاجة البقاء. وللتوضيح فإنني أعني بالعنف[151]؛ بأنه ممارسة الإكراه بدءا من فرض سلطة استيطانية على السكان المحليين، عبر النفي وعلاقات القوة، وصولاً إلى الإقصاء الفعلي. وبمجرد طرد الفلاحين العرب من الأراضي التي استملكها المهاجرون اليهود بداية موجة الهجرة الأولى، ومن ثم بلورة علاقة عمل في تشغيلهم كيد عاملة رخيصة، وصولاً لمعاودة إقصائهم من جديد تحت شعار احتلال العمل، كل ذلك يشير إلى أن العنف كان مرتبط سوياً بالبقاء الاستيطاني من جهة، وبعلاقة المستوطنين بالسكان المحليين من جهة أخرى. و لم يكن تأطير ممارسة العنف، وتشييد البنى المؤسساتية الكفيلة بنشر خطاب العنف وتطبيقه في احتلال العمل والحراسة في الهجرة الثانية، إلا عملية تعبر عن تحول الوعي الاستيطاني نحو ضرورات السيطرة والإقصاء لتحقيق السيادة الاستيطانية، أي لحظة إظهار مكنونات الرغبة الاستيطانية. إن حبكة التحول في العلاقة تكمن في بدء ممارسة السيادة الاستيطانية، والتي يجب فهمها كونها بنية تراكمية بدأت منذ فجر الاستيطان، وتحققت بممارسة الإقصاء.

كثيراً ما ورد في الأدبيات الصهيونية أو حتى الأكاديمية التأريخية "ما بعد صهيونية" استخدام مفهوم الرومانسية، بالإشارة إلى الحقبة الأولى من الهجرات اليهودية إلى فلسطين قبل تشييد المؤسسات الصهيونية السيادية. وعنى المفهوم بوصف النظرة السائدة لدى اليهود نحو الأرض والعلاقة بسكانها، بمعنى وجود رؤية تاريخية تدعي أن العلاقة بالفلسطينيين كانت تتجه نحو الاتصال، وأن الصهيونية عندما تمكنت من فرض سلطتها اتجهت العلاقة نحو الانفصال. مثل هذا الادعاء له مبرراته، خاصة ما نلمسه في مداخلة غيل إيال حول ماهية العلاقة المرتبطة بالخطاب المعرفي السائد في المراحل المبكرة للهجرة اليهودية إلى فلسطين، والذي يعكس وجود أواصر اتصال

[151] انظر نقاش فرانز فانون حول مفهوم ومكانة العنف في الحالة الاستعمارية: فرانز فانون. **معذبو الأرض**. ترجمة معتز أبو قاسم، الأردن: الأهلية، 2015.

بين المجتمع الاستيطاني والمحلي[152]، ودليله على ذلك بـــأن التحول الحاصل في الخطاب الاستشراقي بعد تمكن الحركة الصهيونية دفعه باتجاهه الانعزال من ناحية العرب بعد أن كان في مسار مختلف. ويضيف ناقداً الأدبيات لتجاوز دور الوجهاء في حينه، باعتبارهم حلقة وصل اجتماعية ذات دور بارز تدل على نمط من العلاقة قوامه الاتصال بين المستوطنين والسكان المحليين. في المقابل كانت مداخلة كيمرلينغ وشافير تشير بشـــكل مـــوازي لحدوث تحول في العلاقة من الاتصال إلى الانفصال بسبب "الصراع" على سوق العمل والأرض، وهو ما تزامن مع الهجرة الصهيونية الثانية. كلا الادعاءان استخدما مفهوم الرومانسية والاتصال، وهو ما لا أحمله حملةً ولا أسقطه حملةً، لكنني أضع أمام ذلك مقاربتي القائمة على فهم بنية الاستعمار الاستيطاني المقترنة بالعنف والبقاء من خلال مؤشرات ودلائل سأستعرضها الآن.

وفق رواية شابيرا[153]، تشير بأنه كان هناك مؤشرات واضحة لوجود حالة من تقاطع المصالح لدى كل مـــن السكان المحليين والمهاجرين اليهود في المراحل الأولى من الاستيطان، خاصة في ظل الحكم العثماني، حيث إن عمل الفلاحين في المستوطنات –كما تؤكد– كان تعبيراً عن منفعة متبادلة قوامها تحقيق الكفاية الاقتصـــادية. ومن الواضح بأن السكان المحليين في المناطق والقرى المجاورة للمستوطنات الأولى تعاملوا مع المهاجرين اليهود باعتبارهم أقلية وجالية مهاجرة. لكن السؤال هل أن هذا التقاطع المنفعي يفسر على أنه واقع يدل على أواصر الاتصال بين مجتمع استيطاني في طور التكوين، ومجتمع محلي يعيش وفق معطيات بيئته وحاجاته الاقتصـــادية والاجتماعية والسياسية؟ في مقابل ذلك أقدم بعض المؤشرات التي توضح وجود اضطراب في العلاقـــة منـــذ المراحل الأولى للاستيطان.

حسب ما يؤكده كيمرلينغ بأن موجة الهجرة الثانية جلبت معها نزعة تقديس القوة، سواء كـــان ذلـــك إزاء الداخل أو إزاء المحيط العربي[154]. لكن لا يعني ذلك عدم وجود مثل هذه النزعات أو جذور لهـــا في المجتمـــع الاستيطان السابق للهجرة الثانية، حيث تشير شابيرا إلى وجود نمط من الأحكام القيمية من قبل المســـتوطنين الأوائل تجاه العرب، تعكس العداء والنظرة الدونية، خاصة مع توثيق بعض وقائع الاعتـــداء بحـــق العمـــال العرب[155]، والتي قد تبدو كمحاولة لموازاتهم بالعبيد أسوة بتجربة الاستيطان الأوروبي. لكن هذه الوقـــائع لم تشكل نمطا ثابتاً ونهجاً متبعاً، فقد مثلت شهادات بعض الفلاحين في مستوطنة بيتاح تكفا في العام 1886 بعد احتجاجهم على التعجرف وسوء المعاملة بحقهم مؤشر على وجود مثل تلك النزعة، في المقابل نجد أن مجلـــس

---

[152] انظر في مراجعة الأدبيات وتحت عنوان "الرومانسية: عقدة الاتصال والانفصال" ناقشنا في هذا المحور ادعاء الرومانسية وكيفية استخدامها من قبل الأدبيات العبرية التي تناولناها في الدراسة.

[153] Anita shapira.1992.

[154] باروخ كيمرلينغ. مصدر سبق ذكره، ص116.

[155] Anita shapira. 1992,p58-57.

مستوطنة رحوفوت قد أقر بمنع ضرب أي عامل عربي، بل وكان يحقق في الشكاوى التي تأتي على خلفيات الاعتداء[156]. لكن مثل هذه الأحداث كما تؤكد شابيرا كانت غير محددة بجانب المستوطنين فقط، فقد حصلت أحداث أخرى تشير إلى وجود وقائع اعتداء سكان محليين على مستوطنين. بالإضافة إلى ذلك يوضح يعقوب جولدشتين بأن ومع وجود المستوطنات الأولى كانت هناك فوارق أساسية مثل الثقافة واللغة والعقلية، بين المستوطنين وجيرانهم من السكان المحليين، وبسبب ذلك قامت الكثير من المواجهات والشجارات كانت غالبها بسبب الرعي[157]، حيث اعتاد السكان المحليين بأن ترعى مواشيهم في المناطق المفتوحة والمجاورة لأماكن سكنهم، وهذا لم يكن مقبولا من قبل المستوطنين اللذين تملكوا هذه الأراضي، وبناء على ذلك كانت تحدث الكثير من المناوشات والشجارات.

يوضح كتاب "السلام على الحراب" بالعبرية –قصة المستعرب حيمكا لبكوك– طبيعة هذه العلاقة الملتبسة، ويشير إلى أن المشاجرات والنزاعات كانت قائمة بداية اليشوف بسبب الخصام على محاصيل الأراضي التابعة للمستوطنات، فقد كان موسم الحصاد هو موسم يشهد الكثير من النزاعات ليس فقط على ثمار الأرض، بل أيضاً على ملكيتها. فقد كان من السائد محلياً أن العمل في الأراضي المتروكة لمدة خمسة عشر عام يعطي الحق لأصحاب العمل بالانتفاع وامتلاك الأرض، خاصة أن الكثير من الأراضي مطلع العام 1900 التي اشتراها البارون روتشيلد لم تشيد عليها مستوطنات، أو يتم زراعتها من قبل المستوطنين، وهذا كان غير مقبول من قبل المستوطنين، مما تسبب في مثل هذه المشاجرات[158]. ويضيف أيضاً الكتاب وصف دقيق لمسار العلاقة مع السكان المحليين مفاده بأن "العلاقات مع العرب كانت خليطا من القرب والبعد"[159]. حيث وبالرغم من وقوع حالات عراك ومشاجرات إلا أن وقوع قتلى كان غير مستحب من الطرفين، وذلك خوفاً من تدخل السلطة الحاكمة واعتقال أحد الأطراف، ومن أن يتم دفع فدية أو كفارة عن الدم[160]. ويتناول الكاتب مفهومان سائدان في حينه الأول هو مصطلح "الفزعة" وهو تعبير فلسطين محكي يشير إلى تجمهر مجموعة أو عائلة أو قرية في عراك في مواجهة آخرون. ويفسر الكاتب هذا المصطلح كنداء ووصف لحالة استخدمها أيضاً المستوطنين حتى يتجمهروا وقت المشاجرات مع الفلسطينيين، حيث أفرد لها عنوان خاص سرد فيه بعض المشاجرات التي

---

[156] المصدر السابق، ص58.

[157] יעקב גולדשטיין. בדרך אלהיעד- ברגיורא והשומר1935-1907, משרדה ביטחון,1994,ד8. يعقوب جولدشتين. الطريق إلى الهدف- بارغيورا وهشومير 1907-1935.

[158] روزيال مماط. مصدر سبق ذكره (بالعبرية)، ص41.

[159] المصدر السابق، ص43.

[160] المصدر السابق، ص42.

حدثت[161]. المصطلح الثاني هو "الفدية" والذي يشير إلى وجود رادع بعد وقوع المشاجرات خوفاً من سقوط قتلى والمتمثل بدفع الفدية أو كفارة الدم، وهو تقليد محلي سائد في حل الخلافات التي ينتج عنها وجود ضحايا.

إن تضمن التجربة الاستيطانية وثقافة المستوطنين على استعارات من الثقافة المحلية حسب ما أوردت سابقاً، وعلى تجارب صراع ومواجهة، وعلى تقاطع بعض المصالح الاقتصادية القائمة على المنفعة، لا ينفي بأن هذه العلاقة مثلت ثنائية المستوطن/الأصلاني وكانت لذلك ملتبسة ومضطربة منذ البداية. وهي علاقة محدودة بحكم المجاورة، خاصة أنها تركزت في المناطق التي شُيدت فيها المستوطنات. لذا لا يمكن وصف هذه الفترة أو العلاقة بأنها ثابتة وذات صفات تشير لحالة الاتصال أو الاستقرار، بل هي علاقة قائمة على الصراع والاستكشاف، وعلى المنفعة أيضاً، خاصةً أن المواجهة الأولى بين المستوطنين المهاجرين الأوائل والسكان المحليين لم تكن عبارة عن غزو، بل كانت أشبه استعمارياً بنمط الاستكشاف. لكن الأهم هو الأخذ بعين الاعتبار أن البقاء الاستيطاني كان قد تبلور في كنف سلطة حاكمة تفرض شروط وجودها على الطرفين، وهي سلطة الحكم العثمانية.

إذاً، نحن أمام رواية أو روايات بأكثر من وجه، سواء صهيونية أو أكاديمية "ما بعد صهيونية"، ولغرض مناقشة ادعاء الاتصال كحالة ارتبطت بموجة الهجرة الأولى، والانفصال كتجربة تحققت مع موجة الهجرة الثانية، فإن الأكاديما الاسرائيلية توافقت على وصف تحول الممارسة الاستيطانية نحو الفصل بعد بداية الهجرة الثانية، وهو ما أضيف إليه قراءة الهجرة الثانية كخطوة تبعة سابقتها القائمة على البقاء الاستيطاني، لذى لم يكن أبداً هدف الاستيطان هو الاندماج في المجتمع المحلي، خاصة أن حالات المواجهة بين السكان المحليين والمستوطنين كانت سمة موجودة في العلاقة الناشئة منذ بداية موجات الهجرة.

النتيجة من النقاش السابق، أن موجة الهجرة الأولى وإن تضمنت مؤشرات متباينة حول طبيعة العلاقة مع السكان المحليين، سواء الاستقرار ضمن المنفعة الاقتصادية المتبادلة، أو حالات التمثيل والمحاكاة المحدودة، أو من جهة أخرى تجارب الصراع والمواجهات والتنافر، إنما تشير إلى كونها حصلت ضمن تجربة الاحتكاك والوجود الاستيطاني بالسكان المحليين، وهذا الوجود اشترط صياغة عامل البقاء بما يتناسب مع المصلحة الاستيطانية. لكن موجة الهجرة الثانية صاغة تصورات خطابها حول السكان المحليين عبر ممارسة الإقصاء التي سأتناولها عبر قراءة سياسات احتلال العمل والحراسة. لقد مثلت موجتا الهجرة الأولى والثانية مسار لتطور بنية الاستيطان، والمتحول في هذا المسار هو اقتران العلاقة مع السكان المحليين بنمط الاستيطان والعنف، خاصة أن محاكاة

[161] المصدر السابق، ص41-45.

وتمثيل العرب قد تأطرت في موجة الهجرة الثانية تحت تجربة الاستعراب الصهيوني، ومن أجل فرض القوة على الأرض. إذاً، هي ليست حالة أو سياق للاتصال، والتي تحولت إلى الانفصال، بل إن الاستيطان في فلسطين ممارسة تراكمية مستمرة، بدأت من مرحلة جنينية، ووصلت إلى سيادة استيطانية قومية عبر العنف.

الحراسة، التاريخ، صناعة الحدود والثنائيات الاستعمارية

لم تكن ظاهرة الحراسة قد بدأت مع وصول موجة الهجرة الثانية، واقرانها فقط بممارسة سياسات الإقصاء في احتلال العمل والحراسة يعبر عن اجتزاء تاريخي. فقد بدأت الحراسة كظاهرة مع بناء المستوطنات الأولى، والتي عبرت عن أحد ضرورات البقاء التي بلورها المستوطنون. فمع حاجة الأرض، وحاجة البقاء فيها، وسلوك نمط الإنتاج الزراعي، كانت الحراسة عاملاً أخر يُضاف لعامل البقاء الاستيطاني.

كان هناك تصورا منذ بداية تأسيس الاستيطان في فلسطين لضرورة وجود الحراسة. "عقيبا يوسف شلزينجر" والذي وصل من هنجاريا إلى فلسطين في العام 1870 ويعتبر من أوائل مؤسسي بيتاح تكفا، كان قد عاش في بداية وجوده في القدس، وأنشأ هناك مجموعة "استعادة المجد القديم" والتي هدفت لإعادة اليهود للعمل في الأرض والحديث باللغة العبرية، بالإضافة لذلك كان قد نشر كتيبات فيها رؤيته للاستيطان، والتي تناول فيها ضرورة وجود جنود للدفاع وحماية المستوطنة، يعرفون كيفية حيازة واستخدام الأسلحة، كما وضح كم يكون عدد الحراس بالنسبة للمستوطنين، وتقسيمهم بين مشاه وخيالة[162]، وفي البداية أطلق عليهم اسم "شومر يائيل" ولاحقاً "لوحيم يائيل"[163].

تعود بداية قصة الحراسة مع إنشاء مستوطنة بيتاح تكفا كأول مستوطنة زراعية من العام 1878، والتي لقبت إثر ذلك بـ"أم المستوطنات"[164]. ومع تشييد المستوطنة بدأت بالفعل ممارسة الحراسة، لذى سميت أيضاً بـ "أم الحراسة"، وكان "يهودا بن اليعيزر راب" هو أول الحراس و"المدافعين" عن المستوطنة، وكان يتقن الرماية وركوب الخيل[165]. ومنذ تأسيس بيتاح تكفا بات منزله كمركز للحراسة والأمن في المستوطنة، وتحت إشرافه في الحراسة خدم "بن ميمون" من يافا، و"داود أبو يوسف" من بدو الصحراء، وكان من المتواجدين في

---

[162] يعقوب جولدشتين. مصدر سبق ذكره (بالعبرية)، ص7.

[163] שומריאל – לוחמיאל: شومر يائيل – لوحيميائيل، كلمتان مركبتان، الأولى شومر وتعني الحارس، ولوحيم تعني المقاتل.

[164] ימים ראשונים באם המושבות، בעקבות אתרי ראשונים בפתח-תקווה. משרד החינוך:
http://meyda.education.gov.il/files/noar/petachtikva.pdf (استخدم بتاريخ،11.2.2018). الأيام الأولى في أم المستعمرات.

[165] "אם השמירה":
http://www.rishonim.org.il/petach-tikva/Info/hi_show.aspx?id=17200(استخدم بتاريخ،11.2.2018). أم الحراسة.

بيته "الكسندر حداد، ومندل كوبيلمان" وهم حراس لاحقين أيضاً، كما كان من زواره فتى لم يتجاوز الثانية عشر من عمره، والذي أصبح لاحقاً أبرز وأشهر الحراس في الييشوف وهو "إبراهيم شابيرا"[166].

وبحسب قراءتي للحراسة باعتبارها جزءا من بنية الاستيطان، فإنها بحد ذاتها كانت من المؤشرات الأولى على تبلور ثنائية المستوطن/الأصلاني، لكن ضمن صيغة عكسية ومقلوبة في الرواية الصهيونية، فالحارس هو مستوطن، وضمن دوره الوظيفي فإنه لا يقدم خدمة الحراسة كعمل مقابل أجر فقط، بل كضرورة وجودية تضمن بقاء المستوطن وأدائه لدوره في استمرار نمو الاستيطان الزراعي. في المقابل فإن الأصلاني هو "الخطر" الذي يسعى لنفي المستوطن وتهديد وجوده عبر زعزعة "استقراره" من خلال "المناوشات والسرقات وعمليات السطو". بالتالي فإن الحراسة منذ بداية الاستيطان، كان لها دور أساسي في صياغة الاستيطان الصهيوني بحكم ادعاء السيادة من جهة، وبلورة البقاء الاستيطاني عبر قلب الثنائية الاستعمارية من جهة أخرى، ليتحول المستوطن إلى أصلاني يسعى لحماية وجوده، عبر الاستعراب، والأصلاني إلى دخيل، يجب نفيه للحفاظ على البقاء الاستيطاني.

يقدم يعقوب جولدشتين في كتابه قراءة تاريخية لتبلور الحراسة في الييشوف القديم. والتي سأقوم باستعراضها كما أوردها، لأهمية التقسيم الذي تناوله في وصف مسار الحراسة منذ بداية الاستيطان، والتي من خلالها نستطيع أن ندرك تبلور الحراسة بحكم اقترانها بالبقاء الاستيطاني. وبالتوازي مع هذه الرواية سأستعرض رواية "يغال ألون" والتي تتقاطع مع رواية جولدشتين لكنها تركز في كيفية صياغة صورة ومكانة السكان المحليين، حيث تعرض رواية ألون الحراسة كجزء من تاريخ العسكرة في الييشوف، والتي كانت رداً على "همجية" وخطر السكان المحليين على المستوطنين.

يبدأ جولدشتين بوصف الوضع السائد الذي استدعى وجود الحراسة للمستوطنات الأولى، ويشير بأنه مع وصول المهاجرين الأوائل كانت هناك أزمة في وضع المستوطنات من ناحية "الأمن". من جوانب هذ الأزمة هو قلة عدد اليهود، الذي لم يرعَ اهتمام أمني من السلطات العثمانية، كما كانت القنصليات الأوروبية بعيدة عن تقديم أي عون، والاختلاف في ثقافة المستوطنين ولغتهم وعقليتهم عن السكان المحليين، إضافةً إلى المشاكل المستمرة التي تسببت بها ملكية اليهود لأراضي زرعها ورعى فيها السكان المحليين لسنوات طويلة، وهذا كان من دوافع ممارسة تشكيلات الحراسة الأولى[167].

كذلك يقدم ألون في سرده لتاريخ العسكرة في الييشوف مثالاً متطرفاً لكيفية رؤية السكان المحليين، والتي يبرر من خلالها حاجة الحراسة:

---

[166] المصدر السابق.

[167] يعقوب جولدشتين. مصدر سبق ذكره (بالعبرية)، ص8.

في مطلع 1880 عندما كانت البلاد تحت الحكم العثماني، وتعداد اليهود لم يتجاوز بضع عشرات الألاف، بدأت خلايا محلية بالتشكل للدفاع عن النفس ضد السرقات والسطو والقتل والاغتصاب[168]، هذه التشكيلات لم تكن ذات طابع سياسي، لكنها بشكل غير مباشر كان لها مضمون وعواقب سياسية. بات اليهود مدركين بأنهم لا يجب أن يعتمدوا في أمنهم على السلطات العثمانية، والأجدر الاعتماد على النفس أكثر لحماية حياتهم، وشرف نسائهم وممتلكاتهم، وخاصة حقهم في العيش في الأرض المقدسة.[169]

إذاً، يُثير جولدشتين ثلاثة محاور مهمة لفهم تبلور الحراسة: النسبة العديدة للمستوطنين، الاختلاف بينهم وبين السكان المحليين، وملكية الأراضي التي تسببت بالكثير من المناوشات مع السكان المحليين. أما ألون فإنه يشير أيضاً لتعداد اليهود، لكنه يولي الاهتمام الأكبر في تصوير السكان المحليين كخطر وجودي على المستوطنين، يصل لغاية المساس بالشرف والعرض. بالتالي فإننا نقرأ من ذلك أن تعداد المستوطنين كأقلية، وملكيتهم للأرض، ودور السكان المحليين "كدخلاء" يشكلون تهديدا وجوديا على بقاء الاستيطان، هي مبررات وجود الحراسة. وبالعودة إلى القراءة التاريخية لتبلور الحراسة، والتي تظهر مسار إنشاء الثنائيات عبر دور الحارس في الممارسة الاستيطانية، يقسم جولدشتين فترة الهجرة الأولى 1882- 1903 إلى ثلاث مراحل:

المرحلة "البطولية": التي كانت مع بداية تأسيس المستوطنات، وفيها تمكن المستوطنون من أن يبرهنوا لجيرانهم أنهم ثابتون عند حقهم. وهذا تضمن أولاً حماية الممتلكات والأرواح. خاصةً وأن المستوطنات كانت أجسام غريبة أمام السكان المحليين، الذين بدأوا بالضغط من أجل فحص قوتها وقدرتها. اعتمدت هذه المرحلة والعملية على حجم المستوطنة في المقام الأول، فالمستوطنات الكبيرة مثل بيتاح تكفا، وراشون ليتسيون، وزخرون يعقوب ورحوفوت، عبروا هذه المرحلة بسرعة، أما المستوطنات الصغيرة مثل الخضيرة فقد أخذها وقت أطول لعبور هذه المرحلة. وأظهر اليهود "شجاعة" وقدرة على حماية مستوطناتهم. وفي أعمال مماثلة للحماية جسدت مثالاً يحتذى به للآخرين، مثال ذلك سندر حداد من بيتاح تكفا، ويعقوب بن ميمون من يافا، من حراس بيتاح تكفا، ويوسف قسطل من الخليل من حراس مستوطنة الخضيرة، تحولوا لشخصيات فولكلورية دخلت حياة تاريخ البيشوف، ومنهم أيضاً، يهودا راب، ويسرائيل فيينبيرج، ويهوشاع حنكين.[170]

المرحلة الثانية: مرحلة الوصاية، وهي المرحلة التي دخلت فيها المستوطنات تحت وصاية البارون روتشيلد، والإدارة التي عينت لم تعتمد على جهد المستوطنين الذاتي في بعض المجالات، كذلك في موضوع الأمن، فتم صياغة الحراسة بصورة أخرى، منها العلاقة مع السلطات التركية بحكم استخدام اسم البارون والقنصليات الأوروبية، كذلك في تقديم الرشاوى والأموال والتي عبرت عن رغبة البارون في وجود حالة سلام واستقرار – من أجل إنجاز المهمة الانتاجية للمستوطنات– مع المحيط المحلي، لكن ذلك لم يمنع الهجمات وحالات السرقة. ضمن هذه السياسة تم الاعتماد على حراس غير يهود، ومتعهدي حراسة يهود استعانوا بحراس بدو وعرب وشركس، كما فعل إبراهيم شابيرا في بيتاح تكفا. نموذج على ذلك في عام 1891 تم عقد اتفاق بين مستوطنة

---

[168] لم أجد مثل هذا الادعاء بما يخص "الاغتصاب" في أي من الأدبيات المستخدمة في الدراسة، كما أن الكاتب ألون لم يقدم أي توثيق مرجعي يحيل لوجود توثيق لحادثة أو أحداث مماثلة. يندرج هذا الخطاب –كما تناولت في مراجعة الأدبيات – تحت الخطاب الصهيوني في تأريخ وصناعة رواية صهيونية تبرر الوجود وممارسة العنف.

[169] Yigal Allon. The Making Of Israel's Army, New York: Universe Books , 1970, 16.

[170] نفس المصدر السابق، ص8.

بيتاح تكفا التابعة لإدارة البارون وبين أحد شيوخ العرب في الجوار، الشيخ أبو رباح، والذي كانت لديه مشاكل كثيرة مع المستوطنة، فتم التوصل لتفاهم بأن يتولى الشيخ حراسة المستوطنة مقابل أجر سنوي محدد، وحينها ظهرت مسألة أخرى من حيث استحواذ الشيخ على أغراض وعربة وأخشاب وأدوات عمل كان قد طلبهم دون إرجاعهم. كما مارس بعض الحراس بذاتهم أعمال سرقة أو إهانة بحق المستوطنين وصلت لإلحاق الأذى أحياناً.[171]

المرحلة الثالثة: أزمة تراجع وصاية البارون عن المستوطنات منذ العام 1900 وحتى موجة الهجرة الثانية، حيث انتقلت معظم حراسة المستوطنات ليد الحراس العرب والبدو والشركس. وتصاعدت الخلافات بين الحراس ذاتهم وصلت أحياناً لمواجهات من أجل الاستحواذ على الحراسة، ازدادت في تلك الفترة السرقات والخوف من تغيير الحراسة، أو حتى زراعة الأراضي البعيدة عن مقر المستوطنات. لكن لم تغِب تماماً نزعة "الدفاع الذاتي" والمواجهة لدى بعض المستوطنين.[172]

إن تقسيم ظهور الحراسة وقت الهجرة الأولى، كما عرضه جولدشتين يضعنا أمامنا قراءة تتضمن حاجة البقاء بالتوازي مع الحراسة كضرورة. وعبر هذه القراءة أستدل على كيفية ممارسة الحارس لدور الحد الذي يُبقي الحيز الاستيطاني فاعل ومنتج، ومع تراجع فاعلية الاستيطان بتراجع دور دعم البارون، ودخوله في مرحلة جمود، ترتب على ذلك لزاماً تراجع دور الحارس. وما تسليم الحراسة للعرب والبدو والشركس، إلا تعبيراً عن مرحلة عجز وتراجع فاعلية الاستيطان.

إن غالب الأدبيات الصهيونية، تسعى لتوحيد الفترة التاريخية لتبلور الحراسة بوصفها بداية غير موفقة، ونتج عنها ضعف اليشوف، خاصة أنها لم تؤدي دورها كما يفترض به أن يكون. هذه الروايات تميل لتأريخ الرواية من حيث عرض مسار الاستكانة التاريخي في اليشوف أمام هجمات وعمليات السرقة من الجيران العرب، ثم عرض بداية النهوض من حيث تنظيم الحراسة وقت الهجرة الثانية مع احتلال العمل وتبلور مفهوم "الدفاع الذاتي". يصف "شاؤول دجان" أزمة بدايات الاستيطان مشيراً إلى أنه:

في وقت مبكر من عام 1882، عندما تم تأسيس المستعمرات الأولى كما بتاح تكفا، روش بينا، ريشون لتسيون وزخرون يعقوب، عانى المزارعون اليهود في المستوطنات من هجمات شديدة ومضايقات الفلاحين والبدو. ولم يتحمل الفلاحون العبء الثقيل ليلا ونهارا. لم تنجح محاولتهم لإيداع الحراسة مع اليهود. عندما أودع البارون روتشيلد الحراسة بيد شيوخ البدو، كان يعتقد بأنه سيتخلص من مشكلة الأمن، لكنه أخطأ خطأ فادح[173].

---

[171] نفس المصدر السابق،ص9.

[172] نفس المصدر السابق،9-10.

[173] שאול דגן. "המוסקובים" בארץ הגליל: "בר – גיורא" ו"השומר" 1907 – 1920، ראשונים בארץ ישראל. https://shauldagan.wordpress.com/(استخدم بتاريخ، 20.1.2018). شاؤول دجان. الموسكيون في أرض الجليل: بارغيوراوهشومير 1907-1920.

عبر هذا الخطاب يعترف دجان بالحراسة مع تأسيسها كمنظمات مقاتلة بعد موجة الهجرة الثانية، وهذه الرواية تعبر عن إنكار السياق التاريخي لتبلور الحراسة، بحكم أنها لم تحقق مفهوم الأمن بالمعنى الصهيوني القائم بعد احتلال العمل والحراسة في موجة الهجرة الثانية. من العرض السابق، تكون الحراسة بشكل أساسي قد ظهرت لا فقط لتبرز مفهوم حدود المستوطنة، بل أيضاً فاعلية هذه الحدود. وإذا كانت الرواية الرسمية تشير إلى أن بداية الحراسة جاءت بحكم ضرورات الدفاع عن الممتلكات والأرواح، فإن مضمون الحراسة يعكس وجود حيز استيطاني محدد، مقابل محيط مختلف يشكل تهديد وعدم استقرار للمستوطنة. بمعنى أن دور الحارس ليس فقط ترسيم لحدود المستوطنة، بل إبراز فاعلية هذه الحدود على البقاء.

وحسب الروايات التي وردت حول الحراس الأوائل لمستوطنة بيتاح تكفا[174]، يظهر حجم الدور المنوط بالحراس منذ البداية، والذي يعكس من زاوية معرفة الحراس بالمحيط العربي كضرورة للتمييز، وأهمية دورهم بالنسبة لحياة المستوطنة والمستوطنين. كما أن روايات المناوشات أو التسويات التي كانت تقع إثر المشاجرات أو السرقات عكست اهتمام الحراس الأوائل وقيادة المستوطنة بإبراز دور الحارس كجزء رئيسي ومركزي من مشهد المستوطنة العام. فيكون الحراس بالتالي هم مستوطنون رأوا الاستيطان لا فقط عبر العمل البدني والزراعة، بل من خلال أيضاً إبراز فاعلية الحدود على البقاء كأساس للفصل بين المستوطن والأصلاني، عبر إظهار القوة وقابلية استخدامها.

بالمجمل، فإن تبلور الحراسة كان مقترن بتبلور الاستيطان من حيث دوره وضروراته، كما انعكس تطور وتذبذب مسار الاستيطان بالضرورة على مسار وتطور الحراسة، حيث سيتضح ذلك مع ظهور حركة العمل في موجة الهجرة الثانية، وكيفية إعادة تشكل الحراسة بالنسبة لنمط الاستيطان وأهدافه ضمن مسار متصل بين بداية الاستيطان وتطوره.

الحراسة والاستعراب الصهيوني

إن الاستعراب كما يُعرف لغة بأنه الدخول في حياة العرب عبر تبني وتقليد اللغة والثقافة المحلية السائدة[175]، بمعنى أن من يستعرب هو غير العربي الذي يجعل نفسه من العرب. أما الاستعراب الصهيوني فهو استعراب من أجل تحقيق هدف الاستيطان الصهيوني في فلسطين؛ أي أنه نمط من الاستعراب قائم على بنية الاستعمار

---

[174] "אם השמירה": http://www.rishonim.org.il/petach-tikva/Info/hi_show.aspx?id=17200 (استخدم بتاريخ 11.2.2018)، أم الحراسة.

[175] انظر في تعريف المستعربين ضمن مقدمة الدراسة في الفصل الأول، تحت عنوان (كلمات مفتاحية)، ص5.

الاستيطاني من أجل السيطرة/الإقصاء. والمستعرب الصهيوني هو مستعمِر يقوم بتمثيل الأصلاني من أجل إقصاءه والسيطرة عليه. إن منطق التمثيل في هذا السياق له أهمية بالغة في الكشف عن بنية الاستيطان الصهيوني من حيث نزعته الاستشراقية، والتي تعبر عنها حركة الاستعراب والحراسة كمحاولة لرسم صورة متخيلة عن السكان المحليين، وبالتالي بناء ممارسة تستند لمخزون من التصورات يدفع باتجاه تبرير العنف[176]. بالإضافة لأنها تكشف عن موقعية تسعى للفصل عبر التمثيل، حيث سأبين في النقاش ومن خلال شواهد تاريخية على بداية الاستعراب الصهيوني وكيفية توظيفه من أجل ترسيخ الحدود ضمن فاعلية "الإظهار والإخفاء"[177]، بمعنى القدرة على الظهور بمظهر العربي من أجل تثبيت فاعلية الحدود عبر الحراسة، وإخفاء الرغبة في الاختراق والسيطرة والإقصاء، وفق الامكانيات والظروف في حينه.

لكن ما هي العلاقة بين الحراسة والاستعراب الصهيوني؟ أولاً، يجب الإشارة إلى مفهوم التمثيل، حيث يشكل العنصر الأبرز في الاستعراب، والشرط الأنسب لنجاح الحراسة، كما سأوضح. إن التمثيل في هذا السياق يشير إلى قدرة المستوطن – الحارس على الاستعراب، فكلما زادت هذه القدرة، كلما نجحت المهمة. ومن خلال التتبع التاريخي، والرجوع إلى بداية الاستيطان الصهيوني في فلسطين، خاصة ما ترتب على هذا الوجود من عوامل ساعدت في بقاءه، كانت الحراسة هي الإطار الذي تشكلت ضمنه ظاهرة الاستعراب الصهيوني. وفي هذا السياق أسعى لتأكيد نتيجة واحدة: إن فهم الاستعراب الصهيوني يتم عبر فهم مسار الاستيطان وتحولاته في فلسطين، باعتباره مسار متصل. وباعتبار الحراسة جزء مركزي للتعبير عن حاجة البقاء الاستيطانية، فإن الاستعراب الصهيوني هو أيضاً تأكيداً على ذلك. إن الاستيطان هو نتيجة للهجرات اليهودية المحملة بدافع البقاء، والحراسة نتيجة للاستيطان القائم على الفصل بين المستوطن والأصلاني، والاستعراب الصهيوني نتيجة للحراسة وضروراتها الاستيطانية المدفوعة بعقدة الأصلنة من جهة ومساعي الإقصاء من جهة أخرى.

كنت قد ذكرت سابقاً بأنه قد تخلل المجتمع الاستيطاني بعض مظاهر التقليد والمحاكاة لثقافة وتقاليد السكان المحليين السائدة في حينه[178]، وكما يؤكد غيل إيال:

> **وقد ذكر زوار المستعمرات اليهودية في نهاية القرن التاسع عشر، أن العديد من سكان المستعمرات تعلموا عادات جيرانهم، وعند تواجدهم مع العرب، بالعباءات على أكتافهم، والكوفيات على رؤوسهم، والبنادق**

---

[176] سيتم تناول منطق الاسشراق كأحد مكونات الاستعراب الصهيوني بشكل أكثر عمقاً في الفصل الرابع، حيث أن استخدام الاسشتراق كأداة تفسيرية هو من مكونات ادعاء الدراسة. انظر: إدواردسعيد، الاستشراق: **المعرفة.السلطة.الإنشاء**، ترجمة: كمال أبو ديب، بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية. ط4، (1995).

[177] استخدم سعيد مفهوم التمثيل الاستشراقي، وعبر ذلك تناول فكرة الإظهار والإخفاء، والتي استخدمها أيضاً لوصف ظاهر وباطن الاستعراب الصهيوني في بدايته. انظر: سعيد، نفس المصدر السابق، ص92.

[178] انظر: في الفصل الثاني، النقاش حول الصهيونية وصناعة الآنا مقابل الآخر، ص37.

على ظهورهم، وتحتهم خيول مسرعة، يستحيل التعرف عليهم كيهود، ولأنهم يتكلمون العربية أيضاً، كعرب حقيقين. كما أنهم يجيدون طريقة التعامل مع البدو حسب عاداتهم وتقاليدهم[179].

في توصيف إيال أسلط الضوء في التركيز على مسألتين في بالغ الأهمية: التكلم والظهور مثل العرب، من أجل الظهور "كعرب حقيقين"، واستخدام ذلك من أجل إجادة التعامل مع البدو حسب عاداتهم. فوجود تصور لدى المستوطنين عن صورة العربي التي تنحصر في نمط البداوة، يحيلنا إلى مداخلة سعيد في الاستشراق والتي تناول فيها بدقة مغزى الاستشراق القائم على السيطرة والإنشاء[180]. من جهة ثانية فإن التمثيل والمحاكاة اتجه للتعرف ولضبط العلاقة مع البيئة المحلية حسب حاجة الاستيطان في حينه، وهذا يتضح في استخدام الحراسة للاستعراب بحكم أنها أكثر احتكاكاً بالمحيط المحلي، كما سأوضح.

وبالإضافة لتأثر فتية المستوطنات بثقافة السكان المحليين، والتي رغبوا أحياناً في تقليدها، أورد "عاموس بلوفيشتين" بعض الشواهد لوجود شخصيات بارزة فترة إدارة البارون روتشيلد للاستيطان، كانت تقوم بالاستعراب أمثال "مناحم فزيم" و"زلمان كوهن"[181]. يشير بلوفيشتين أيضاً إلى أن الاستعراب كان في الييشوف القديم، وقت الهجرة الأولى والثانية، حيث ارتدى بعض اليهود اللباس العربي من أجل التودد والتقرب للعرب، وبعد ذلك تم استخدام الاستعراب من أجل جمع المعلومات والحراسة[182]. فمثلاً يقدم بلوفيشتين المستعرب حيمكا لبكوك قائلاً: "كان وهو طفل يهتم بشغف بوجود المستعربين الأوائل، وكان دائماً يحلم بأن يكون شيخ بدوي، وعندما كبر أصبح مستعربا ناجحا، حيث كان من أوائل من سافروا إلى سوريا. إن من ترعرعوا قرب العرب وتجولوا كثيراً بينهم، كانوا بعد ذلك من أفضل المستعربين"[183]. إن هذا التوصيف مهم من ناحية توضيح إطار الاستعراب الصهيوني، فالاستفادة من مجاورة السكان المحليين، مكنت الحراس المستعربين من اقتحام هادئ للوسط المحلي، والتطبع به، من أجل غايات الحراسة المرتبطة بحاجات الاستيطان.

وفي محاولة لفهم ماهية نمط الاستعراب الصهيوني السائد في الحراسة، ومبرراته، ومساره المتصل ضمن فترة الهجرة الأولى والثانية، سأورد بعض الروايات التي وصفت الحراس الأوائل في مستوطنة بيتاح تكفا، وكيفية استعرابهم، بالإضافة لرواية حول الحراس المستعربين الذين ظهروا فترة الهجرة الثانية. وأبدأ بالروايات حول حراس بيتاح تكفا، داود أبو يوسف، يعقوب بن ميمون، وابراهيم شابيرا.

---

[179] غيل إيال. مصدر سبق ذكره، ص65.

[180] انظر: ادوارد سعيد. مصدر سبق ذكره، ص63-100.

[181] عاموس بلفوشتين. مصدر سبق ذكره (بالعبرية)، ص1.

[182] المصدر السابق.

[183] المصدر السابق، 2.

داود أبو يوسف كان يهوديا بدويا من الصحارى العربية، ظهر في المستوطنة في أحد الأيام عام 1879، وهو يركب على فرس أبيض نبيل مسلح بسيف ورمح. جاء إلى بيتاح تكفا بعد أن قام بالحج إلى القدس. وفي المدينة المقدسة سمع أن الفلاحين اليهود أقاموا مستعمرة في قرية ملبس العربية فأراد رؤية هذا. عندما وصل إلى بتاح تكفا، وجد الناس يرتدون ملابسا فرنجية (اللباس الأوروبي). لكن لم يكن هكذا قد تصور الرجل اليهودي في أرضه، لذلك اعتقد أنه تلقى معلومات مضللة. لحسن الحظ، التقى داود بيهوذا راب، الذي دعاه لشرب فنجان قهوة، وفي اليوم التالي جالسه، ولم يكن يعرف أنه يهودي، إلا عندما قال له داود : "أنا إسرائيل، أنا يهودي"، ثم وبصوت عالٍ قال "شماع يسرائيل"[184]. سأل يهودا راب داود إذا كان يريد أن يكون حارسا في المستوطنة، فوافق البدوي اليهودي، ابن الصحراء، على إعطائه سنة. في الواقع، استفاد سكان بيتاح تكفا من وجوده في وسطهم. وبشجاعته وخفة الحركة، أطاح أبو يوسف بجيرانه العرب، وكان مثالا يحتذى به لحراس القرية. لقد علمهم عادات العرب، وأن يتفوقوا في ركوب الخيل. كان لديه حجج مقنعة: "وصمة عار للرجل أن يحمل مسدس أو بندقية – إن المرأة يمكن أن تستخدم الأسلحة النارية بضرب العدو من بعيد – عمل جبان، والسلاح الناري قاتل، وفي الشرق الأوسط استخدامه يقود لحالات ثأثر على خلفية القتل، وليس من الجيد إيقاظ هذه النزعة لدى الجيران[185].

لقد كان أبو يوسف من المتميزين في الحراسة بحكم معرفته لركوب الخيل والرماية والمحيط العربي، وهذه ميزة أضافت للحراسة الكثير. هذه الرواية تعكس أمرين؛ تصور أبو يوسف لليهودي كيهودي ينتمي إلى ثقافة المنطقة التي نشأ فيها، واستغرابه من زي المستوطنين الغربي؛ الأمر الآخر هو اهتمام يهودا راب به كونه نموذج "أصيل" للحارس اليهودي، ومناسب تماماً لمهمة الحراسة. يشير ذلك إلى أن الحراسة وجدت في الاستعراب والظهور بالمظهر العربي، مدخلاً مهماً في إحداث فارق في دور الحارس، وهذا الفارق قام بالأساس على منطق التمثيل، حيث مثل أبو يوسف للمستوطنين المهاجرين النموذج الأفضل للتمثيل والذي يعكس أفضل نتائج للحراسة.

يعقوب بن ميمون، مثل داود أبو يوسف، كان على دراية جيدة بطرق حياة الجيران العرب وبلغتهم. ولد في يافا لعائلة هاجرت من المغرب، ومنذ شبابه كان قويا وشجاعا. خلال سنوات عديدة عبر إلى صحارى المنطقة، من مصر إلى سوريا، بسبب طبيعة مهنته في تجارة الخيول. قدم يعقوب نفسه كحارسل لمستوطنة، وفي الواقع، في هذا المنصب، جلب فائدة كبيرة للمستوطنة بفضل بطولته ومعرفة اللغة العربية وآدابها. لمدة عامين احتفظ يعقوب بن ميمون بدوره وبتوجيه الآخرين، ثم عاد إلى يافا.[186]

إن الأفضلية التي ميزت بن ميمون، هي ذاتها التي ميزت أبو يوسف –التمثيل–، فبحكم المعرفة بالمحيط العربي، واتقان اللغة، كان على الحارس الجيد، والذي لا ينتمي لأصول عربية، أن يتطبع ويستعرب بشكل متقن مثل ما فعله إبراهيم شابيرا.

---

[184] שמע ישראל: شماع يسرائيل، هي صلاة وترتيلة متعارفة في الديانة اليهودية.

[185] أم الحراسة. مصدر سبق ذكره (بالعبرية).

[186] نفس المصدر السابق.

الحارس الأكثر شهرة في وقته، إبراهيم شابيرا، هاجر مع والديه من روسيا في العام 1880، انضم والـــده إلى مستوطنة بيتاح تكفا بعد تأسيسها. منذ صغره كان ناشطاً في الدفاع عن المستوطنة من اللصوص، وشـــارك في كل مشاجرة اندلغت في حقول المستوطنة. تعلم أصول وقوانين الحراسة من الحارس سندر حداد، الذي قـــال له: إن من يخشى التعرض للضرب لا ينبغي أن يكون حارسا، وأنه يجب أن يعيد اللكمة بلكمة. كان شابا قويا، وشجاعا واشتهر اسمه بين العرب كحارس جاد. في عام 1890 عين رئيسا للحراس بعد استقالة رئيس الحرس، مندل كوبلمان. كان إبراهيم غير راض عن الدفاع والحماية السلبية ضد اللصوص، ولكنه نصب لهم الكمائن، ولاحقهم إلى قراهم لاسترجاع ما تم نهبه من المستوطنة، وزرع في قلوب العرب بأن المستوطنة جريئة وحازمة أيضاً. تحدث العربية بطلاقة وألم بطريقة حياة القرى العربية، بدورهم العرب اعجبوا وقدروا صدقه وذكـــاءه، وطلبوا منه أحياناً القضاء والحكم في خلافاتهم[187].

لقد تمييز شابيرا، وهو من أصول أوروبية، كونه يتقن العادات واللغة، وله صفات أشـــبه بشـــيوخ العـــرب، والعنصر الأهم هو أنه "حظي باحترام وتقدير السكان المحليين" بحكم قدرته على التمثيل والاستعراب، حسب الرواية الصهيونية. إن فكرة اعتراف السكان المحليين بالمستوطن كأصلاني حازت على اهتمام الحـــراس، مـــن زاوية تسهيل مهمة الحراسة، بالإضافة لاعتبارها طمأنة للهوية الاستيطانية عبر ربطها بالأرض وثقافة البيئـــة المحلية. مقابل هذه الرواية عن حراس المستوطنات الأوائل، هناك مؤشر آخر تناوله دجان في وصـــف ســـياق استعراب حراس الهجرة الثانية، ويقول:

في البداية كان من الممكن تمييز هؤلاء الشباب وفقا للباسهم: كانوا يرتدون القبعات التي كانت معروفـــة في بلدهم روسيا، بالإضافة للقمصان والأحذية السائدة في روسيا. كان لباسهم يشبه لباس الشـــركس، الـــذين جاءوا من القوقاز واستقروا هنا من قبل السلطات العثمانية. وقد أثبت الشركس القليلون أنهم مقاتلون مهرة وشجاعون. عندما وصل هؤلاء المهاجرون، وظهروا بمظهر جديد يشبه الشركس، عمت شائعات بين السكان المحليين بأنهم قدموا من روسيا، أطلقوا عليهم العرب اسم "الموسكوف"[188]**. حتى ذلك الحين، فـــإن الجـــيران العرب دعوا المستوطنين اليهود في بعض المستوطنات المعزولة "أولاد الميتة"، لأنهم فشلوا في حمايـــة أرواحهـــم وممتلكاتهم بشكل صحيح. وكانت هذه ثورة حقيقية في موقف الجيران العرب تجاه مزارعي المستوطنات، والتي كان لها تأثير بعيد المدى. وسرعان ما غير الموسكوف ملابسهم، وبدلا من قبعة الفراء أو الصـــوف، كـــانوا يرتدون الكوفية وقبعة العباءات، كما فعل الجيران العرب. كانت نيتهم التشبه بالسكان المحلـــيين في الميـــدان وعدم الظهور في الحقول كما الغرباء. ولذلك حاولوا أيضا تعلم اللغة والعادات ونمط الحياة للعـــرب. لكـــي يكونوا شعب الأرض في كل شيء.**[189]

حسب ما يؤكد دجان، فإن تقليد وتمثيل نمط لباس السكان المحليين، كان لنفس دوافع الاستعراب، بل يضاف لذلك القلق الواضح من الظهور كغرباء في الواقع الاستيطاني الأكثر احتكاكاً بالمحيط العربي. إن حاجة الظهور

---

[187] אברהם שפירא – השומר http://www.rishonim.org.il/petach-tikva/Info/hi_show.aspx?id=17201 (استخدم بتاريخ 14.2.2018). ابراهيم شابيرا–الحارس.

[188] המוסקובים: أي الموسكيون، نسبة لكونهم من أهل موسكو.

[189] شاؤول دجان. مصدر سبق ذكره (بالعبرية).

بالمظهر العربي، تبرز أزمة الهوية لدى المستوطن، خاصة من ذوي الأصول الأوروبيـــة. ففـــي ســـياق حالـــة الاستعمار الاستيطاني الصهيوني في فلسطين، كان المظهر بحد ذاته قضية ملتبسة، فكما أكد أبو يوسف بأنـــه صدم من مظهر اليهود بالزي الأوروبي، بحكم أن تصوره لليهود نابع من واقع ارتباطهم بطبيعة المعيشة السائدة في البلاد العربية، خاصة أنه من أصول عربية. أما اليهود المهاجرون من روسيا فكان مظهرهم كحراس بعيداً عن اللباس العربي، يشكل بحد ذاته كشف عن هوية لا تنتمي للمكان، بالتالي تعويض ذلك أمـــام الســـكان المحليين بالاستعراب، وهو ما دفع بـــــــــــِ "المسكوف" من ارتداء الكوفية واللباس العربي، كمحاولة طمأنة الذات لأصالتها خاصة أمام السكان المحليين.

من زاوية أخرى، كنت قد تناولت سابقاً كيفية صياغة الأنا الاستيطانية أمام الآخر الأصلاني عبر إعادة إنتاج البقاء اليهودي–الصهيوني، من بقاء طارئ في أوروبا، إلى بقاء استيطاني بشرط نفي الآخر في فلسطين. وقـــد تجلى ذلك في الخطاب الصهيوني الذي تناولته عبر قراءة تستقصي كيفية ازدواج صناعة الأنا الاستعمارية، فهي من زاوية تمثل روح الاستعمار والقومية الأوروبية، ومن زاوية أخرى تسعى لتمثيل الآخر عبر اتقـــان اللغـــة وتمرس العادات والتقاليد كتعبير عن أصالة الهوية الاستيطانية.

يقدم الشاعر الصهيوني "حييم حيفر"، المستعرب "حيمكا" للجمهور الإسرائيلي بهذه الكلمات:

> **ولك، أنتم اليهود لا تعرفونه البتة/ وهذا لأن حيمكا لبكوك في صفكم – يكون لكم الكثير من الحظ/ أكثـــر حكمةً من هارون الرشيد، أكثر شجاعة من عنتر أبو زيد، أكثر ضحكاً من ضباع، وإذا كان يريد، كان هـــو شيخ المشايخ من بنت جبيل وحتى بير السبع/ إذا كان يريد، كان له سبعة نساء وسبعين حصـــان وســـبعمائة جمل/ وكانوا أتوا إليه لشرب القهوة مع الهيل كل المسؤولين والمدراء/ ولم يكن مهم إذا كانوا أتراك، أو يهود، أو انجليز/ وكانوا سيجلسون لديه على المزبلة جحا وأبونمر وأبو النواس وأبو البنات/ وحتى خروج كوكـــب الصبح كانوا سَيروُن إليه شِذّبات[190] لكنه هو، حيمكا لبكوك يقول لنا: (أنا يهودي/يعني، انولدت يهـــودي، وأنا دايماً يهودي، وهكذا أنا مبسوط).**[191]

في وصف المستعرب حيمكا، وهنا الإشارة إلى فترة الهجرة الثانية، كان التشديد أكثر قطعاً على ادعاء الأصالة، وكان استعراض الثنائيات مستند لانتزاع مقومات مركزية في الثقافة المحلية، وإعادة إنتاجها في قالب استعرابي جديد. بالتوازي مع ذلك، فإن فكرة الحراسة عبرت عن فكرة اليهودي الطليعي، وهذا البعث لم يشترط فقط طمأنة الذات الاستيطانية، بل تعمد لاستعراض كفاءة المستوطن بانتحال صفات الأصلاني تعبيراً عن انتصاره، خاصة أننا نتحدث عن تجربة أُعيد انتاجها بعد احتلال العمل والحراسة.

---

[190] وردت بالعبرية "**צ'יזבאת**" وترجمتنا من سياق النص بأنها "كذبات" لكنه اختار أن يستخدم لهجة الفلاحين. هنا إشارة لمنطق ادعاء الأصلانية والتمثيل معاً من موقعية المستعرب، وهذا سيتم نقاشه في الفصل الثاني.

[191] روزيال نماط، مصدر سبق ذكره (بالعبرية). ص10.

إذاً، يظهر أمامنا تبلور متعدد للثنائيات الاستعمارية الاستيطانية، وليس القصد بتعدادهم، بل بالكشف – عبر فهم تاريخ الاستعراب الصهيوني– بأن فاعلية الاستيطان الصهيوني هي ليست في تحقيق الفصل عبر ثنائية المستوطن/الأصلاني فقط، بل في إعادة إنتاج الثنائيات مراراً وتكراراً، مستعمِر/مستعمَر، حارس/دخيل، أنا أصيل/آخر طارئ. وهو بالطبع ليس فقط إعادة انتاج الأدوار بقدر إعادة إنتاج الحدود، ففي مرحلة مهادية من الاستيطان كانت الحراسة والاستعراب محاولة لحماية الوجود الاستيطاني عبر التمثيل، واستمرت لحقبة تبلور الحراسة والاستعراب كتنظيم عسكري، بالتوازي مع احتلال العمل والحراسة، وهو ما سأتناوله في هذا المحور، لأوضح كيف مثل الاستعراب ممارسة لعملية للإقصاء.

احتلال العمل والحراسة

كنت قد أوضحت سابقاً، بأن الاستعراب الصهيوني والحراسة والاستيطان، عبارة عن سلسلة متصلة. كما أن أي تحول أو تطور يطرأ على بنية ومسار الاستيطان، فإنه بالضرورة سيقود لتحول في أدوات المشروع الاستيطاني، مثل الاستعراب والحراسة. لقد شكلت الهجرات اليهودية وقود لممارسة المشروع الاستيطاني، وكان أثرها ضمن متغيرات واقع الاستيطان، على كيفية تحقيق استيعاب المهاجرين بالتوازي مع إنشاء الحيز المناسب لذلك.

لقد عُرضت الهجرة الثانية في الخطاب الصهيوني، بكونها أساس بنية الدولة، وظهور حركة العمل وما تبعها من ممارسة "احتلال العمل والحراسة" كان تعبيراً عن حقبة جديدة لمستقبل اليشوف نحو تحقيق هدف المشروع القومي. في هذا السياق أقدم – من خلال استعراض القراءات الصهيونية لممارسة احتلال العمل– قراءتي المبنية على فهم هذا التحول من زاوية اتصاله ببنية المشروع الاستيطاني القائم على البقاء كمسار متراكم. لكن هل فعلاً شكلت الحراسة بحكم ارتباطها ببنية الاستيطان الصهيوني، جزء من أزمة الصراع على سوق العمل، كما قدمتها الرواية الصهيونية؟ ولفهم ذلك، يجب الوقوف عند مسار التحول التاريخي بظهور حركة العمل، بالإضافة لفهم إعادة إنتاج تجربة "الدفاع الذاتي" بالتوازي مع إعادة إنتاج نموذج "اليهودي الجديد" كطليعي مرتبط بالأرض. يشير المسيري بأن مفهوم احتلال الأرض والعمل يعودان للمفكر الصهيوني يهودا جوردون 1830-1892، و"الذي كان يرى أن اليهودي في الدياسبورا يقوم بأعمال كتابية وحسابية ومالية، ولذا فهو يحيا حياة مشوهة ينقصها الانفعال والابداع، كما أنه لا يتمتع بأي سيادة ولا مشاركة في صنع القرارات

التي تؤثر على حياته. ولذا، يجب على اليهودي أن يعود للأرض لا ليملكها فحسب وإنما ليشتغل فيها بالأعمال اليدوية الشاقة ويقهرها حتى يصبح هو نفسه محتلاً من قبل العمل اليدوي"[192].

من الضروري الأخذ بالحسبان أثر التكوين الأيديولوجي، وصعود روح النزعة القومية لدى مهاجرين الموجة الثانية، بالإضافة لتبلور بداية الوعي بتجربة "الدفاع الذاتي" في روسيا. فقد مثلت فكرة "الدفاع الذاتي" القاعدة التأسيسية لظهور التنظيمات العسكرية. وقد تكرر استخدامها من الخارج كما في داخل فلسطين، وتطورت بناء على تطور الاستيطان الصهيوني. ففي"روسيا عام 1903، بعد مذبحة في كيشينيف، نظمت في مدينة هيومل مجموعة من الشباب اليهود واحدة من الحركات الثورية تحت الأرض"[193]، وكان الهدف منها هو مواجهة والاشتباك مع حالات الشغب التي رعتها السلطات أو وقفت متفرجة أمامها، أي بشكل مباشر حماية "الأرواح والممتلكات"[194] من موجات المذابح في المجتمعات اليهودية جنوب روسيا. ومن أوائل المجموعات التي نُظمت كانت على يد الزوجان سارة ويحزيكال حنكين، بالإضافة لـــِ يسرائيل شوحاط، ومندل برتغالي، الكسندر زياد، يتسحاق بن تسفي، ويسرائيل جلعادي، وهم من أقاموا لاحقاً في فلسطين التنظيمات العسكرية الأولى، كمنظمات للحراسة: تنظيم بارغيورا 1907 وهاشومير 1909[195].

عبر ذلك التكوين النفسي والأيديولوجي، ومع وجود قاعدة استيطانية معدة مسبقاً تصلح لإنشاء استيطان صهيوني يحقق أهداف المشروع القومي، يمكن فهم كيفية بدء ممارسات سياسات الإقصاء ضمن عملية احتلال العمل، وتأطير الممارسة الاستيطانية تحت مظلة الفصل بين المجتمع الاستيطاني والسكان المحليين، خاصة عبر إنشاء اقتصاد منفصل يضمن سيادة استيطانية خالصة على الأراضي التي تملكها المستوطنون. وهو ما يعني إعادة إنتاج الثنائيات الاستعمارية عبر رسم حدود العلاقة بين المستوطن/الأصلاني، على أساس تطهير الحيز الاستيطاني، وتحديداً في دور المستوطن كمستعمِر يسعى لترسيخ منظومة الفصل والسيطرة. وما ظاهرة احتلال العمل والحراسة إلا إعلان عن ترجمة هدف الاستيطان الصهيوني في فلسطين، وهو ما سأبينه لاحقاً.

مع وصول موجة الهجرة الثانية إلى فلسطين، كانت هناك أزمة جمود في انتقال ملكية الأراضي، وهو ما دفع إلى تحول ثقل النشاط الاستيطاني من سوق الأرض إلى سوق العمل[196]. فبعد أن كان نمط الاستيطان الزراعي

---

[192] عبد الوهاب المسيري. **الصهيونية والعنف من بداية الاستيطان إلى انتفاضة الأقصى**، القاهرة: دار الشروق، 2001، ص50.

[193] شاؤول دجان. مصدر سبق ذكره (بالعبرية).

[194] حماية الأرواح والممتلكات، مفهوم مهم جداً في سياق الدراسة، خاصة وأن المفهوم ظهر في إطار المذابح في شرق روسيا بحق اليهود، لكن أعيد انتاجه من أجل خلق فكرة وجود قوة عسكرية تحمي البيشوف، وتحديداً من مهاجري الموجة الثانية بعد العام 1904. وهو الادعاء الأبرز لتبرير وجود قوة عسكرية.

[195] المصدر السابق.

[196] غرشون شفير. مصدر سبق ذكره، ص139.

يعتمد في غالبه على اليد العاملة المحلية، لم يتمكن سوق العمل في المستوطنات من أن يستوعب إلا عشرة بالمئة فقط من اليد العاملة، وهو ما دفع باليأس لدى البقية من المهاجرين[197]. أمام هذا التحدي، وبالتوازي مع وجود نزعة قومية مرتبطة بتحقيق سيادة استيطانية، كان التنافس في سوق العمل أحد بوابات الدخول إلى مرحلة جديدة من الاستيطان الصهيوني. وكما يؤكد شفير فإن أبرز عوامل تبلور المجتمع الاستيطاني في فلسطين بعد الهجرة الثانية هو الصراع على سوق الأرض وسوق العمل والنسبة العددية بين المستوطنين والسكان المحليين[198].

إن محاولة تبني الهجرة الأولى لنمط وأسلوب الزراعة الذي اتبعه الفلاح العربي، وتدخل البارون روتشيلد لدعم وجود اقتصاد ناجح للمستوطنات، قابله لاحقاً تبني موجة الهجرة الثانية لمستوى معيشة العامل العربي، وكما يعلق شفير على ذلك، فقد تم التخلي عن المحاولتين بعد فترة قصية[199]. وهو حسب تفسير كيمرلينغ وأيضاً شافير، ما دفع إلى التوجه نحو مسار جديد من الاستيطان قوامه الصراع على سوق العمل، والذي أفرز منطق "احتلال العمل". والذي يعني إقصاء العمال العرب من العمل في الأراضي التابعة للمجتمع الاستيطاني واستبدالهم بعمال مستوطنين من داخل المجتمع الاستيطاني، هذا الإقصاء رسم ملامح الاستيطان الصهيوني في فلسطين، وشكل ركيزة في تبني الحركات الصهيونية لمنهجية الفصل، من أجل تحقيق مشروعها القومي الاستيطاني في فلسطين.

يشير كيمرلينغ إلى أن المهاجرين الأوائل شيدوا البنية التحتية التي تؤدي في النهاية لإقامة دولة قومية، وتم ذلك عبر خلق مقومات هوية الجماعة القومية، من لغة وثقافة ونمط حياة، وتأسيس المؤسسات التي تكفل تحقيق ذلك، سواء السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية والعسكرية[200]. وكما أقرأ عبر تحولات مسار الاستيطان، فإن العملية التراكمية في تملك الأراضي ومحاولة تطبيق نمط إنتاج يضمن البقاء والاستمرار، تكون مقاربة الأمور من منظور الصراع على سوق العمل وحدها لا تكفي لفهم كيفية تطور الاستيطان الصهيوني في فلسطين. والجدير فهم مسار تحولات الاستيطان من منظور بنية الاستعمار الاستيطان القائم على السيادة الاستيطانية والتي تقترن بالعنف وممارسته من أجل استحواذ أكبر مساحات من الأرض بأقل عدد من السكان الأصليين عليها.

---

[197] عناد السرحي. مصدر سبق ذكره، ص19

[198] غرشون شفير. مصدر سبق ذكره ، ص130.

[199] المصدر السابق ، ص139.

[200] باروخ كيمرلينغ. مصدر سبق ذكره، ص110.

يضيف كيمرلينغ أيضاً بأن موجة الهجرة الثانية "جلبت معها نزعات تقديس القوة والبطش، سواء كان ذلك إزاء الداخل الصراع الطبقي أو إزاء المحيط العربي. وأضيف إلى هذه النزعات مفاهيم قومية علمانية واشتراكية بأنواعها وألوانها المختلفة التحمت جيداً بالوهج الثوري الذي كان معششاً في داخلهما"[201]. ضمن هذه النزعة صاغ المستوطنين الجدد تحولاً في مسار الاستيطان في فلسطين، وكما يضيف رائف زريق فإن هذا التحول كان بين نوعين من الاستيطان، "واحد مستعد لتشغيل العمال العرب داخل الاقتصاد الاستيطاني، والآخر يدعو إلى إقصائهم. وفي نهاية المطاف انتصر التيار الانعزالي الإقصائي، فشكلت الهجرة الثانية، التي فضلت منطق الانغلاق القومي على منطق رأس المال، النواة المؤسساتية لدولة إسرائيل عند قيامها"[202]. وهو ما يميز دور الهجرة الثانية عن الأولى كونها وضعت نواة الدولة المستقبلية لليهود حسب الرؤية الصهيونية، لكن ليس من المصادفة أن نواة الدولة حسب هذه القراءة التاريخية اقترنت بالفصل والإقصاء، وهي التي خطت بداية تبلور تجربة العسكرة والتسلح على قاعدة "حاجة الدفاع" حسب الرواية الصهيونية، وباتت من أهم أعمدة المجتمع الاستيطاني. وكما يقول كيمرليينغ :

> **كان مهاجرو الموجة الثاني 1904 بحاجة إلى البنية التحتية الاستعمارية والاقتصادية التي أرساها رجال الموجة السابقة من أجل معيشتهم واستقرارهم الاجتماعي والسياسي في البلاد. كما احتاجوا إلى دعم المؤسسات القومية للمنظمة الصهيونية (عمليات دعم بواسطة منح دعم مالي للسلع الاستهلاكية، شراء الأراضي وخلافه). ومن أجل النفاذ إلى داخل المستعمرات زادوا من حدة خطابهم القومي – اليهودي الذي لم يستطع رجال المستعمرات الزراعية مواجهته، فاضطروا إلى استئجار قوة عملهم بدلاً من، أو إلى جانب، العمال العرب لديهم. لقد عرّف رجال الموجة الثانية أنفسهم ك "طبقة عاملة"، وكطليعة لبناء مجتمع وامة في آن. وتحت شعار "العمل العبري حصرياً" و"الحراسة العبرية"، طالب هؤلاء بإبعاد العمال والحراس (النواطير) العرب من المستعمرات (الاستغناء عن قوة عمليهم) في سياق تعهد بالحلول مكانهم**[203].

عملية الإحلال، التي لا أقول بأنها بدأت فقط مع احتلال العمل والحراسة، لكنها كانت من مقومات النهوض الفعلي بمستقبل الاستعمار الاستيطاني في فلسطين، وكانت جذورها ناشئة بمجرد بداية الاستيطان اليهودي في فلسطين، وإن لم تكن موجودة في حيز الممارسة الواضحة، لكن المهم هو قراءتها باعتبارها جزء من مسار متصل من الاستيطان، بحكم أن الوجود السابق لقاعدة استيطانية يهودية في فلسطين، دفع باستيعاب مهاجرين جدد تمكنوا من الاستفادة من الواقع الاستيطاني الموجود، وتطويره. وكما أكد شافير أيضاً بأن "الصراع من أجل احتلال العمل حدد الوعي القومي للعمال وبلورهم كجماعة قومية مقاتلة في الجالية اليهودية"[204]. هذا

---

[201] المصدر السابق ، ص116.

[202] رائف زريق. مصدر سبق ذكره، ص25.

[203] باروخ كيمرلينغ. مصدر سبق ذكره، ص118.

[204] غرشون شفير. مصدر سبق ذكره، ص139.

الوعي كما أقراءه لم يقتصر على العلاقة داخل المجتمع الاستيطاني، بل كان في الأساس موجهاً لاستحداث نمط استيطاني يضمن فاعلية الفكرة والممارسة الصهيونية على مختلف الصعد الاجتماعية والاقتصادية . يضيف جوني منصور مفسراً ظاهرة احتلال العمل من منظور يركز على رد فعل المستوطنين الجدد على دور اليهـــودي في المجتمع الغربي، مقابل دورهم الجديد في المجتمع الاستيطاني، ويقول:

> **ساهمت الهجرة الثانية في إبراز عدة انجازات بالمنظور الصهيوني، منها (احتلال العمل)، أي تحويل العمل للأيدي اليهودية بدلاً من تشغيل العرب. وكان لهذا الإنجاز مفهوم عقائدي، نابع من الخلفية الاشتراكية التي نشأ عليها أبناء هذه الهجرة قبل هجرتهم إلى فلسطين. وتدعو هذه العقيدة إلى قلب المفهوم الشائع في أن اليهـــود هـــم رأسمال اقتصادي فقط، وأنهم ليسوا منتجين بأنفسهم. واعتقد المهاجرون انه باستطاعتهم إثبات أن اليهـــودي الطلائعي بإمكانه الارتباط بالأرض وأن يصبح منتجاً ومكوناً لنفسه بقواه الذاتية**[205].

ضمن هذه الرؤية تم صياغة فكرة "اليهودي الجديد" كطليعي، بمعنى ربط الوجود الصهيوني بالأرض عبر العمل الجسدي والتضحية، و"كان تبني الاستعمار الزراعي كهدف صهيوني مفضل وتمجيده، إضافة إلى الميول البدائية القديمة والرومانسية الكامنة في الربط بين الإنسان والأرض ورؤية الزراعة كعمل جسدي يهدف إلى إصـــلاح الإنسان والمجتمع وخلق (يهودي جديد)"[206]. وهذا تحديداً ما عبر عنه الاستعراب الصهيوني منذ بدايته، حيث كان التمثيل موجهاً لعقد علاقة مع المكان أساسها النفي وفاعلية الحدود، لذى كانت الحراسة هـــي الإطـــار الأمثل لتبلور ظاهرة الاستعراب.

يقول المسيري بأن عنف الاستيطاني الإحلالِ تجلى وتحقق في الصهيونية العمالية، ومن خلال الوقـــوف عنـــد مفهوم الطلائعية واحتلال الأرض والعمل والحراسة، ويحاول المسيري تبيان ذلك عبر تفسير معنى الطلائعية كما رأتها الصهيونية العمالية، فهي بالإضافة لكونها تصف فكرة من يكتشف أرضاً جديدة، فإنها تعبر عن "جماعـــة من المستعمرين الاستيطانيين الذين يدورون في إطار الصيغة الصهيونية الأساســـية الشـــاملة بعـــد مزجهـــا بالديباجات الشعبوية الروسية الخاصة بالعودة للشعب العضوي (الفولك) والأرض والتراث ورفض الطموحات المادية والمصلحة الذاتية وإيثار العمل اليدوي، الذي قد يأتي بعائد مادي منخفض، على الأعمال غير اليدويـــة التي قد تأتي بالنجاح المادي البورجوازي، ولذا فهم يحلمون بمجتمع جماعي اشتراكي مفعم بروح التعاون"[207]

إن طرح فكرة اليهودي الجديد كطليعي مقترن بالعمل، لم تقتصر على ممارسة الفصل واحتلال العمل بطـــرد العمال العرب، بل كانت من البذور التأسيسية في المجتمع الاستيطاني لفكرة القوة المقاتلة الموازية لفكرة الجيش

---

[205] جوني منصور. **معجم الأعلام والمصطلحات الصهيونية والاسرائيلية**، رام الله: مدار، 2009، ص488.

[206] باروخ كيمرلينغ. مصدر سبق ذكره، ص113.

[207] عبد الوهاب المسيري. مصدر سبق ذكره، ص48.

في الدولة القومية، وهو ما سأتناوله لاحقاً عبر تتبع تبلور التنظيمات العسكرية خاصة ظـــاهرة الاســـتعراب الصهيوني التي تعبر عن ذلك.

وبالعودة إلى سياسة احتلال العمل، والتي من خلالها تحقق نموذج الاستيطان الطاهر، يقول شفير: "كما رأينا فإن فشل زراعة البعل في الهجرة الأولى أدى إلى الانتقال نحو أساليب زراعية رأسمالية ونحو تطـــوير نمـــوذج لمستعمرة مزارع إثنية. أما إحباط الهجرة الثانية من جراء ضائقة الوجود المتفاقمة فقد أدى، مقابل ذلـــك، إلى الانتقال نحو أساليب استيطان جماعية – قومية أو اشتراكية – قومية بهدف تأسيس مســـتعمرات اســـتيطان طاهر"[208]. وكيفية تحقيق ذلك هو عبر بدء تطبيق سياسة احتلال العمل، وإفراغ سوق العمل مـــن العمـــال العرب بقصد تطهيره وإنتاج حيز يضمن توفير فرص عمل تتطابق مع مصالح المشروع الاستيطاني، وقد "كان المسوغ المركزي في هذا الصراع هو أن توفير أماكن عمل بأجر معقول للعمال اليهود يُعد شـــرطاً لنجـــاح مشروع الاستيطان الصهيوني"[209]. في ذات الوقت ظهرت مع الممارسة الإقصائية في سوق العمـــل والـــتي " كانت ذا أهمية قصوى في التكوين الأيديولوجي والسياسي للمجتمع الإسرائيلي، أي فترة الهجرة الثانية والثالثة، صورتان متميزتان من الاستيطان الزراعي. وكانتا نتاج تجربة وخبرة المهاجرين بظروف البلاد، وكانتا تتسمان بسمة الأيديولوجية التي حملها المهاجرون معهم، كما تحول هذان النموذجان ليصـــبحا الصـــور الأساســـية للاستيطان في البلاد، ألا وهما الكيبوتس والموشاف"[210]. خاصة أن تجربة الكيبوتس أصبحت ترمز إلى العمل "الطليعي"، عبر ربط بناء وطن جديد بمجتمع على أساس ثوري[211]، وكما تؤكد أفيف فقد "أصبح الكيبوتس رمزاً للإحياء القومي، و"للعودة للوطن"، ولتجسيد الأفكار الاجتماعية والقومية الكامنة وراء العمل الصهيوني. كما لعب في الوقت نفسه دور الطليعي في المجالات الأساسية التي للمجتمع الجديد: الأمن واستيعاب الهجـــرة وخلق القواعد الاقتصادية اللازمة لوجود المجتمع"[212]. لم يقتصر دور الكيبوتس خاصة في موجة الهجرة الثانية على تمثيل دور "بناء الأمة الجديد"، بل تعدى ذلك كما تقول أفيف لإنشاء قوة عبرية محاربة:

> **إلى جانب هذه العلاقة بالأرض والاستيطان وبفضل بنائها الجماعي أخذت الكيبوتسات على عاتقها سلســـلة أخرى من المهام القومية. فهي لم تقم فقط باستيطان المناطق الحدودية حيث رسمت الحدود من خـــلال عملـــة الاستيطان، وإنما جاءت أساساً لخلق قوة عبرية محاربة. فقد أقامت الكيبوتسات الوحدات الضاربة للـــهاجاناه "البالماخ": حيث وفرت الكيبوتسات للجيش في مراحله الأولى قواعد العمليات والتدريب**[213].

---

[208] غرشون شفير. مصدر سبق ذكره، ص139.

[209] المصدر السابق ، ص139.

[210] أفيفا أفيف. مصدر سبق ذكره، ص174.

[211] المصدر السابق.

[212] المصدر السابق ، ص176.

[213] المصدر السابق ، ص176.

إن قراءة دور الكيبوتس، يعيد إلينا معنى البقاء الاستيطاني، وتطوره نحو نمط إنتاج وإقصاء استعماري، واستيعاب الكيبوتس لتجربة إنشاء القوة المقاتلة، كان تجسيد لتماسك بنية وأدوات المشروع الاستيطاني لتحقيق أوسع حيز من السيادة، والتي ستكون بوابة ظهور التنظيمات العسكرية، كما سنتبين لاحقاً.

خاتمة

يرى وليد الخالدي بأن حزب بوعالي تسيون، الذي طور نظرياته على أساس قومي – اشتراكي، كان قد تبنى فكرتي احتلال الأرض واحتلال العمل[214]. ويربط ذلك باعتباره الخلفية الفكرية التي أنتجت أول الجماعات الصهيونية المسلحة في فلسطين، ويؤكد ذلك قائلاً:

> **على هذه الخلفية برزت أولى الجماعات الصهيونية المسلحة في فلسطين. كانت البداية متواضعة في شكل أفراد من الحراس "شومريم" تولوا حراسة بعض المستعمرات. وفي ايلول/سبتمبر 1907، تألفت جمعية سرية منهم لا يتعدى عدد أفرادها العشرة باسم "بارغيورا"...، وفي سنة 1909، قررت الجمعية التخلي عن السرية وزيادة عدد أفرادها وإقرار وجوب أن تكون حراسة جميع المستعمرات في أيد يهودية. ويعني هذا طرد الحراس العرب الذين كانت المستعمرات الخاصة قد عينتهم والحلول محلهم، ومنع اليد العربية العاملة من العمل فيها. وأطلق على المنظمة الجديدة اسم (هاشومير–الحارس)**[215].

بالتالي نرى من خلال ما سبق أن كل من تبلور الوعي القومي المقترن بالصهيونية وروح الاستعمار الأوروبي، وتحقيق بداية الفصل عبر إعادة إنتاج الثنائيات الاستعمارية عبر احتلال العمل والحراسة، ونشوء نمط استيطاني مختلف عن النمط السابق من حيث اليد العاملة في سوق العمل، لكنه مكمل له، ومتصل به، وظهور خطاب الإقصاء المقترن بالعنف، كل ذلك كان من نتائج بنية المشروع الاستيطاني القائم على البقاء، ولا يمكن فقط إحالة ذلك لموجة الهجرة الثانية، وكما يقول المسيري:

> **ولكن الدافع وراء اقتحام العمل لم يكن نفسياً/طبقياً فحسب، بل كانت هناك ضرورات عملية يحتمها واقع الاستعمار الاستيطاني الإحلالي في فلسطين، فالأرض التي هاجر إليها اليهود لم تكن خالية من السكان، ولذا كان يتحتم إجلاؤهم وشغل أعمالهم. وقد أدرك المستوطنون من البداية أهمية العمل العبري كأساس للاستيطان الإحلالي، فاستئجار العمال العرب كان يعني أن المستوطن الصهيوني سيظل معتمداً على العرب غير مستقل عنهم، كما أنه في نهاية الأمر سيجعل تحقيق أغلبية يهودية أمراً مستحيلاً**[216].

لقد شكل طرد العمال العرب، وخاصة الحراس، خطوة جديدة لبلورة مستقبل الاستيطان الصهيوني، وترتب على ذلك إعادة إنتاج تجربة الحراسة باعتبارها دور أساسي مرتبط بالاستيطان، ولا يمكن التخلي عنها، أو تسليمها لأيد غير يهودية. إن الوقوف لفهم السياق التاريخي لظهور عملية الإقصاء في الهجرة الثاني يشكل

---

[214] وليد الخالدي. بناء الدولة اليهودية،1897–1948: الأداة العسكرية. (**مجلة الدراسات الفلسطينية**: العدد 39،1999)، ص97–70.

[215] المصدر السابق، ص70.

[216] عبد الوهاب المسيري. مصدر سبق ذكره، ص51.

المدخل الأساسي لفهم التجربة التي تمخض عنها نشوء حركة الاستعراب الصهيوني المنظمة، بدءا من العام 1907، وهو عام إنشاء أول تنظيم شبه عسكري من أجل الحراسة، أي بعد ثلاث سنوات على بدء موجة الهجرة الثانية. إن شرط البقاء الاستيطاني الصهيوني في فلسطين كان ولا يزال قائم على محو ونفي "الآخر"، والاستعراب الصهيوني هو أحد أدوات عملية الإقصاء. وما الهجرات اليهودية المتوالية، والاستيطان الزراعي، ثم احتلال العمل والحراسة، إلا ممارسات من أجل إنتاج البقاء الاستيطاني بما يتناسب وتحقيق سيادة استيطانية حسب رؤية المشروع الصهيوني. إن تبلور الاستعراب الصهيوني لم يكن تعبيراً عن محاولة اندماج، أو اتصال، بل هو تجسيد لمقولة النفي، وصناعة الآخر كموضوع استعماري. كما أن الثنائيات الاستعمارية والحدود بينها، هي مسألة ديناميكية مستمرة ومتجددة حسب الحاجة الاستيطانية، لذلك كانت الحراسة هي الحاضنة التي عبرت عن فاعلية الحدود والحيز الاستيطاني، والاستعراب هو مظهر الحراسة الذي يعكس عقدة الأصلنة بالتوازي مع ادعاء قدرة المستَعمِر على إنتاج صورة الأصلاني والسيطرة عليه. إن الاستعراب الصهيوني والحراسة، ونمط الإنتاج الزراعي، والنزعة القومية الاستيطانية، والهجرات اليهودية، جميعها سلسلة واحدة مترابطة ومتراكمة، تطورت بفضل عامل البقاء، وحاجة المشروع الصهيوني، كما أوضحنا في نقاش هذا الفصل.

الفصل الثالث

باغيورا، هاشومير، والبالماخ

مقدمة

يتناول هذا الفصل المسار التاريخي لظهور وتطور تنظيمات الحراسة والاستعراب الأولى في المجتمع الاستيطاني، خلال الفترة التاريخية الواقعة بين العام 1907، وهو تاريخ نشوء أول تنظيم حراسة عسكري، وصولاً إلى حرب النكبة عامي 1947-1948. ومن أجل تقديم قراءة لهذه الحقبة وفق محددات بنية الاستعمار الاستيطاني، والاستشراق والعنف، قمت بمراجعة نقدية تاريخية وتحليلية، لروايات وأدبيات صهيونية مختلفة، تناولت هذه الفترة، ضمن خطاب صهيوني تاريخي، عبرت عنه مصادر أولية، ارتبطت بإنتاج المؤسسة الرسمية، وأخرى أكاديمية، دارت في فلك الخطاب الصهيوني الرسمي، وقدمت بدورها كتابة تاريخ تنظيمات الحراسة استناداً إلى مفاهيم "حاجة الدفاع الوجودية –حماية الأرواح والممتلكات"، و"تجربة الدفاع خارج فلسطين وداخلها"، و"نضوج التنظيمات بحكم المواجهة المستمرة مع السكان المحليين". في مقابل هذه القراءة، أقدم قراءتي التي تستند إلى ثلاثة محاور، أولاً: التأسيس أي فترة تحول تجربة الحراسة والاستعراب من ممارسة غير المنظمة إلى ممارسة داخل التنظيم بضوابط وأهداف. ثانياً: احتكار العنف، باعتباره أداة سلطوية لتنظيم وإنتاج العنف عبر التنظيم. وثالثاً: المأسسة، وهي مرحلة إنتاج تجربة التنظيمات في إطار بنى المؤسسات الصهيونية التي تعد لتحقيق المشروع القومي وفق رؤية شمولية.

وفي توصيف المرحلة التاريخية السابقة، استخدم أيضاً كل من فكرة الحدود، بمعنى حدود الثنائيات الاستعمارية، وحدود المشروع الاستيطاني، والحدود بين تجربة "الدفاع الذاتي" خارج وداخل فلسطين. كما أحاول تفكيك إطار وصورة الاستعراب التي قدمتها الرواية الصهيونية، أثناء فترة التأسيس والقائمة على: الرومانسية؛ والتعرف؛ والتودد، وذلك عبر وضع المعرفة والتمثيل الاستشراقي، الاختراق والعنف، كإطار لفهم ماهية الاستعراب وتحولاته من التنظيم إلى المؤسسة. كما أتناول تحولات تنظيمات الحراسة والاستعراب بين حقبة العثمانيين وحقبة الانتداب، والتي ستشكل مدخل لبداية المأسسة، وظهور الهاجاناه والبالماخ. وينتهي الفصل إلى تمهيد قراءة بذور العنف والفوضى، كمحددات أساسية لحقبة ما بعد النكبة، من خلال كشف دور المستعربين الجديد فترة البالماخ.

التأسيس السياق التاريخي

شكلت حراسة المستوطنات، جزءاً عضوياً أساسياً من بنية الاستيطان الصهيوني. وجسدت الهجرات اليهودية – الصهيونية وقود الاستيطان، كما أثرت كل هجرة وفق ما حملته من أفكـــار، طموحـــات، إمكانيـــات، وظروف ذاتية وموضوعية، خارج وداخل فلسطين في إطار الحركة الصهيونية على مسار الاستيطان، وبالتالي مخرجاته من حراسة وبناء مؤسسات والاستحواذ على أراض ونفي سكان. لذى كان بروز تنظيمات الحراسة الأولى جزءا من مسار نمو البنية الاستيطانية نحو السيطرة/الإقصاء.

بالتالي فإني أقرأ معنى الـــتأسيس، لكونه حالة "نضوج" استيطاني من التجربة إلى الممارسة المنظمة، وباعتباره اللحظة الأبرز في تاريخ الاستعراب الصهيوني، والتي تعني التحول من التجربة كدور غير منظم ضمن مســـار الاستيطان، إلى ممارسة منظمة تخضع لأهداف وقواعد معلنة لتحقيق غاية الاستيطان الصـــهيوني. بمعـــنى أن الحراسة قبل التأسيس كانت تستخدم الاستعراب لتحقيق الظروف الأفضل والأنسب لاســـتمرار أداء هـــذا الدور، كما فعل إبراهيم شابيرا وسندر حداد ويوسف أبو داود من حراس بيتاح تكفا، والذين استعربوا دون تأسيس تنظيم عسكري[217]، وإن كان العنف مكون بالضرورة للحراسة والاستعراب في كل المراحل، إلا أنه كان مستتراً خلف الفكرة ذاتها، إلى حين التأسيس. أما في مرحلة التأسيس، فقد تم صياغة الاستعراب والحراسة ليس فقط لتحقيق "حماية الأرواح والممتلكات" ومبدأ "الدفاع الذاتي" وفق الرواية الصهيونية، بل وأيضاً كما يبدو، من أجل إنجاح فكرة احتلال العمل وتطهير الحيز الاستيطاني من خلال وجود قوة محاربة قادرة علـــى احتكار وتنظيم وإنتاج العنف في المجتمع الاستيطاني[218].

لقد كانت حراسة المستوطنات –منذ الهجرة الأولى– جزءا عضويا، كما ذكرت سابقاً، من بنية الاســـتيطان. و لم تكن الحراسة تمثل حماية للجسم الاستيطاني من السرقات والاعتداءات فقط، لتتطور لاحقاً كقوة محاربـــة ضمن مشروع إقامة الدولة، بل مثلت فاعلية فكرة الحدود الاستعمارية من جهة منـــع اختراقهـــا، واقترانهـــا بالاستعراب مثّل بدوره حاجة التمثيل كجزء من الرغبة الاستعمارية في اختراق المحيط المحلي. إن تأسيس تنظيم للحراسة فترة الهجرة الثانية حَوَّل الفكرة إلى ممارسة منظمة، فباتت حراسة المستوطنة تعني إقصاء حراس وعمال محليين، والاستعراب أداة تكوينية من أجل تحقيق ديمومة الإقصاء المرتبط بالعنف. إذاً، ومـــن خـــلال فهـــم الاستعراب الصهيوني والحراسة تكون قراءة المشهد التاريخي للاستيطان الصهيوني في فلسطين قد كشفت عن

---

[217] انظر الفصل الثاني، مسار تبلور الحراس – المستعربون الأوائل. ص47-52.

[218] تظهر مجموعة من رسائل مؤسس تنظيم بارغيورا وهشومير "يسرائيل شوحاط"، والتي سأتناولها لاحقاً، تصوره الذي حاول إقناع قيادة الييشوف به في عرض خطة دفاع شاملة يتحملها التنظيم، والتي تعكس طموح التنظيم باحتكار العنف حينها. انظر :

Yigal Allon. The Making Of Israel's Army, New York: Universe Books , 1970, 18.

بنية الثنائيات الاستعمارية بالتوازي مع فاعليتها. حيث يمثل الحارس – المستعرب، وجهان لتجلي معنى الحدود الاستعمارية، فكما يمنع الحارس "الغرباء" و"الآخرين" من دخول أو اقتحام حدود المستوطنة، فإن المستعرب يقوم -بمجرد التمثيل والتقليد- باقتحام ثقافة السكان المحليين، في محاولة لتطبيع بقاءه، وكأداة اختراق أيضاً، كما سيكشف لنا مستقبل الاستعراب الصهيوني.

تقدم الأدبيات الصهيونية قراءات متوازية حول بداية ظهور التنظيمات العسكرية في مجتمع اليشوف بعد موجة الهجرة الثانية، وتتقاطع جميعها حول دوافع "الأمن" و"الدفاع" أو "الصراع" في سوق العمل. أسعى هنا لاستعراض بعض هذه القراءات محاولاً تبيان العلاقة بينها ضمن مقولتي القائمة على بنية الاستيطان والثنائيات الاستعمارية القائمة على العنف فكراً وممارسةً.

تركز الأدبيات الصهيونية – خطاب المؤسسة الرسمي- على تاريخ نشوء هذه التنظيمات من حيث حاجة الأمن. ومن أجل ذلك تقدم رواية حول نشوء الحراسة فترة الهجرة الأولى كمحاولة غير مكتملة، مقابل اكتمالها عند وضوح الهدف وطرد العمال والحراس العرب، فمثلاً يقدم موقع " Jewish virtual library" في تعريف منظمة بارغيورا:

> **في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، عندما ظهرت أولى المستوطنات الزراعية اليهودية، كان على المستوطنين اليهود التعامل مع الاحتكاك الحدودي، والنزاعات حول حقوق المياه والتدخلات على محاصيلهم وممتلكاتهم. وكان اختيارهم إما الكفاح من أجل حقوقهم أو تركها تحت رحمة جيرانهم. ونتيجة لذلك، نظم أفراد ومجموعات من الشباب للقتال من أجل هذه الحقوق الأساسية. كانت هذه فترة الحراس الأوائل ومنهم كان إبراهيم شابيرا. بعد بعض الوقت، أصبح واجب الحراسة في معظم المستوطنات مهمة الرجال العرب المحليين الأقوياء الذين تعهدوا بحماية المستوطنين اليهود بإرسال رجالهم لحراسة الحياة والممتلكات اليهودية**[219].

يضيف الموقع بعد ذلك، بأن: "المهاجرون من الهجرة الثانية كانوا ينتقدون المستوطنين الأوائل ويدركون جيدا المخاطر التي ينطوي عليها توظيف الحراس غير اليهود"[220]. يحاول هذا الخطاب أن يضع فكرة "الحق" اليهودي في "الوجود" على أرض فلسطين، كمرجع تفسيري لتبلور الحراسة، باعتبارها حاجز دفاعي أمام السكان المحليين، الذين يقدمهم كطرف طارئ "ينازع" و"يتصارع" مع المستوطنين على "حقهم". هذه الرواية تجسد محور الرؤية الصهيونية للاستيطان، وتعزز من اعطاء معاني تبرر ظهور تنظيمات الحراسة من الحاجة الوجودية.

في ذات السياق يوضح جولدشتين أبرز عوامل تأسيس تنظيمات الحراسة بارغيورا وهشومير بعد وصول موجة الهجرة الثانية، وفي البداية يؤكد بأن انتقال الحراسة ليد غير يهودية كان له عواقب كبيرة في استكانة المجتمع

---

[219] Jewish Defense Organizations:bar gior.jewish virtual library: http://www.jewishvirtuallibrary.org/bar-giora , (accessed, 3.3.2018).

[220] المصدر السابق.

الاستيطاني وعجزه من مواجهة "الاعتداءات والسرقات" التي تورط فيها الحراس العرب والبدو والشركس أيضاً، والأهم من ذلك –حسب ادعائه– هو أن المستوطنين اليهود، كانوا المجموعة الوحيدة حينها في فلسطين التي تعاني من غياب قوة دفاع مقاتلة، الأمر الذي تسبب في إضعاف موقفها وتقديرها أمام الجيران، بحكم أن المستوطنات كانت تخضع لحراسة "الغرباء"[221]. بذلك يحاول جولدشتين أن يبرز معنى تخلي اليشوف عن تحمل مسؤولية "الحماية والدفاع الذاتي"، كخطر يهدد الوجود الاستيطاني. بالإضافة لذلك يشير جولدشتين إلى عامل آخر وهو تجربة الشركس في فلسطين، والتي رأوا فيها المؤسسين النموذج الذي يحتذى به من حيث أن الشركس أقلية وصلوا فلسطين عام 1878، تحت وقع الحكم العثماني، وعاشوا بعيداً عن مسقط رأسهم، وسكنوا في قريتين في الجليل. ويقول أيضاً: لقد ورد نموذج الشركس لدى المؤسسين باعتبارهم أقلية جديدة، نزحوا من مسقط رأسهم، ويعيشون في محيط غريب عنهم، لكنهم أظهروا شجاعة وحازوا على الاحترام بسبب ذلك[222]. بذلك يحاول جولدشتين إبراز معنى "العجز" مقابل طرح نموذج الشركس، وبينهما كانت الضرورة التاريخية في نشوء تنظيمات الحراسة. ومقابل هذه القراءة، يقدم كيمرلينغ وشافير قراءة لتبلور التنظيمات العسكرية الأولى من خلال التركيز على حركة العمل، حيث كان الصراع على سوق العمل والأرض والنسبة العددية هما المفاتيح الأساسية لتبلور حركة الإقصاء التي أفضت لإنتاج تنظيم بارغيورا وهشومير[223].

في قراءتي أسعى للعناية بما قدمته الأدبيات السابقة، لكني أستند بالأساس على محورية بنية الاستيطان والثنائيات الاستعمارية. فقد كانت فكرة تأسيس جسم شبه عسكري يقوم بدور الحراسة في المستوطنات، قد نشأت بفضل تراكم التجربة الاستيطانية بمختلف تجاذباتها، خاصة مع نقل تجربة "الدفاع الذاتي" خارج فلسطين، عبر الهجرة الصهيونية، إلى تجربة الحراسة، داخل فلسطين، المرتبطة بظهور حركة العمل القائمة على الفصل والإقصاء، وبروز الوعي القومي الاستعماري–الاستيطاني. فبالتوازي مع تصاعد النزعة القومية القائمة على تطبيق المشروع الصهيوني، لدى مهاجري الموجة الثانية، ووجود بنية استيطانية سابقة لم تحقق حاجات المستوطنين الجدد، سواء في سوق العمل أو في فرض سيادة استيطانية ضمن الحيز الاستيطاني، ومع ظهور دعوات طرد العمال العرب العاملين في المستوطنات، على غرار دعوة تنظيم "بوعالي تسيون". كانت تجربة "الدفاع الذاتي" التي تشكلت في شرق روسيا لمواجهة التضييق وأعمال الشغب خاصة إثر مذابح كيشينيف عام 1903، والمتمثلة في حماية الأرواح والممتلكات، قد أخذت حيزاً كبيراً في وعي المهاجرين اليهود الذين

---

[221] يعقوب جولدشتين. مصدر سبق ذكره (بالعبرية)، ص16.

[222] المصدر السابق.ص15.

[223] انظر الفصل الثاني: النقاش حول احتلال العمل والحراسة في قراءة كيمرلينغ وشافير. ص 58–64.

شاركوا فيها[224]. خاصةً أنه ومع تشكيل مجموعات لحراسة التجمعات اليهودية في روسيا، كانت الأفكار القومية والاشتراكية تعبر عن طموح هؤلاء الشبان بشرط مغادرة أوروبا نحو نموذج قومي أساسه السيادة الاستيطانية والعمل.

لقد تأسست بارغيورا كما تشير الموسوعة اليهودية- وهي مصدر أكاديمي صهيوني- "من قبل طلائعيين من الهجرة الثانية، معظمهم كان من الناشطين في الحركة الثورية والدفاع اليهودي في روسيا. وكانت قائمة على مبدأ حماية الحياة والممتلكات في المستعمرات اليهودية التي كانت موكلة لحراس بدو وشركس من غير اليهود. معظم الأعضاء كانوا من حركة بوعالي تسيون"[225]. وكان مبدأها قائم في البداية على العمل السري، كما تؤكد الموسوعة. ويعرفها أيضاً معجم المصطلحات الصهيونية، بأنها:

> **جمعية سرية من العمال العبريين من أبناء الهجرة الثانية سعت إلى السيطرة على الحراسة على المستوطنات وتقوية الدفاع عن طريق اتباع عمل عبري واستيطان زراعي كأفضل طريقة للعمل المنتج، كما أيدت الجمعية تطبيق الفكرة الصهيونية الاشتراكية وأقيمت الجمعية يوم 29-9-1907 في غرفة اسحق بن تسفي في بيت وارسو في يافا، وسميت باسم بارغيورا، أحد زعماء تمرد اليهود الكبير ضد الرومان. وفي عيد الفصح عام 1909 تقرر وقف اعمال الجمعية السرية واستبدالها بنقابة هشومير**[226].

إذاً، نحن أمام خطاب صهيوني يدعي بأن تشكيل بارغيورا كان كاستمرار لحركة " انعتاق - ثورية" خارج فلسطين، ويربط ذلك بمسمى التنظيم، الذي يعكس استحضار نموذج "الخروج- التمرد" ضد الرومان، كجزء من إنتاج أسطورة صهيونية متكاملة، تبرر حاضر التأسيس كاستمرار لمسار تاريخي قديم. هذه الرواية تتعمد إظهار عناصر "التواصل التاريخي، والبعد الثوري، والأسطورة"، وتخفي معاني البنية الاستيطانية القائمة على العنف والإحلال.

لقد كانت تجربة تشكيل مجموعات الحراسة خارج فلسطين، لحماية الأرواح والممتلكات في روسيا وبولندا، والتي تحملت بالفكر الصهيوني والاشتراكي، تتوازى أيضاً مع حركة هجرة نحو فلسطين قوامها البقاء الاستيطاني، لذا كانت دعوات الاستيطان والهجرة إلى فلسطين ملاذاً لتحقيق الخروج من أزمة العيش في أوروبا، وفرصة تاريخية لصياغة مستقبل المشروع الاستيطاني الصهيوني في فلسطين. إن ما حملته موجة الهجرة الثانية قبل الهجرة كان له الأثر على كيفية موائمة تلك التجربة لظروف الواقع الاستيطاني في فلسطين من جهة، ومن ثم إنتاج تجربة تجمع بين الحاجة الاستيطانية والرؤية الجديدة لكيفية تحقيقها من جهة أخرى. وهذا ما عبرت عنه سياسة احتلال العمل والحراسة والتي لم تكن فقط بسبب الصراع على سوق العمل، بل أيضاً من

---

[224] المصدر السابق. ص15.

[225] Encyclopaedia Judaica. Jerusalem: Keter Publishing House Jerusalem ltd, vol 7,1972.p1370.

[226] افرايم ومناحيم تلمي. مصدر سبق ذكره، ص78.

أجل إنشاء نمط استيطاني يدفع باتجاه تحقيق المشروع القومي الذي لا يكتفي فقط بالبقاء، بل يجعل شرط البقاء هو الإقصاء والنفي.

وبالعودة إلى الفترة التي انتقلت فيها الحراسة ليد متعهدين وحراس عرب وبدو وشركس، فقد تم التعامل مع هذه المرحلة كمشكلة لا يمكن أن تحقق الرؤية الصهيونية لمهاجري الموجة الثانية في الاستيطان. فبالنسبة لهم كانت اليد العاملة العربية في سوق العمل الاستيطاني أزمة بحد ذاتها، من ناحية أنها تعني ضيق فرص العمل للمهاجرين الجدد، ومن ناحية أخرى فهي تعرقل بناء نموذج استيطاني يحقق رؤية المشروع الصهيوني. وكما يشير عوزيال ليف بأن أهداف الحراسة هي أيضاً ذات معاني اجتماعية وقومية وأمنية منذ بداية تأسيسها، وأن احتلال العمل يساعد لاحتلال الحراسة وبالعكس[227]. لذا كانت أزمة العمل العبري قد ارتبطت بالحراسة من حيث مستقبل الاستيطان، ليس فقط من حيث الصراع على سوق العمل فقد "كانت مشكلة العمل العبري والعمل العبري نفسه مرتبطة بمشكلة الحراسة العبرية وبمشاكل أخرى وقد تجاوزت أهميتها الاطار الاقتصادي فقد اتصلت بالمشاكل الأساسية للاستيطان اليهودي و"عودة صهيون" وأصبحت مشكلة اجتماعية وطنية"[228].

ويشير جوني منصور بأن "هدف هؤلاء حراسة المستوطنات والدفاع عنها بواسطة اتباع العمل العبري وتحقيق الاستيطان الزراعي الذي يساعد على زيادة الإنتاج. ونادوا بضرورة تحقيق الرؤية الصهيونية الاشتراكية"[229].

لقد كانت الهجرة الصهيونية، هي الوسيلة التي انتقلت من خلالها تجربة "حماية الأرواح والممتلكات" و"الدفاع الذاتي" إلى فلسطين، ثم تبلورت تجربة الحراسة ضمن مجموعة ذات أفكار صهيونية واشتراكية، استفادة من الواقع الاستيطاني الذي أتاح إنتاج هذه التجربة ضمن روح الاستيطان الاحلالي، حيث كانت فكرة الحراسة مدخلاً أساسياً لبلورة التنظيم ضمن واقع استيطاني يقوم على الإقصاء.

التأسيس: أفراد –جماعة – تنظيم

تدور بداية تأسيس تنظيم بارغيورا حول محورين، هما: السياق التاريخي الذي أفضى إلى وجود هذه التجربة، والذي تناولته سابقاً، ثم "الأفراد –الجماعة –التنظيم"، وأعني بذلك إفساح المجال لتناول التعريف بمؤسسين التنظيم، ومن ثم نشاطهم لبلورة أول مجموعة منظمة للحراسة، لها شعار وأهداف وأليات عمل موجه، ثم التنظيم كإطار للعمل يسعى لاحتكار العنف، وبالتالي إعادة إنتاجه من أجل تحقيق هدف الاستيطان.

---

[227] עוזיאל לב. ברגיורא והשומר: מרעיון בטחוני לארגון בטחוני (1907-1914)، הוצאת מערכות,משרד הביטחון בשנת 1985 ،13. عوزيال لب. بارغيورا وهشومير: من فكرة الأمن إلى تنظيم الأمن.

[228] افرايم ومناحيم تلمي. مصدر سبق ذكره، ص326.

[229] جوني منصور. **معجم الأعلام والمصطلحات الصهيونية والاسرائيلية**، رام الله: مدار، 2009، ص88.

بداية بـــــــ"**الأفراد**": وأولهم "يحزيقال حنكين"؛ الذي كان من مهاجري الموجة الثانية، وصل فلسطين في 5.12.1903، وكان من منظمي مجموعة دفاع تابعة لبوعالي تسيون في هيومل تحت اسم "جيبوري تسيون- شجعان صهيون"، وهاجر معه كل أفراد هذه المجموعة[230]. كذلك الأمر فقد كان مؤسّسوا تنظيمات الحراسة بارغيورا وهشومير قد وصلوا في نفس موجة الهجرة الثانية، وكانوا جميعهم مرتبطين بتشـــكيلات دفـــاع في روسيا، كل حسب المدينة التي عاش فيها، مثل "يسرائيل شوحاط، اسحق بن تسيفي، يسرائيل جلعادي، مندل بورتغالي، وآخرون"[231]. من الجدير هنا الإشارة إلى أن اسحق بن تسفي هو "ثاني رئيس لدولـــة إســـرائيل، ورئيس اللجنة الوطنية وأحد رؤساء حركة العمل والدفاع، والحراسة"[232]. أما يسرائيل شوحاط، الذي وصل إلى فلسطين في 2.3.1904، وكان يبلغ سبعة عشر عاماً حينه[233]، فهو الاسم الأبرز في تشكيل التنظيمات العسكرية القائمة على احتلال الحراسة، بالإضافة إلى مجموعة من شبان الموجة الثانية الذين تربطهم نفس تجربة "الدفاع الذاتي" خارج فلسطين. إن شوحاط هو "أحد زعماء حركة بوعلي تسيون في بولندا وروسيا، وأحد منظمي حركة الدفاع الذاتي هنالك 1905، وأحد طلائعي بوعلي تسيون ومن مؤسســـي بـــارغيورا عـــام 1907 وهشومي 1909، وعمل رئيساً لمنظمة هشومير سنوات عديدة. وُلد شوحاط في بولنـــدا 1886، وهاجر إلى "أرض اسرائيل"- فلسطين عام 1904 وعمل وحرس في مستوطنات مختلفة"[234]. يشير شـــاؤول دجان أيضاً إلى دور "بلكند" وهو من المنتسبين لمنظمة بيلو قبيل الهجرة الأولى، ومن المخضرمين في الييشوف القديم، وقد التقى بشوحاط وأثر فيه بأفكاره التي تمحورت حول إعادة صياغة الاستيطان عبر الاعتماد الذاتي في العمل العبري والحراسة، كذلك بضرورة تشكيل منظمة شبه عسكرية تهتم بالدفاع عـــن الييشـــوف. إن بلكيند الذي لم يخول له عمره الانضمام للتنظيم، كان مساهماً وداعماً بحكم تجربته ومعرفته للعربية، ولـــنمط معيشة العرب لشوحاط وأصدقاءه في خطواتهم الأولى[235]. ويعلق دجان "اسم بلكيند غائب تقريبا في جميـــع المصادر التي تقدم قصة إنشاء منظمة بار جيورا وجمعية هشومير"[236]. تعكس خلفيات وتوجهـــات الأفـــراد الأوائل-المؤسسين، تقاطع الفكرة والتجربة وحاجة الممارسة، فكرة الحراسة والعمل، وتجربة "الدفاع الـــذاتي"

---

[230] يعقوب جولدشتين. مصدر سبق ذكره (بالعبرية)، ص15.

[231] المصدر السابق.

[232] افرايم ومناحيم تلمي. مصدر سبق ذكره، ص73.

[233] يعقوب جولدشتين. مصدر سبق ذكره (بالعبرية)، ص 16.

[234] افرايم ومناحيم تلمي. مصدر سبق ذكره.، ص435.

[235] شاؤول دجان، مصدر سبق ذكره (بالعبرية).

[236] المصدر السابق.

خارج فلسطين، وحاجة الإقصاء عبر العمل والحراسة كنواة من أجل إنشاء قوة محاربة، والتي تعبر عن مسار جديد في الاستيطان الصهيوني.

"الجماعة": إن النواة الأولى التي انطلقت منها فكرة تنظيم بارغيورا ومن ثم هشومير كانت على يد شوحاط. اعتمد شوحاط وعبر جهد متواصل على مبدأ الإقناع لتوظيف قاعدة عملية لهذه الفكرة[237]. حيث شارك أفكاره في البداية مع الكسندر زياد، الذي كان قد إلتقاه في العام 1904 في مستوطنة ريشون ليتسيون، والذي وافقه على مبدأ "العمل في الأرض والدفاع"[238]، واتفقا على الحصول على ثمانية عشر عضواً لاتخاذ أول خطوة عملية لإقامة التنظيم[239]. لاحقاً تفرق شوحاط وزياد، وكانا على توافق بأن كل واحد منهم عليه أن يجند أفراد للإيمان بالفكرة، حتى تحقيق نواة التنظيم[240]. كانت المعايير التي توافقا عليها للاستقطاب: "أن يكون فتي، صلب، مشحون الهمة، مستعد للعمل، طموح في السعي لحياة جديدة في أرض إسرائيل قائمة على العمل في الأرض والدفاع عنها، قدرة شخصية ونفسية لعمل علاقات موالية، استعداد تنفيذ مطلق لفكرة (الحياة والموت) من أجل التنظيم، استعداد لتقبل سلطة التنظيم المطلقة، دافعية للعمل الفوري"[241].

ضمن هذه الجهود التقى زياد بيحزكيال حنكين، ثم في القدس تمكن من تجنيد "موشه جولديشتين-جبعونب، إلياهو كمناتسكي، وجاد ابيجدوروف"[242]. أما شوحاط الذي صارح من التقاهم ضمن معايير التجنيد لفكرة التنظيم، استطاع أن يجند "سعيديا فز، ويهودا زلدين، وهكذا جُند يسرائيل جلعادي، ثم تبعه مندل بورتغالي"[243]. من جهته اهتم شوحاط بالبنية الجسدية القوية للمختارين، واستعدادهم على الإيمان بفكرة تغيير الواقع[244]. وعلى مدار عام من العمل تبلورت في 1905 المجموعة الأولى التي أسس عليها التنظيم، وهم "شوحاط، والكسندر زياد، يحزكيال حنكين، يسرائيل جلعادي، مندل بورتغالي، تسابي بكر، يحزكيال نيسنوف، سعيديا فز، ويهودا زلدين، موشه جولديشتين-جبعونب، وليبيال جولدواج"[245].

إن إنشاء جماعة تأسيسية ضمن شروط ومعايير خاصة، ووضع تصورات حول هدف التنظيم، وبدء السعي من أجل بلورة ممارسة تحقق الهدف، كل ذلك يتجاوز الفكرة التي تناولها شفير في وصف مسار الاستيطان

---

[237] عوزيال لب. مصدر سبق ذكره (بالعبرية)، ص8.

[238] يعقوب جولدشتين. مصدر سبق ذكره (بالعبرية)،ص16.

[239] عوزيال لب. مصدر سبق ذكره (بالعبرية)، ص9.

[240] يعقوب جولدشتين. مصدر سبق ذكره (بالعبرية)،ص16.

[241] عوزيال لب. مصدر سبق ذكره (بالعبرية)، ص10.

[242] يعقوب جولدشتين. مصدر سبق ذكره (بالعبرية)،ص16.

[243] المصدر السباق، ص17.

[244] المصدر السابق.

[245] المصدر السابق.

الصهيوني في فلسطين، والقائلة بأن الاستيطان تطور وفق مبدأ "التجربة والخطأ"[246]. حيث بات من الواضح عبر انتقاء أفراد بمعايير تعكس حاجة العنف أولاً، من حيث العمر والقوة الجسدية، وقابلية التضحية من أجل الفكرة والتنظيم، بأن الجماعة الأولى استندت لتلك المعايير لتحقيق الإقصاء. ثم إن التركيز على تماسك الجسم التنظيمي والهرمية والالتزام والانضباط الصارم، يعكس الاستعداد لتطبيق مبدأ الإحلال والجاهزية لمواجهة مقاومة السكان المحليين لذلك. كما تدل أيضاً هذه المعايير على ما تناولته سابقاً في النقاش حول فكرة "اليهودي الجديد" ك"طليعي"[247]، وكيفية إنتاج شخصية الحارس عبر الاستعراب –كما سأوضح لاحقاً– والعمل، والتي تدل على فاعلية الحدود والثنائيات الاستعمارية من جانب، وعمق الحاجة الاستيطانية على بلورة نموذج إقصائي يقوم على العنف من جانب آخر. إن تشديد المؤسسين لمعايير اختيار أعضاء التنظيم كانت مؤشراً على ضرورة انتقاء أفراد ذو قابلية لممارسة العنف المادي من أجل تحقيق هدف التنظيم. وفكرة الصلابة والاستعداد للتضحية والموت ما هي إلا دلائل على مركزية العنف في تشكل التنظيم.

"**التنظيم**": في العام 1907، انتدبت حركة بوعالي تسيون كل من شوحاط وبن تسيفي لحضور المؤتمر الصهيوني الثامن. بعد هذا الرحلة بدأت مرحلة بلورة التنظيم من ناحية توظيف دعم سياسي ومالي لتحقيق الفكرة، لكن حساسية سرية التنظيم أقلقت المؤسسين خشيةً من السلطة التركية، لمنعها مثل هذه النشاطات تحت سلطتها. لذا لم تمنَ مساعي شوحاط وبن تسيفي دائماً بتوفير شروط مناسبة لظهور التنظيم حينها، لكن الفكرة كانت قد أُعدِّت ونضجت داخل المجموعة[248]. لاحقاً في أيلول من العام 1907، وكما ذكرت سابقاً، فقد أقيم التنظيم في بيت اسحق بن تسفي، "واختير اسم بارغيورا نسبة إلى زعيم الثورة اليهودية ضد الرومان"[249]. و"كان شعارهم (بالدم والنار سقطت يهودا، بالدم والنار ستعود). حاز أعضاء بارغيورا على مسؤولية حماية مستوطنة الشجرة في الجليل الأسفل، وفي العام 1908 مستوطنة مسحة –كفار تابور"[250]، كما "التزم اعضاء هذه المنظمة بالقرارات العامة التي تتخذ بالإجماع"[251]. وكان المبدأ التأسيسي للمجموعة: "لا خلاص لأمتنا في وطننا إلا إذا كان كل واحد منا يعمل بيده ويقف بنفسه للمطالبة بشرفه ووجوده"[252].

---

[246] غرشون شفير. مصدر سبق ذكره، ص129.

[247] انظر النقاش في الفصل الثاني، حول الرومانسية: 16-21.

[248] يعقوب جولدشتين. مصدر سبق ذكره (بالعبرية)،ص17.

[249] جوني منصور. مصدر سبق ذكره، ص88.

[250] Encyclopaedia Judaica,1972.p1370.

[251] جوني منصور. مصدر سبق ذكره، ص88.

[252] Jewish Defense Organizations:bar giora, http://www.jewishvirtuallibrary.org/bar-giora (accessed, 15.3.2018).

إذاً، بمجرد الوقوف أمام التسمية والشعار والهدف، يتضح أمامنا قناعة المؤسسين بضرورة ممارسة وإظهار العنف، لكونه أهم أداة لتحقيق أهداف التنظيم، الذي يعبر عن مسار لتحقيق أهداف الاستيطان. كما أدرك المؤسسون بأن العنف داخل المشروع الاستيطاني، و المتضمن على موقعية المستوطن، لا يجدي في كمونه، ويجب أن يظهر في إطار منظم يعيد إنتاجه الموجه ضد السكان الأصليين، لتعميق وجود البنية الاستيطانية، وتسهيل تحقيقها للهدف الاستيطاني الكلي في إقصاء الفلسطينيين، والسيطرة عليهم.

من بارغيورا إلى هشومير

مع نهاية العام 1908، كان النقاش داخل بارغيورا يشتد حول تفعيل الحراسة والحصول على المزيد من المستوطنات، وفي الاتفاق حول حراسة مستوطنة مسحة قُرر إدخال العمل العبري كمبدأ من أجل إنجاح الحراسة[253]. فقد اعتمد التنظيم الربط بينهما –العمل والحراسة– لتحقيق المنفعة المتبادلة، فكما ساعد احتلال العمل على فتح المجال لاحتلال الحراسة، كان العكس أيضاً[254]. ثم تطورت فكرة لدى المؤسسين بأن يتم تشكيل نقابة للحراسة، بحيث تكون قوية، وتؤسس –كما رأى شوحاط– كخطوة أولى لإقامة قوة مسلحة في البلاد[255]. وكما يوضح كيمرلينغ "في صيف 1908 اندلعت مجابهات بين أعضاء مستوطنة كفار تافور وحراسهم العرب، فهب العمال اليهود من المنطقة، بمن فيهم رجالات بارغيورا، لمساعدة المستوطنة. بعد هذه الحادثة انتقلت الحراسة لأيدي العمال اليهود، الذين تكتلوا حول نواة بارغيورا وأصبحوا اتحادا لخدمة الحراسة اليهودية يدعى هشومير"[256]. بالتالي يظهر بأن التنظيم سعى لتوظيف كافة إمكانيات الدمج بين الحراسة والعمل، وتعزيز مكانته في استثمار حالات المواجهة العنيفة بين السكان المحليين، والمستوطنين، من أجل توسيع نفوذه، وتعميق مكانته، عبر كسب عقود حراسة، والتحول إلى مسار أكثر شموليه وقدرة على تحقيق أهداف التنظيم، والذي تمثل بنشوء هشومير.

يتناول جولدشتين ثلاثة عوامل أدت للتحول من تنظيم بارغيورا إلى تنظيم أوسع في هشومير وهي؛ أولا: الاستعداد الأيديولوجي والتكتيكي المتجدد لحزب بوعالي تسيون وقيادة بارغيورا بعد التحول في تركيا إثر ثورة "تركيا الفتاة" من العام 1908. وثانياً: صعود القومية العربية بشكل عام وفي فلسطين بشكل خاص، والتي أدت لتصاعد المواجهات والصراع على الأرض. وثالثاً: نجاح تنظيم بارغيورا قدم دافعاً لتطوير الممارسة

---

[253] يعقوب جولدشتين، مصدر سبق ذكره (بالعبرية)، ص25.

[254] عوزيال ليف، مصدر سبق ذكره (بالعبرية)،ص13.

[255] يعقوب جولدشتين، مصدر سبق ذكره (بالعبرية)، ص26.

[256] باروخ كيمرلينغ ويوئل شموئيل مغدال. مصدر سبق ذكره، ص 89.

مستقبلاً[257]. هذه العوامل تمثل التصوّر الصهيوني لتبرير تطور المسار الاستيطاني باتجاه ممارسة العنف، بحكم ادعاء بروز وعي قومي –مستورد– فلسطيني، أدى لمقاومة الاستيطان، لا بحكم بنية الاستيطان الإقصائية التي استدعت مقاومة السكان الفلسطينيين.

لقد "توقفت منظمة بارغيورا عن العمل في العام 1909 بناءً على قرار أعضائها، وأعلن عن البديل عنها وهو تأسيس منظمة هشومير"[258]. وكان "مؤسسوا وقيادة هشومير: اسحاق بن تسفي، يسرائيل جلعادي، يسرائيل شوحاط، والكسندر زياد. ولعب شوحاط دوراً كقيادة روحية وموجه سياسي للمجموعة في غضون وجودها"[259]. ويلخص جور ألوري كل مسار وعملية التحول قائلاً:

> **في 12 أبريل 1909، اجتمع مؤسسوا بار جيورا في كفار تافور، في الجليل الأدنى، لتوسيع صفوف نظامهم السري، الذي تأسس قبل عام ونصف، لإنشاء منظمة جديدة باسم هاشومر. وفي ذلك الاجتماع تقرر أن تستوعب منظمة هشومير أعضاء جدد في صفوفها، الذين يتحملون عبء الحراسة ويكون لهم تأثير على تجدد الييشوف في فلسطين. لهذا الغرض، طلب قادة الجمعية خلق الشروط المناسبة لتطوير الحرس العبري وتزويده بالتدريب الذي سيمكنه من التعامل مع التحديات المتوقعة في المستعمرات. ومنذ تأسيسها، حقق هشومير نجاحا كبيرا، وخلال ثلاث سنوات تمكن من تعزيز قبضته على المستعمرات. في ذروة المنظمة، لم يكن هناك أكثر من 300 حارس، وعدد قليل من الأعضاء العاديين الذين حلوا محل الحراس العرب في الموشافوت وأخذوا مكانهم في مزارع الكروم وفي الحقول وفي كل مكان كانوا في حاجة إليها. وبذلك، سعى التنظيم إلى تقليل الاعتماد على السكان المحليين، وتحمل المسؤولية عن مصير الييشوف.**[260]

بعد أن اجتمع أعضاء قيادة بارغيورا، قرروا اختيار "يسرائيل شوحاط، يسرائيل جلعادي، ومندل برتغالي" كلجنة قيادية للتنظيم الجديد، وكانت الهدف من إنشائها هو إقامة نقابة متخصصة للحراسة تتولى مسؤولية الحراسة بشكل مهني محترف في كامل الييشوف[261]. وفي حماية المستوطنات تم اعتماد آلية جديدة في الحراسة "لا مزيد من انتظار اللصوص داخل المستوطنة، لكن الخروج خارج حدود المستوطنة"[262]، كما تم إعادة استخدام شعار بارغيورا كشعار لمنظمة هشومير "بالدم والنار سقطت يهودا، بالدم والنار تقوم يهودا"[263]. وتم

---

[257] يعقوب جولدشتين. مصدر سبق ذكره (بالعبرية)، ص27.

[258] جوني منصور. مصدر سبق ذكره، ص88.

[259] Raphael Patai. ENCYCLOPEDIA OF ZIONISM AND ISRAEL, New York: Herzl Press,1971, p462.

[260] גור אלרואי، משרתי המושבה אורודנים גסי רוח? מאה שנה לאגודת 'השומר' – פרספקטיבה היסטורית. יד יצחק בן צבי، ד78، http://www.ybz.org.il/?CategoryID=185&ArticleID=6942#.Wilf91uCzZ5 (استخدم بتاريخ 9.12.2017). جور ألوري. عمال المستعمرة أم طغاة فظين؟ مئة عام على جمعية هشومير.

[261] حني زيو ويوئاف جلبر، مصدر سبق ذكره (بالعبرية)، ص28.

[262] المصدر السابق.

[263] المصدر السابق.

تقسيم الحراس بين حراس مشاة وخيالة، وحملوا السلاح الذي كان سائد في تلك الفترة، مسدسات وبنادق مع مخزن يحوي خمسة رصاصات، لذا اشتهروا أيضاً الحراس بلقب "أبو خمسة"[264].

إن الانتقال من تنظيم بارغيورا إلى تنظيم هشومير كنقابة تنظيمية، يعد استكمالا لمسار الحراسة، بفارق البدء بتجاوز الحدود التقليدية للمستوطنة، ومحاولة توسيع فاعلية الحيز الاستيطاني. بمعنى أن الحراس لن يقفوا فقط لحماية الحدود الاستعمارية، بل سيتم تجاوزها لملاحقة سكان محليين، تتهمهم بـ"السرقة"، لتكون فاعلية الحارس العملية بتجاوز الحدود. وهنا تأتي ضرورة الاستعراب، التي سأوضح مكانتها ودورها ضمن مشهد تنظيمات الحراسة.

التنظيم والاستعراب الصهيوني – الرومانسية/التعرف/التودد

لقد بنى تنظيم هشومير استراتيجية عمله استناداً إلى رؤيته لمستقبل الاستيطان في فلسطين، كمشروع متكامل يجمع بين ملكية الأرض والعمل والقوة المسلحة. بالإضافة لذلك كان الاستعراب هو أهم ممارسة لإنجاح الحراسة، وبالتالي التنظيم. فقد كان احتلال الحراسة بطرد الحراس العرب، واشتراط العمل العبري في المستوطنة[265]، يعني تطهير الحيز الاستيطاني من "الغرباء"، لكن كيف نفهم طرد الحراس العرب واستبدالهم بحراس يهود–مستوطنين مع الحفاظ على ذات المظهر "العربي"؟ أي طرد بناء على الهوية والعلاقة بالأرض، مع الحفاظ على المظهر الخارجي للحراسة والحراس، وكأن الاستعراب كان شرطاً لنجاح الإحلال. ومن أجل الإجابة على هذا السؤال، سأقدم قراءتي النقدية القائمة على موضعة العنف وبنية الاستعمار الاستيطاني أمام الروايات الصهيونية، والتي تقف عند ثلاث مفاهيم مركزية "الرومانسية–التعرف– التودد"، ومن خلالهم يتم وصف وتبرير ممارسة الاستعراب.

كنت قد ذكرت سابقاً بعض الروايات الأكاديمية – الصهيونية التي وضعت "الصراع" على سوق العمل كمفتاح لفهم تشكل ظاهرة تنظيمات الحراسة، في هذا السياق يقول كيمرلينغ: "كانت لدى المنظمة مفاهيم خاصة للغاية تخص طرق عملها. اعتقد أفرادها أنه لكي يتم تقديم خدمات جيدة للزبائن عليهم أن يستعربوا، تعلموا لغة العرب بل لبسوا الزي البدوي، ركبوا الخيول الأصيلة وتبنوا ظاهرياً عادات العرب(بنوع من الخليط المكون من ثورية اشتراكية عنيفة ورومانسية استشراقية)"[266]. هنا يقدم كيمرلينغ الاستعراب الصهيوني ضمن نطاق السعي للنجاح في سوق العمل، باعتبار أن المستوطنين هم "زبائن"، والحراسة هي خدمة تقدم من أجل

---

[264] المصدر السابق.

[265] يعقوب جولدشتين. مصدر سبق ذكره، ص29.

[266] باروخ كيمرلينغ ويوئل شموئيل مغدال. مصدر سبق ذكره، ص 89.

مقابل مادي، وصبغة الاستعراب نتجت عن مكون أيديولوجي "ثوري" ونظرة رومانسية استشراقية. إن تقديم الحراسة والاستعراب كخدمة مقابل مردود مادي، يعزل السياق التاريخي للاستيطان القائم على ظهور مجتمع استيطاني ومحو آخر، والاستعراب كجزء من الحراسة يوضح حاجة الحيز الاستيطاني للتمايز عبر الحدود، والتمظهر ضمن عقدة الأصلنة بالمظهر العربي من أجل السيطرة. وقد أوضحت سابقاً في نقاش الحراسة باعتبارها أحد مقومات البقاء الاستيطاني، والاستعراب كأحد أدوات الحراسة المبنية على عقدة طمأنة الذات والسيطرة[267].

ولتوضيح بنية الرواية الصهيونية في استخدامها لـ "الرومانسية- التعرف- التودد"، أقدم ما وصف به عاموس بلوفيشتين الاستعراب في كتابه عن المستعربين:

> **في أيام هشومير كان في الاستعراب الكثير من الرومانسية، وأوائل أعضاء هشومير أحبوا الظهور في صور وهم يركبون الخيل ويرتدون العباءة السوداء والكوفية، مع الشارب، ووشاح واسع عليه حزام الطلقات، والسيف. هم تحدثوا العربية النقية. عبر هذا التنكر تم تأسيس بداية القوة المقاتلة في الييشوف. كان منهم من خرج مع القطيع، من أجل أن يروا ويسمعوا ويفهموا. ومع الوقت بات الاستعراب مكتملاً. وتم فتح مضافات عربية في المستعمرات الكبرى ومراكز الحراسة. هكذا حرسوا في الحقول، ونجحوا في إقامة كمائن للصوص، وهكذا توددوا وتقربوا لجيرانهم**[268].

إن التركيز على وصف بداية الاستعراب ب"الرومانسية" كما قدم كيمرلينغ وبلوفشتين، يوضح عمق تصالح الرواية الصهيونية مع تصوراتها حول تاريخ الاستيطان. والتي تقف باستخدام أدواتها المعرفية وسلطتها من أجل تعزيز المحو والإنشاء انطلاقاً من موقعيتها، إذ أن واقع التطور التاريخي للاستيطان الإحلالي يشير إلى أن الاستعراب لم يكن رومانسياً ليكتمل لاحقاً، بل إن الاستعراب الصهيوني هو ممارسة ظهرت لتعزيز دور الحارس كحد يفصل بين المجتمع الاستيطاني والسكان المحليين من جهة، وكمحاكاة تمكن المستوطن من توظيف المعرفة من أجل الاختراق. كما أن الرومانسية بوصفها تناقض العنف، كانت ملاذاً للأدبيات الصهيونية في إخفاء الكامن من الاستعراب، وكأن ممارسة الاستعراب تشكلت بفضل الإعجاب بنمط حياة البدو، كما تناوله كيمرلينغ في تفسير الاستعراب عندما أكد أن اتخاذ مفهوم خاص لدى منظمة هشومير للثقافة العربية كان نابعاً من أسباب "عملية أو من خلال مفهوم رومانسي اختلط فيه عنصر "النبيل البدائي"، وخيالهم المتصور لحياة اليهود القدامى"[269]. إن مقاربة الاستعراب الصهيوني بالرومانسية وتصور العربي كـ" نبيل بدائي" لم تكن الدافع وراء اتخاذ الاستعراب منهجاً للحراسة، بل كان التصور نابع من الوعي المنفصل لدى المستوطنين

---

[267] انظر الفصل الثاني من الدراسة: ص17-ص21.

[268] عاموس بلوفوشتين. مصدر سبق ذكره (بالعبرية)، ص2.

[269] باروخ كيمرلينغ. مصدر سبق ذكره، ص153.

–المهاجرين من أوروبا، فكما يوضح سعيد قائلاً في وصف المستشرق من حيث الموقعية: "أن يكون المرء أوروبياً في الشرق يشبك دائماً أن يكون وعياً منفصلاً عن، وغير متساوٍ مع، ما يحيط به. بيد أن الشيء الأساسي الذي ينبغي أن يلاحظ هو نية هذا الوعي"[270]. وهذه مسألة بالغة الأهمية في فهم الاستعراب الصهيوني بالرجوع إلى موقعية المستوطن–المستعرب، والتي لا يمكن أن تستتر خلف ادعاء الرومانسية أو الاعجاب. فالموقعية هي أداة التفسير التي تبرز حد الثنائيات الاستعمارية وكيفية تشكل الاستعراب ضمنها يوضح بدوره الممارسة من حيث ارتباطها ببنية الاستعمار الاستيطاني، وموقعية المستعرب جسدت التمثيل من أجل المحو، وكما سأبين لاحقاً عبر تقصي العنف كمكون في الاستعراب الصهيوني، سينكشف أمامنا معنى الموقعية ودورها ضمن مسار الاستيطان الإحلالي في فلسطين.

تضيف أيضاً الموسوعة اليهودية بأن "شيدت هشومير مبادئها من خلال دراسة وثيقة للظروف في البلاد، طرق السلطة العثمانية وشخصية العرب البدو والفلاحين. الحراس تحدثوا العربية، وارتدوا زي خليط من لباس العرب والشركس، وحملوا أسلحة حديثة. بعضهم صار خبير في ركوب الخيل"[271]. وهنا تركز الرواية على أهمية المعرفة وفحص المحيط والتي يراد بها مرادفة الاستكشاف، باعتباره جزء من التجربة "الرومانسية"، والذي يحيلنا إلى رواية تاريخ الاستيطان الأوروبي وعصر ما أطلق عليه "الاستكشافات" للأراضي الموجودة خارج أوروبا، والتي كانت عصر الاستعمار الاستيطاني الذي يبدأ باستكشاف الأرض ومن ثم إبادة ومحو من عليها. وبهذا النمط أقرأ رغبة المعرفة الصهيونية لدى المستعربين–الحراس لا عبر فهم المحيط فقط، بل من خلال تمثيل الأصلاني، كخطوة تمهيدية باتجاه نفيه. وأعود أيضاً هنا إلى ما قدمه سعيد، في قراءته لفوكو حول علاقة المعرفة بالسلطة كقوة من أجل السيطرة[272]، والتي تعني المسح الجغرافي وجمع المعلومات، وتزويد الثقافة الاستيطانية بالمخزون المناسب من التصورات التي تقود للسيطرة الاستعمارية، وتكون عبر التمثيل، كما في الممارسة الصهيونية للاستعراب.

تتناول أيضاً، "موسوعة الصهيونية وإسرائيل" موضوع تنظيم هشومير والاستعراب، عبر توضيح غاياته في كسب ود واحترام السكان المحليين، وتقول:

> **في البداية كان مجمل أعضاء هشومير حوالي 30 فردا، وفي فترة لاحقة تجاوز العدد 100 عضو. كان قبول العضوية محدود ويتم عبر فترة اعداد، المؤهلات تضمنت الشجاعة الفردية، واتقان الفروسية، والانضباط الحاد. كان هدف هشومير حماية حياة وممتلكات المستوطنين، وإلهام العرب لاحترام اليهود، وفي نفس الوقت زرع علاقات ودية مع العرب وتعلم لغتهم وعاداتهم. خلال بضع سنوات من ظهورهم حصلوا على صيت**

[270] ادوارد سعيد. مصدر سبق ذكره، ص174.

[271] Encyclopaedia Judaica,p1370.

[272] انظر: ادوارد سعيد. مصدر سبق ذكره، ص63–80.

ذائع في الشجاعة والإخلاص والنزاهة. وهذا رفع من مستوى ومكانة اليهود في أعين العرب، وكان إلهام للشباب اليهودي في فلسطين والشتات. وخلال مواجهتهم مع اللصوص والنهابين العرب تحملوا الكثير من الخسائر[273].

يتضح أمامنا التركيز على فكرة "التعرف" و"التودد" أيضاً، وكلاهما ظاهر الاستعراب، أما ما يخفيه الاستعراب فهو العنف بغرض النفي والسيطرة. لتوضيح ذلك أورد ما تناوله جولدشتين حول موقف هشومير من المحيط العربي:

العلاقات بين تنظيم باغيروا وهاشومير، وبين المحيط العربي استمدت من الرؤية القومية الشاملة والهدف الذي أنشئت من أجله هذه التنظيمات، وهو حماية الأرواح والممتلكات. كما أوضح شوحاط بأن جزء من هذا الهدف هو المساعدة في الدفاع عن الييشوف اليهودي، وحراسة مقدراته القومية الخاصة من الجيران الغرباء. وأوضح شوحاط أن الحراسة العبرية حققت هدف إيقاظ نزعة تقدير والاعتزاز بالقومية لدى الشباب اليهودي، وهاشومير أيضاً ثبت وعزز موقف الييشوف أمام العرب الذين توقفوا عن مناداة أفراد الييشوف الجدد بـ"أولاد الميتة".[274]

كانت عقدة الظهور كالغرباء أمام المجتمع المحلي أزمة جسدها ادعاء شوحاط بأن الحراسة العبرية خلقت قيمة وتقدير للمجتمع الاستيطاني أمام السكان المحليين، لذلك استحضر المؤسسين نموذج الشركس كمثال يحتذى به من حيث كونهم أقلية مقاتلة لها احترامها ومكانتها[275]. وهذا النموذج يعزز بأن فكرة التودد لم تكن هدفاً، بل أن الحصول التدريجي على القوة هو الهدف. لذا كان الاستعراب أبرز أدوات التنظيم في شق طريقه داخل الييشوف، وأيضاً باتجاه ترسيخ نمط الحراسة كنموذج "مهاب" أمام السكان المحليين، والذي يعكس قدرة الييشوف على "الحماية الذاتية". ويصف جيل حسكين للعقيدة القتالية لهاشومير، والتي قامت على محاولة الاندماج في الفضاء المحيط والتحكم فيه، عبر التركيز على كفاءة الأفراد وتماسكهم، بحيث كانت هذه العقيدة مناسبة لحالة اليهود تحت الحكم العثماني الذي فضل العرب، بالإضافة لقلة الموارد المالية والقوى العاملة، لكن بالرغم من ذلك تمكن هشومير من إثبات قدرة اليهود أمام جيرانهم في حماية أنفسهم، وفهموا من أجل ذلك بأن عليهم أن يتفوقوا بالشجاعة والدهاء–المكر، وأن يتجنبوا التورط بأحداث قتل تجلب الثأر والانتقام، وهذا المزيج من المبادرة والحذر هو سمة مميزة فقط للجنود المحترفين والمنضبطين وأعضاء هشومير[276].

إن عرض تنظيم هشومير في ممارسته للعسكرة، عبر انتهاج "ضبط النفس" والحذر، يستكمل ادعاء التودد الذي قدمه الخطاب الصهيوني، والذي لا ينفي، بأي شكل من الأشكال، بنية التنظيم التي عكسها الشعار والهدف،

---

273 Raphael Patai, p462.

274 يعقوب جولدشتين، مصدر سبق ذكره (بالعبرية)، ص75.

275 المصدر السابق.ص15.

276 جيل حسكين. مصدر سبق ذكره (بالعبرية).

وكذلك الممارسات التي تدل بأن العنف كان مرتبط بسقف قدرة الاستيطان الصهيوني تحمل عبء النتـــائج، بالإضافة لعدم توفر موارد العنف، والغطاء السياسي والاجتماعي لذلك، لكن العنف بحد ذاته كـــان كامنـــاً خلف كل خطابات "الرومانسية، والتودد، والتعرف". والأهم بأن حتى مسعى معرفة – اكتشاف الســـكان المحليين عبر الاستعراب الصهيوني مثل محاولة لإنتاج معرفة حول المحيط المحلي من أجل السيطرة عليـــه كمـــا سأوضح لاحقاً.

من العنف إلى تنظيم العنف

استمر تطبيق نمط الاستعراب في ممارسة الحراسة، و"كان نموذج الحارس هو اليهودي حامل السلاح الذي يجيد اللغة العربية ويرتدي الزي العربي أو الشركسي"[277]، بالإضافة لذلك فقد "أخذ رجال هشومير قسطاً في عملية احتلال الأرض في أثناء استعمار أراضي مسحة 1909 ومرحافيا 1911"[278]. فقد استمر الاستعراب وأخذ هشومير دوراً مهماً في استكمال مسار الاستيطان الصهيوني، لا فقط عبر طرد العمال والحراس العرب، بـــل أيضاً في السيطرة على الأرض. من هنا يجب الارتكاز في فهم بنية العنف داخل التنظيم، أي من حيث توازيه مع مسار الاستعمار الاستيطاني في فلسطين.

يقدم جور ألوري في مقاله حول أزمة تأريخ تنظيمات الحراسة الأولى، مواجهة بين ادعاء قيادات هشومير في خطاباتهم، وبين ممارسة الحراسة التي أنتجت أزمة في البيشوف من حيث العنف، ووجود ممانعة من بعض لجان المستوطنات لعملهم، وصلت أحياناً لفك عقود حراسة وإنهاء العمل مع المنظمة. لتوضيح ذلك يقدم ألـــوري خطاب لشوحاط يوضح فيه سياق الاستعراب كممارسة من أجل "التودد" للعرب، ويقول فيه شوحاط:

> **أعطى هشومير اهتماما خاصا للعلاقات السلمية مع البيئة العربية. حاول هشومير إعطاء نمط جديد للعلاقات مع البيئة العربية. كنا نعلم أن العرب سيكونون جيراننـــا وســـيتعين علينـــا أن نجـــد طريقـــة " modus vivendi"[279] من أجل ملائمة حياتنا إليهم، تعلم أعضاء هاشومر اللغة العربية التي ساعدتهم على التوصل إلى تفاهم مع جيرانهم العرب، وأرادوا أن يتعلموا من العرب ما يمكن تعلمه منهم وحتى لو دعا ذلك لمكافئتهم. حاول الحراس ألا يكتفوا بالزيارات عند الأفندية والشيوخ فقط،لكنهم فضلوا "المضافات" من أجل أن يلتقوا هناك مع الفلاح العربي، وعابر الطريق والعامل. تعلم الحراس الحياة العربية وطريقة العيش في القرية العربية. في**

---

[277] عبد الوهاب المسيري. **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: نموذج تفسيري جيد 7**، القاهرة: دار الشروق، 1999، ص140.

[278] باروخ كيمرلينغ. مصدر سبق ذكره، ص153.

[279] "modus vivendi" استخدمها شوحاط بالعبرية "מודוסויוונדי" والتي تعني عمل تسوية بين مجموعتان من أجل التعايش. انظر : https://dictionary.cambridge.org/dictionary/english/modus-vivendi (استخدم بتاريخ: 15\3\2018).

كل مكان مركزي للحراسة، أنشأ هشومير غرفة ضيوف (مضافات) وكل عربي مر سواء ماشياً أوراكباً، غني أو فقير، عامل أو فلاح، استقبل هناك كما هو معتاد في المجتمع العربي.[280]

مقابل هذه الرواية، يقدم دان يهاف مداخلة نقدية حول مفهوم "طهارة السلاح"، وينطلق منها لكشف تورط الصهيونية بالعنف الموجه نحو فكرة التطهير العرقي، عبر تتبع الممارسة والنقاش داخل المجتمع الاستعماري الاستيطاني وقيادته. ولتعزيز ادعائه يقدم توثيق لأحداث عنف تكبد فيها الفلسطينيون خسائر بالأرواح والأراضي والممتلكات. ويؤكد يهاف بأن "رافق الارهاب اليشوف منذ بداية الاستيطان الزراعي والمدني اليهودي في فلسطين في نهاية القرن التاسع عشر، ومع بروز مشكلة الأمن للناس والممتلكات في اليشوف العبري الجديد، نفذت أعمال عنف كثيرة –واعمال انتقام إلى جانبها– في نهاية القرن على خلفية مشاكل أراض كثيرة، مثلاً في ريشون لتسيون، بيتاح تكفا، زخرون يعقوب، روش بينا، غديرا، خضيرة"[281]. وضمن الكشف عن بدايات ممارسة العنف المنظم يقول يهاف: "لقد عمل رجال منظمة هشومير في حراسة المستوطنات في الجليل الأسفل، ويهودا والسامرة، وأكثر من مرة شاركوا في شجارات استخدم فيها الضرب واطلاق الرصاص بين الطرفين. ومنذ السنة الأولى لإنشائها اهتمت منظمة هشومير في احتلال الاراضي، ولتنفيذ هذه المهمة، وقعت عدة حوادث دموية، وظهرت في عدد من المستوطنات توجهات معارضة لنشاطات هشومير وأساليبها، وخاصة فيما له علاقة بتوجه المنظمة نحو العرب"[282].

بالإضافة لمداخلة يهاف، يقدم ألوري أدلة على عنف تنظيم هشومير والمستعربين – الحراس، والتي يقول بأنها مؤشرات على وجود رواية تاريخية أخرى غير التي قدمها التنظيم. ومن أجل ذلك يسوق ألوري حادثة قرية "زرنوقة" بالقرب من مستوطنة رحوفوت، والتي حرسها تنظيم هشومير، حيث وقعت اشتباكات في 23 يوليو 1913 بين سكان القرية والحراس، نتج عنها مقتل حارسين وواحد من سكان القرية. إثر ذلك وقعت سابقة في طرد هشومير من المستوطنة بعد قرار لجنة المستوطنة إثر هذه الأحداث[283]. يعلق ألوري على تباين الروايات بين المستوطنين سكان المستوطنة المعارضين لسياسات هشومير، والتنظيم نفسه، والسكان المحليين الذين احتجوا ورفعوا للباب العالي في اسطنبول مذكرة احتجاج على الحادثة.

من هنا، يتضح أن رواية هشومير حول الحادث، ورواية شوحاط حول الاستعراب كتودد وإقامة علاقات جوار طيبة مع السكان المحليين، لم تكن إلا غطاء لفكرة القوة المقاتلة في اليشوف، والتي تنطلق من الهدف القومي في الاستيطان. وكما يظهر في ادعاء شوحاط بأن الحراسة ضرورة لكسب تقدير السكان المحليين لأبناء اليشوف، ودعم موقف اليشوف عبر القوة، كان الاستعراب والحراسة عبر التنظيم محاولة لاحتكار العنف في اليشوف، وهذا يتجلى في معارضة مستوطني الهجرة الأولى للتنظيم بسبب: الأجور وتكاليف الحراسة العالية،

---

[280] جور ألوري. مصدر سبق ذكره (بالعبرية)، ص102.

[281] دان يهاف. طهارة السلاح: أخلاق واسطورة وواقع. ترجمة جوني منصور، رام الله: مدار، المركز الفلسطيني للدراسات الاسرائيلية. ص24.

[282] المصدر السابق، ص25.

[283] جور ألوري، مصدر سبق ذكره (بالعبرية)، ص85.

أزمة الاحتكاك مع المحيط العربي، انغلاق التنظيم ونزعته للسيطرة[284]، يقول كيمرلينغ أيضاً: "بعد فترة ازدهار قصيرة نشأت توترات بين أعضاء هشومير ورجال المستوطنات-زبائنهم- الذين شكوا بأنهم يحاولون السيطرة مدعين أن تكاليف الحراسة عالية، وأنها تتسبب باحتكاكات مع عرب المنطقة"[285]. هذه الرواية التي تحجب معاني البنية الاستيطانية، وتبرز حالة "الصراع" الداخلي، على حساب إخفاء الثنائية الاستعمارية، كمحاولة لتطبيع مسار الاستيطان الصهيوني، توضح كيف تم صياغة تاريخ الاستعراب بمعزل عن تاريخ عنف الاستيطان وإقصاءه.

وبالإضافة للرواية السابقة لشوحاط، سأستعرض في المقابل رواية أخرى له، وهي عبارة عن رسالة موجهة لقيادة البيشوف في العام 1914، والتي احتوت على تصور ورؤية التنظيم لإنشاء خطة "دفاع" شاملة تغطي كامل البيشوف. ويقول فيها شوحاط:

> **منظمة (هشومير)، والتي حالياً فاعلة منذ خمس سنوات، ومنذ تأسيسها، وضعت هدف مساعدة البيشوف ضد جيرانه. لكن وظيفتنا لم تكن لتقتصر على ذلك في أن تحمي مجموعة صغيرة من الشباب اليهود ممتلكات المستوطنات. وكان هدفنا في نفس الوقت غرس الشعور والوعي لدى المزارعين والعمال بأنهم هم، وفقط هم، من يستطيعوا حماية أنفسهم وممتلكاتهم. وفي سبيل تحقيق هذا الهدف فعلنا ما نستطيع مع نتائج معروفة. تحت الظروف السياسية الراهنة، أصبحت الحاجة المستمرة للدفاع عن البيشوف بشكل مضاعف. نحن في مرحلة من التحول ضمن قوة الحكومة العثمانية الآخذة بالضعف، وقد يكون هناك تغييرات محددة غير متوقعة في المستقبل القريب. هناك أيضاً البعض منا من يشعرون بخطر الهجوم من جيراننا. لكن مهما كانت الحالة، فإن ضعفنا ونقص قوتنا الآن بات واضحاً، ولذلك فإننا نشعر الآن، في هذه اللحظة السياسية الحرجة، بأنه حان الوقت لإعطاء اهتمام خاص بذلك ولتقوية الدفاعات في المستوطنات في أرض إسرائيل. أنه من واجبنا المباشر أن نعترف بأن قوتنا المادية في أرض اسرائيل هزيلة جداً. أن التنظيمات المختلفة وقياداتهم لم يبدو أي اهتمام حقيقي بهذا الجانب، ونحن كنتيجة لذلك نعاني، وقد نعاني أكثر. المنظمة الوحيدة التي كانت فاعلة واهتمت بهذا الجانب هي منظمة هشومير. وليس من نيتنا أن نبالغ في تقدير منظمتنا. نحن لا نريد أن نتباهى بقوتنا وأفعالنا، وكل ما فعلناه وكل ما امتلكناه مثل قطرة في محيط بالمقارنة مع عجزنا وما يجب فعله. مع ذلك يجب أن نتذكر شيء واحد: أن الجودة هي التي تهم وليس الكمية العددية. عدد الحراس اليهودي بشكل عام، وعدد أعضاء منظمة هشومير بشكل خاص، لا يزال قليل جداً، لكن هذه المجموعة الصغيرة منظمة ومعتادة على الانضباط والالتزام ومخصصة لعملها، كما هو مبين بالعمل في أكثر من مرة. منظمة هشومير هي نقطة الاتصال الطبيعية القادرة على تنظيم دفاع البيشوف في أرض إسرائيل. هناك سبب أخر ومهم لذلك متعلق بمؤامرة. أي منظمة جديدة سيتم ملاحظتها ستثير مخاوف غير لازمة في أوساط شعبنا وجيراننا. لا يمكن للمرء أن يثق بالمزارعين في هذا الصدد، سوياً الحكومة والسكان العرب أصبحوا معتادين على منظمة هشومير وعلى مر السنين اعتادوا رؤية الحراس اليهود المسلحين دون أن يجدوا ذلك مثير للريبة. مبدأ الدفاع الذي نعرضه هو:**

---

[284] المصدر السابق،ص 84.

[285] باروخ كيمرلينغ ويوئل شوئيل مغدال.مصدر سبق ذكره، ص 89.

الدفاع له ناحيتان، نشط (فاعل) ومحتمل (كامن). النشاط اليومي للدفاع حالياً في يد الحراس اليهود العاملين في المستوطنات تحت قيادة منظمة هشومير. هذه المنظمة، لذلك، يجب أن تأخذ على عاتقها مسؤولية الدفاع في البيشوف. لكن بالإضافة للحراس الفاعلين والذين دوماً مسلحين نحن بحاجة لقوة احتياط، والتي من شأنها تقوية القوات الفاعلة. نموذجنا أنه في أوقات الخطر كل المزارعين والعمال قادرين على حمل السلاح سيشاركون بشكل فاعل في الدفاع. يجب أن نوجه طاقاتنا لهذا الهدف في كل مستوطنة. يجب تنظيم هيئة دفاع محلية في كل مستوطنة والتي ستضم كل فرد ممكن ومزارع وعامل مؤهل لتحضيرهم وتدريبهم. إضافة لذلك يجب أن يكون هناك عدد مناسب من الأسلحة يستجيب لعدد الأشخاص التي تسطيع المستوطنة حشدهم لوقت الخطر. من الواضح أن كل الأسلحة التي تحتاج لعناية خاصة ستكون بأيدي منظمة هشومير. التأهيل الجسدي وتدريبات أخرى ستوفرها منظمة هشومير بالتنسيق مع لجان المستوطنة. وهكذا سنكون متأكدين أنه في وقت الخطر سيكون لدينا في كل مكان المئات من الشباب جاهزين للدفاع عن حياتهم وعن ممتلكاتهم[286].

لنقف عند أهم مكون أساسي لهذا الخطاب "الموقعية"، والذي يكشف عن بنية التنظيم وطموحه في استخدام العنف عبر تنظيمه وإعادة إنتاجه. بدايةً، يقوم شوحاط بتوضيح موقعيته ضمن الثنائية الاستعمارية، عندما يقول أن: دور التنظيم في مساعدة البيشوف ضد "حيرانه". الجيد في هذا الادعاء أن شوحاط يعترف بوضوح بهذه الثنائية، لكن معظم الكتابات الصهيونية التأريخية تحاول إخفائها عبر التركيز على الصراع الداخلي في البيشوف مع التنظيم، أو عبر خطاب "الدفاع الذاتي" كرد فعل. إن تركيز الرواية على جانب ممانعة المستوطنين لعبء عمل هشومير، وإظهار زاوية الصراع الداخلي في البيشوف حول مسألة العنف والعلاقة مع السكان المحليين، كما يشير كيمرلينغ بأن هشومير استمر في العمل وكسب عقود حراسة "رغم اعتراض قيادات البيشوف القديم على هذه الأنشطة لما تثيره من استفزاز للسكان الفلسطينيين"[287]، لا يعني ميل المجتمع الاستيطاني لرفض العنف خوفاً من إثارة المواجهة مع السكان المحليين، بل يجب أن يُقاس بالأساس من زاوية النتائج أيضاً، والتي تؤكد على نجاح تنظيم هشومير في تأسيس نواة القوة المقاتلة في البيشوف، والتي أفضت لقيام الهاجاناه والجيش لاحقاً، عبر التأسيس لفكرة القوة وأحقية احتكار العنف على غرار نموذج الدولة. وللتذكير فإن:"هشومير كان أول جسم في الحركة الصهيونية والبيشوف اليهودي الذي اعتقد بأن وجود منظمة يهودية كقوة مسلحة سيكون عامل حاسم لتحقق الصهيونية، ونموذجها كان إلهاماً للهاجاناه وحركة الشباب الطلائعية"[288]. حيث "رأى أعضاء هاشومير أنفسهم كنواة للجيش اليهودي في المستقبل"[289]. وتؤكد ذلك "موسوعة الصهيونية وإسرائيل" بأن هشومير ادعى حق حصري لحراسة المستوطنات اليهودية، هذه الحصرية وضعت التنظيم في

---

[286] Yigal Allon. The Making Of Israel's Army, New York: Universe Books , 1970,p129.

[287] عبد الوهاب المسيري. **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: نموذج تفسيري جديد 7**. القاهرة: دار الشروق، 1999، ص140.

[288] Encyclopaedia Judaica.p1371.

[289] Jewish Defense Organizations:hashomer, https://www.jewishvirtuallibrary.org/hashomer(accessed, 3.3.2018).

صراع مع المستوطنين القدامى[290]. وهذا ما وضحه شوحاط بشكل علني ومباشر في تسويق التنظيم ضمن أفضلية الإعداد والتجربة من أجل عمل دفاع شامل لليشوف، كما أن فكرة الدفاع الشامل هي مدخل مهم لفهم أمران رئيسيان: الأول، في إيمان هشومير بضرورة تنظيم العنف عبر احتكاره. والثاني، في وجود دافعية واعداد لمواجهة شاملة مع السكان المحليين، وهو ما يوضح الرغبة الاستيطانية في انتظار اللحظة التاريخية من أجل تنفيذ الهدم والنفي.

إن بنية التنظيم يجب أن لا تقرأ فقط من خلال الرواية التاريخية –الصهيونية "رواية هشومير"، بل بالضرورة عبر فهم الموقعية ومكون العنف في بنية الاستعمار الاستيطاني، وضمن فاعلية التمثيل والاختراق الهادئ للمستعربين–الحراس للمحيط المحلي. لقد مثّل خطاب "التودد" أحد وجوه حراك المجتمع الاستيطاني التراكمي والهادئ لنفي السكان المحليين من جهة، ومن جهة أخرى فإن تجربة طرد العمال والحراس العرب كانت تحتاج لموضعة لا تثير مواجهة السكان المحليين للاستيطان، لهذا مثّل هذا الخطاب أحد وسائل تمكين التنظيم من فرض سيطرة عبر حراسة تقود لاحتكار العنف، ومن ثم توظيفه لتحقيق هدف الاستيطان في فلسطين.

هشومير واستكمال مسار الاستيطان

يكشف تطور تنظيم هشومير، على نحو تعزيز الاستيطان الصهيوني، غاية التنظيم، والتي تتعارض كما أشرت سابقاً مع ظاهر خطاب "التودد". إن تتبع توسع تنظيم هشومير ونجاحه في كسب عقود للحراسة ، يبين أن نزعة الاستيطان الكولنيالي هي الميزان الذي يجب أن يوضع دائماً في الحسبان. فبعد إقامة التنظيم من العام 1909 و"خلال ثلاث سنوات تكلف تنظيم هشومير بحراسة سبعة مستعمرات، بالإضافة لإقامة مستعمرات على نمط نهج التنظيم"[291]. توضح ذلك "موسوعة الصهيونية واسرائيل":

> **دخل هشومير اتفاقات مع عدد من لجان المستعمرات في الجليل الأدنى، وتعهدوا حماية ممتلكاتهم من النهابين – اللصوص العرب مقابل رسوم سنوية. كل مستعمرة بعد طرد الحراس العرب، كانت تتزود بحراس يتبعون لقيادة وأوامر لجنة مركزية لهاشومير. في العام 1911 قام الصندوق القومي اليهودي بشراء أراض في وادي عزرايل، والتي قامت عليها مرحافيا لاحقاً، حيث دعا الصندوق القومي اليهودي هشومير لتولي مسؤولية الأرض وحمايتها من انتهاكات الجيران العرب. كذلك في 1911 خرج هشومير من نطاق الجليل لتحمل مسؤولية حراسة حاديرا وروحوفوت. في 1912 وقع هشومير اتفاق مماثل مع ريشون ليتسيون وبير يعقوف.**[292]

290 Raphael Patai. p462.

291 Encyclopaedia Judaica.p1370.

292 Raphael Patai, p462.

مع توسع نشاط التنظيم، وحيازته العديد من عقود الحراسة، بات الاهتمام في تأمين مستقبل اقتصادي للأعضاء من الضرورات لاستمرار عمل التنظيم[293]. حيث "لم يقتصر نشاط المنظمة على الحراسة، بل قامت بدور أساسي في إقامة المستعمرات الصهيونية في فلسطين، حيث أسست أول مستعمرة لها في تل عداشيم 1913 ثم الحقتها بمستعمرة أخرى كفر جلعادي 1916 ثم مستعمرة تل حاي 1918. كما كانت المنظمة أحد الأطر الرئيسية لتدريب العناصر العسكرية التي شكلت فيما بعد قوام منظمة الهاجاناه"[294]. يوضح ذلك أيضاً افراييم ومناحيم تلمي بقوله: "لقد كانت حركة هشومير في البداية حركة حراسة ودفاع، ولكن مع مرور الزمن ولدت بين أعضائها فكرة الدمج بين حياة الحراسة والدفاع وبين حياة العمل والاستيطان، وهكذا أسست أول قريتين لحركة هشومير وهما؛ تل عدشيم في عيمق يزراعيل وكفار جلعادي-تل حاي في الجليل الأعلى"[295].

إن نشاط هشومير في المشاركة في احتلال أراض عربية، وممارسة طرد العمال والحراس العرب، وإدخال العمل العبري كشرط لنجاح الحراسة، وإقامة مستوطنات خاصة بالتنظيم، والسعي لتنظيم العنف واحتكاره عبر محاولة صياغة خطة دفاع شاملة لليشوف، كل ذلك يوضح ادعائنا بأن تاريخ الاستعراب الصهيوني والمنظمات العسكرية الأولى، إنما هو تاريخ الاستيطان الصهيوني القائم على النفي/الإقصاء.

من العثمانيين إلى الانتداب

شكلت نهاية الحقبة العثمانية، والتي بدأت مع دخول الحرب العالمية الأولى 1914، منعطفاً بارزاً في حياة الاستيطان الصهيوني في فلسطين. وكان دور هشومير كمنظمة عسكرية، قد فرض الكثير من التساؤلات من قبل السلطات العثماني في حينه. وخلال فترة الحرب العالمية الأولى، أصبح العثمانيين ينظرون بشك حول نوايا اليهود في الوقوف إلى جانب القوات البريطانية[296]، كما تشير الرواية الصهيونية. حيث "رفض أفراد هشومير مطلب العثمانيين بحل أنفسهم والتجرد من السلاح وقرروا التحول للعمل السري"[297]. ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل اضطر التنظيم للعمل بشكل متخفي، حيث تم نفي اثنان من قياداتهم منهم إسرائيل شوحاط في العام 1915[298].

---

[293] المصدر السابق، ص463.

[294] عبد الوهاب المسيري. مصدر سبق ذكره، ص140.

[295] افرايم ومناحيم تلمي. مصدر سبق ذكره، ص159.

[296] Yigal Allon. 1970, p17.

[297] باروخ كيمرلينغ ويوئل شموئيل مغدال. مصدر سبق ذكره، ص 89.

[298] Encyclopaedia Judaica.,1972.p1370-1371.

كانت الضربة الأكبر التي تلقاه التنظيم، ليس فقط في موقف اليشوف اليهودي بشكل عام أمـــام الســـلطة العثمانية، بل بشكل خاص بعد اكتشاف شبكة التجسس (نيللي)، والتي وضعت اليشوف اليهودي ومنظمة هشومير في ضوء التضييق العثماني[299]. مع العلم بأنه "بعد وقت قصير من اندلاع الحرب العالمية الأولى، اقترح هشومير إنشاء فيلق يهودي ضمن الجيش التركي، ولكن العرض قوبل بالرفض من السلطات التركية. ومـــع ذلك استمرت في توجهها الموالي للأتراك، والذي وضعها في صراع مع شبكة التجسس نيللي"[300].

نيللي، "اسم مختصر لـــــــِ(خلود إسرائيل حقيقة) وهو اسم اطلق على منظمة تجسس في فلسطين عملت إبان الحرب العالمية الأولى واقيمت عام 1915 لمساعدة الانكليز عن طريق التجسس على المعسكر التركي" [301]، تم اكتشاف الشبكة عام 1917 من قبل الأتراك، ومن خلال الصدفة أمسكت حمامة زاجلة من محطة التجارب في عتليت كانت تحمل خبراً للإنجليز[302]، فتم اعتقال أفراد الشبكة والتحقيق معهـــم وســـجنهم. عارضـــت هشومير نشاط شبكة نيللي التجسّسي، بسبب تعريضها مجتمع اليشوف للخطر، و"قرروا إعـــدام يوســـف ليشانسكي، أحد أعضاء شبكة نيللي الذي لاذ بالفرار، خوفاً بأنه في حال وقع بأيدي الســـلطات التركيـــة وصرح بأسرار الدفاع اليهودي. والذي حصل أن ليشانسكي وقع بأيدي السلطات العثمانية واعتراف بكل ما يعرف، ونتيجة لذلك تم استجواب 12 حارسا من منظمة هشومير في دمشـــق، وتم زج أربعـــة منـــهم في السجن"[303]. على أثر ذلك تم منع وملاحقة التشكيلات العسكرية وشبه العسكرية اليهودية، وفي ذات الوقت تم تشكيل كتيبة يهودية ضمن إطار الجيش البريطاني المحارب في الشرق الأوسط، هذه الكتيبة ضمت متطوعين من فلسطين بريطانيا وأمريكا، وتلقى فيها الشباب اليهودي أول فرصة لتدريب عسكري ضمن جيش نظامي وعلى معدات ذات فاعلية مهمة[304].

كانت شخصية المستعرب كمشهد مركزي في اليشوف، وحسب روايات الحراس الأوائل من المســـتعربين، ضرورة ارتبطت بمحاولة تطبيع الوجود الاستيطاني. و لم يكن تذبذب العنف، بين ادعاء "ضبط الـــنفس"، أو حتى "التودد" للسكان الفلسطينين، واللجوء لاستخدام القوة المادية، تناقضاً في تاريخ الاستعراب الصـــهيوني. حيث ستكشف السنوات اللاحقة في حقبة الانتداب، وما تبعها من مأسسة لتجربة الاستعراب، بتحويلها من تجربة أفراد وجماعة، إلى تنظيم، إلى جزء عضوي من بنية المؤسسة العســـكرية والأمنيـــة والسياســـية، بـــأن

---

[299] Yigal Allon. 1970, p17.

[300] Raphael Patai.,1971, p463.

[301] افرايم ومناحيم تلمي. مصدر سبق ذكره، ص312.

[302] المصدر السابق.

[303] Encyclopaedia Judaica.,1972.p1370-1371.

[304] Yigal Allon. 1970, p17.

الاستعراب الصهيوني كجزء من بنية الاستيطان، كان يتأثر ويتطور حسب الحاجة الاستيطانية والمعطيات الموضوعية التي تمكنه من تحقيق الغايات الاستعمارية في السيطرة والإقصاء. لذلك فإن نهاية الحقبة العثمانية، وبداية الانتداب البريطاني، كانت ذو تأثير واضح على الاستعراب الصهيوني، كما كانت ذو تأثير على كافة مسار الاستيطان. ومن هنا أتناول قراءة مشهد الاستعراب الصهيوني ضمن الصورة العامة لتطور الاستيطان وقت الانتداب، بالتوازي مع تضييق العدسة البحثية في تتبع تشكلات جديدة في الاستعراب خارج إطار الحراسة التقليدية للمستوطنات حتى العام 1920.

الانتداب البريطاني/خطاب "الدفاع" من حدود المستوطنة إلى حدود المشروع

كانت بداية الاحتلال البريطاني لفلسطين من العام 1917، تجسد مساراً جديداً للاستيطان الصهيوني. ما يهمنا في هذه الفترة هو فهم التحول في صياغة التنظيمات العسكرية، والذي أفضى لمساعي مركزة العسكرة في الييشوف، بمعنى ترجمة رؤية هشومير في تنظيم واحتكار العنف، عبر ولادة الهاجاناه من العام 1920. إن السياق التاريخي لإعادة صياغة "الدفاع" اليهودي، من منظمات الحراسة إلى منظمة الهاجاناه، هو إعادة موضعة العنف بالنسبة لموقعيته، أي إعادة تأطيره من حدود المستوطنة –في الحراسة– إلى حدود المشروع الاستيطاني، وهو ما أعني به سياق المأسسة. بموازاة ذلك يجب قراءة دور الانتداب كحاضنة استعمارية لبنية الاستعمار الاستيطاني الصهيوني، والتي مكنت الحركة الصهيونية من تشييد البنى الأساسية –سياساً وعملياً– من أجل إقامة الدولة في العام 1948، كما أن أحد أبرز هذه البنى هي القوة المادية –مأسسة العنف– التي تسعى لفرض السيطرة، والتي تضمنت إعادة إنتاج الاستعراب الصهيوني وفق حدود المشروع الاستعماري الاستيطاني في فلسطين.

خرج تنظيم هشومير من الحرب العالمية الأولى حاله كحال الييشوف اليهودي، إذ تشير الرواية الصهيونية إلى الأزمة التي تعرض لها الييشوف اليهودي أثناء وبعد الحرب العالمية الأولى، والتي أدت لإضعافه بشكل عام، كذلك كان الأمر بالنسبة لتنظيم هشومير[305]. فمع نهاية الحرب العالمية بات التنظيم أمام وضع مختلف خاصةً مع تساؤل المجتمع الاستيطاني حول جدوى الحراسة، في ظل سلطة انتداب مساندة، فقد "اعتقد كثيرون من اليهود أنه لم تعد هناك حاجة لوجود تنظيم عسكري كهذا بعد وقوع فلسطين تحت الاحتلال البريطاني"[306].

[305] يعقوب جولدشتين. مصدر سبق ذكره (بالعبرية)، ص80..

[306] جوني منصور. مصدر سبق ذكره، ص500.

لقد جسد الانتداب البريطاني الترجمة العملية لمساندة المركز الاستعماري الأوروبي للصهيونية، وتحديداً مع صدور اعلان بلفور في العام 1917، الذي قدمه وزير الخارجية آرثر بلفور إلى والتر روتشيلد، وتعهد فيه بالمساعدة في إنشاء الوطن القومي لليهود في فلسطين[307]. حيث كان "من أهم التغييرات التي ادخلها البريطانيون ليسهلوا عملية إنشاء وطن قومي تلك التي تتعلق بقوانين الهجرة وملكية الأراضي، فتمكن المهاجرون اليهود من الوصول إلى فلسطين بداية، ومن ثم تمكنوا من الحصول على الأراضي واستيطانها"[308]. بالإضافة لذلك، فقد اتضح للحركة الصهيونية بعد وقت قصير من بداية الانتداب، أن التوقعات لم تكن بمحلها، حيث "بقيت بريطانيا، فعلاً، عند تعهدها بإقامة الوطن القومي، ولكنها قلصت مضمونه، وأعلنت سياسة (الإلتزام المزدوج) تجاه العرب واليهود في فلسطين، ورفضت عدداً من الطلبات الاستثنائية التي تقدم بها الصهيونيون، خصوصاً تلك التي اقترحوا، بموجبها، تشكيل قوى الأمن في البلد، حاميات أو شرطة، من يهود ينبغي تعيينهم في مناصبهم بعد استشارة المؤسسات الصهيونية"[309]. وهذا لا ينفي استمرار دور الانتداب كحاضنة للمشروع الصهيوني في فلسطين، لكن وفق الرواية الصهيونية والتي تجمع عليها مختلف الأدبيات بأن تقصير الانتداب البريطاني في حماية اليشوف اليهودي بكليته، هو الدافع وراء إعادة تنظيم العنف ونشوء منظمة الهاجاناه كإطار مؤسساتي يغطي حاجة الأمن للمشروع الاستيطاني، ليس فقط حماية جزئية للمستوطنات. إن مثل هذا الادعاء يستند لتبرير الحاجة لمأسسة العنف بالتوازي مع ادعاء بروز وعي قومي لدى الفلسطينيين معارض للاحتلال البريطاني والمشروع الصهيوني، والمرتبط بموجة من الهبات المقاومة والمواجهات العنيفة، التي بدأت في العام 1920، فكان اعتبار أن "الصراع اليهودي- العربي لبس ثوب قومي"[310]، وفق التعبير الصهيوني حرفياً، مرتبط "بتغيير الموقف (وفق الرواية الصهيونية) بعد وقوع ثورة 1920 في فلسطين، حيث عمد زعماء الحركة الصهيونية واليشوف في فلسطين إلى منظمة هشومير وإقامة تنظيم أوسع قاعدة وأكبر عدداً وأكثر تسلحاً، وعرف هذا التنظيم بمنظمة الهاجاناه"[311].

وبالنسبة لمنظمة هشومير، والتي تعيد "المؤسسة الأمنية في إسرائيل" إنتاج نفس الرواية حولها، تقول:

بعد العام 1918 اعتقد كثيرون من اليهود بأنه لم تعد حاجة للدفاع اليهودي، ويمكن الاتكال على الحماية البريطانية، لكن التحريض من جهة العرب رفع شعور القلق لدى مجتمع اليشوف وتنظيم هشومير أيضاً. قيادة هشومير تناقشوا حول الوضع الجديد، وجزء منهم ذهب مع اقتراح إقامة الكتائب العبرية الأولى، وتجندوا

[307] Jewishvirtuallibrary, balfour declaration. https://www.jewishvirtuallibrary.org/text-of-the-balfour-declaration(accessed, 3.4.2018).

[308] رائف زريق. مصدر سبق ذكره، ص21.

[309] صبري جريس. مصدر سبق ذكره، ص136.

[310] حاني زيو ويوئاف جلبر. مصدر سبق ذكره (بالعبرية)، ص56.

[311] جوني منصور. مصدر سبق ذكره، ص500.

للخدمة في الشرطة التي أنشئت حينها. أرسل هشومير أفضل عناصره للخدمة في شرطة طبريا، والتي أشرفت على كافة مستوطنات الجليل السفلي. في ماي/أذار 1920، وبعد أحداث القدس، أيقن هشومير بـــأن إدارة الانتداب البريطاني عاجزة عن تغطية الحماية لليشوف اليهودي، وبناء على ذلك اجتمع أعضاء هشـــومير في مستوطنة تل عدشيم من أجل استكمال مسار الحراسة الذي كان قائم سابقاً، خاصة أن أعضاء هشومير كان لديهم خبرة في كيفية تنظيم الدفاع بشكل مستقل. وبعد نقاش كبير اتخذ القرار بحل هشومير لصـــالح إقامـــة منظمة دفاع شاملة[312].

يضيف كيمرلينغ بأنه مع تبدل سلطة الحكم في فلسطين، أثبتت سلطة الانتداب "أنها قادرة على فرض القانون والنظام، حتى خارج المراكز الحضرية انتفت، ظاهرياً، الحاجة إلى تنظيم يهودي للحراسة. ولكن هذه الفرضية أصبحت موقع شك عقب موجتي الشغب الأولتين اللتين قام بهما العرب- الفلسطينيون في الـــبلاد"[313]. إذاً، وبالعودة إلى تاريخ نشوء حركة الحراسة للمستوطنات الأولى، ولاحقاً تشكل تنظيم بارغيورا وهاشومير، تعاود الرواية الصهيونية إنتاج ذات النمط، حيث ادعت في الحقبة الأولى عجز العثمـــانيين مـــن تغطيـــة حاجـــة المستوطنات للأمن، والبديل هو تحمل هذه المسؤولية ذاتياً[314]. كذلك الأمر فترة الانتداب فإن الرواية تســـتند لنفس المعايير تقريباً، مع تغيير في الرؤية التي تواكب تطور الاستيطان، بمعنى التحول من فكرة حماية المستوطنة فقط، إلى حماية المشروع ككل.

إثر نتائج المقاومة الفلسطينية في العام 1920، "قرر المجلس الموسع أحدوت هاعفودا الذي انعقد في 18 أيار 1920، في تل عدسيم تفكيك تنظيم هشومير، بينما قرر مؤتمر الحزب الذي انعقد بعد مرور نحو شـــهر في مستوطنة كينيرت إقامة تنظيم يكلف بتنظيم شؤون الدفاع وضمان المضمون القومي والاجتماعي "للـــدفاع الشعبي" في البلاد بواسطة تنظيم عصبة من الشغيلة مهمتها الوقوف بالمرصاد إزاء كل قضايا الدفاع، وتشكيل كتائب لهذا الغرض، ومن خلال المشاركة في الشرطة البريطانية أيضاً"[315]. وهذا يوضح تماماً، التحول من فكرة حماية المستوطنة، إلى فكرة "دفاع" تغطي كامل اليشوف، وحينها التحق أفراد من هشومير بالفيلق اليهودي، وأخرون التحقوا بالشرطة العاملة في الجليل. و"في غضون ذلك كانت مطالبة من بعض قادة اليشوف لإنشاء قوة دفاع منظمة ذات طابع ملتزم بسلطة معترف بها من قبل سلطات اليشوف. في 15 يونيو 1920 أخـــذ حزب أحدوت هاعافودا مسؤولية إعادة تنظيم الدفاع، وهشومير لم تعد جسماً منفصلاً، وأعضائها كان لهم دوراً ومساهمة بارزة في إقامة دفاع اليشوف الجديد."[316]

---

[312] حاني زيو ويوئاف جلبر. مصدر سبق ذكره (بالعبرية), ص59.

[313] باروخ كيمرلينغ. مصدر سبق ذكره، ص 154-155.

[314] انظر الفصل الثاني حول سياق ومبررات الحراسة، ثم بدايات تنظيمات الحراسة: ص52-58.

[315] باروخ كيمرلينغ. مصدر سبق ذكره. ص 156.

[316] Encyclopaedia Judaica.,1972.p1371.

تضيف الرواية الصهيونية على لسان ألون، بأنه مع دخول الانتداب البريطاني فلسطين وتشكل الييشوف تحت ظروف جديدة، "بدأت ولأول مرة التوترات السياسية بين العرب واليهود لتصبح مستقبل دائم ومستمر للحياة في فلسطين، والوضع الجديد أثر على نمو التنظيمات العسكرية اليهودية"[317]. مثل هذا الادعاء الـــذي يضـــع السكان المحليين والاستيطان الصهيوني بالتوازي أمام سلطة الانتداب، ويسعى لتطبيع السياق التاريخي لنشـــوء إسرائيل من العام 1948. كما سيتردد مثل هذا الادعاء كتبرير لتطور العسكرة تحت ظل الانتداب، خاصة في تناول مقاومة الفلسطينيين "كأحداث شغب" أو "صراع" أو "حرب داخلية". ولتوضيح ذلك أقدم كيف فسر ألون نشوء الهاجاناه، والتي تعتبر بداية نهاية تنظيم هشومير، ويقول ألون:

> **فترة "الحرب الداخلية" من العام 1920–1939 شهدت سلسلة من الهجمات العربية علـــى المســـتوطنات والتجمعات اليهودية، والتي أصبحت تدعى بحالة (الشغب العربي)، وكانت على شكل دورات كل منها كان أكثر اتساعاً وعسكرة من التي قبلها. وكان هنالك ثلاثة صراعات مركزية :في 1921، و1929 و1936–39. البريطانيون حينها سعوا لفرض النظام والهدوء، لكن في بعض الأحيان كانوا يأخذون الحياد، وحتى عند التدخل من أجل المساعدة كانوا يحتاجون لساعات من أجل الوصول أو في بعض الأحيان لأيام حتى يتم فرض هدوء في منطقة المواجهة. هنا وجد اليهود بأنهم لا يمكن أن يعتمدوا فقط على ســـلطة الانتـــداب البريطـــاني وحدها، ولم يكن بديل عن حاجة تطوير التنظيمات الجنينية العسكرية الخاصة بهم، الـــتي تمخضـــت بـــولادة الهاجاناه**[318].

تمكنت الحركة الصهيونية من تحقيق نموذج عسكري–أمني مع بداية الانتداب البريطاني، تمثل بالهاجاناه كحاجة تحقق متغيرات الواقع الاستيطاني. وكانت الرواية الصهيونية كما عرضتها، تستخدم مفـــردات "المواجهـــة، والشغب، والعنف" كتبرير لبروز الهاجاناه، وتطبيع لرواية الاستيطان الصهيوني بمعزل عن بنيته. لذا أعادة هذه الرواية إنتاج خطاب ضرورات الاعتماد على الذات بتوسيع فكرة "الدفاع عن المستوطنة" إلى الـــدفاع عـــن المشروع. إن هذا التحول في الانتقال من فكرة حدود المستوطنة إلى حدود المشروع الاستيطاني، هو الركيزة الأساس لفهم كيفية تحول الاستعراب الصهيوني بعد الانتداب البريطاني.

ولادة الهاجاناه والصراع من أجل حدود المشروع

منظمة الهاجاناه؛ هي القوة العسكرية الرئيسية في الييشوف اليهودي خلال مرحلة الانتداب البريطاني، وأشرف على تأسيسها وإدارتها كل من مؤسسات الييشوف والحركة الصهيونية العالمية[319]، وكان الهدف من تأسيسها

---

[317] Yigal Allon.1970,p17.

[318] المصدر السابق، ص18.

[319] جوني منصور، وفادي النحاس. **المؤسسة العسكرية في اسرائيل (تاريخ، واقع، استراتيجيات وتحولات)**. رام الله: مدار، المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية، 2009، ص29.

كما أعلنت المنظمة "خدمة الأمة والييشوف والحركة الصهيونية عامة في الدفاع عنها أمام الأعداء. وهذا ما يؤكد بوضوح الأسس الصهيونية المتمثلة بالاستيطان وتطويره ليتحول إلى كيان دولة"[320]. وفي مقابل هذا الهدف، أُعيد قراءة الهدف من نشوء الحراسة والمستعربين الأوائل، والذي تمحور حول اعتماد اليهود على أنفسهم في تحقيق الأمن بمعزل عن السلطات العثمانية[321]، كذلك الأمر بالنسبة لتنظيم بارغيورا وهشومير، اللذان تركز هدفهم بحماية الييشوف ضد جيرانه، حسب تعبير شوحاط، وعرض خطة دفاع شاملة[322]. إذاً يتضح بأن فكرة "الدفاع" تطورت حسب تطلعات وآفاق الاستيطان وحاجاته، وتحديداً في إدراك حتمية الاصطدام بالسكان الفلسطينيين من أجل نفيهم والسيطرة عليهم، كتعبير عن مركزية الحدود الاستعمارية التي نشأت منذ بدايات الاستيطان الصهيوني. وضمن هذا الفهم سأقدم قراءتي لكيفية تطور منظمة الهاجاناه، وتحديداً دور هشومير فيها، من ناحية إعادة إنتاج العنف حسب حدود المشروع الصهيوني.

كان تنظيم هشومير من أبرز الداعين، بعد بداية الانتداب البريطاني، لإنشاء قوة مركزية واحدة ترعى شأن الدفاع في كافة الييشوف. وكما ذكرت سابقاً، فقد قدم شوحاط بداية الحرب العالمية الأولى مقترح دفاع شامل لقيادة الييشوف، واعترف فيه بضعف القوة المادية لليشوف أمام جيرانه، وبالتالي الحاجة لتطوير ذلك، خاصة أمام متغيرات سياسية محتملة تتعلق بحكم العثمانيين[323]. و"عندما شُكلت الهاجاناه 1920، دُعيت هشومير للانضمام للهاجاناه، على أثر لك اندلعت نزاعات كثيرة داخل صفوف هشومير، فالكثير من أعضاء هشومير كانوا يعتقدون أن التحكم وإدارة قوة الدفاع اليهودية هو حق حصري لتنظيم هشومير. لكن قرر رسمياً حل التنظيم الذي احتفظ بسلاحه في مستوطنة كفار جلعادي"[324]. وبعد أقل من شهر على اتخاذ قرار هشومير بحل نفسها، عقدت أُحدوت هاعفودا المؤتمر الأول في حزيران 1920، والذي تقرر فيه تشكيل لجنة خماسية لإدارة الهاجاناه، تألفت من يسرائيل شوحاط، ويوسف نحماني، يسخار سيطكوف من هشومير، بالإضافة لإلياهو غولومب ودوف هوز من جنود الكتائب اليهودية المسرحين[325]. بعد بداية هذا التشكيل، برزت صراعات داخل الهاجاناه على صعيد الإطار المؤسسي، حيث ادعى رجال هشومير أحقية لقيادة التنظيم وفق خبرتهم، وكان الخلاف حول "طريقة تنظيم الهاجاناه وأسلوب عملها"[326]. هذا الصراع سيشكل سمة

---

[320] المصدر السابق، ص30.

[321] Yigal Allon. 1970,p 16.

[322] المصدر السابق.

[323] المصدر السابق.

[324] Raphael Patai. 1971, p463.

[325] صبري جريس.مصدر سبق ذكره، ص139.

[326] المصدر السابق.

بارزة في تطور الهاجاناه، والتي نتج عنها سلسلة انشقاقات من داخل المنظمة، تمحورت في كاملها على كيفية الرد على أحداث المقاومة الفلسطينية بدءاً من العام 1920. وكما يشير دان يهاف فقد:

قامت مجموعة من قدامى هشومير التي انشقت عن الهاغاناه بإنشاء تنظيم عصابي باسم "هكيبوتس" (هشومير) في العام 1922، واطلق عليهم معارضوهم (جماعة شوحاط) نسبة إلى زعيمهم، يسرائيل شوحاط. "هكيبوتس" كانت عصابة تابعة لفرق العمل، وكانت مسؤولة عن أمن فرق العمل، واستخدم أعضاء العصابة مستوطنات الفرق قواعد لهم. وضمت المجموعة ما بين 60–70 عضواً، وسكن معظمهم في كفار غلعادي. يسرائيل شوحاط ذاته أدار المجموعة من تل أبيب. ونفذت عصابة هكيبوتس في كانون الثاني 1923 عملية ارهابية قتل فيها ضابط الشرطة توفيق بك. وقام أعضاء نفس العصابة في تشرين الثاني من العام ذاته بسرقة 15 ألف ليرة استخدمت لشراء اسلحة من البلاد ومن أوروبا[327].

اعتبرت ثورة البراق 1929– الخليل، بمثابة فشل للهاجاناه، وفق الرواية الصهيوني الرسمية، ومن هناك بدأ العمل على إحداث تغييرات في الهاجاناه تضمن فاعلية تحقيق دفاع قوي لليشوف[328]. وكان فقط بعد هذه الأحداث، أن قام تنظيم هشومير "بتسليم جميع الأسلحة لمنظمة الهاجاناه"[329]. وهذا مؤشر على حجم الصراع داخل الهاجاناه، والذي استمر إثر النقاش على ضرورات ضبط النفس والرد، وكان سبب في حدوث انشقاق داخل المنظمة، وصل ذروته في العام 1931 بتأسيس الهاغاناه–ب[330]. والتي لاحقاً انفصلت عنها مجموعة أسست تنظيم "إيتسل" في العام 1937، كنتيجة لانشقاق آخر حول تنفيذ عمليات إرهابية ضد السكان العرب دون تمييز[331]. ويجمل يهاف سلسلة الانشقاقات قائلاً: "في موازاة الصراع المثلث بين الهاجاناه والانكليز والعرب في يافا نشطت في تل أبيب ويافا منظمات إيتسل وليحي، وخاصة المنظمة المقابلة (المنظمة ب)، وهي عبارة عن منظمة مستقلة انشقت عن الهاغاناه ثم ظهرت منظمة إيتسل. وبعد الانشقاق في الإيتسل ظهرت منظمة الليحي. كثف هذه المنظمات من الاعمال الارهابية ضد السكان العرب، مثلاً: اغتيال ممثلي جمهور، وقتل جماعي، وخطف، وحرائق، وتفجير مبان"[332]. إن مجمل سياق هذه الانشقاقات، كما ذكرت سابقاً، كان يستند إلى الصراع الداخلي حول مستوى ممارسة العنف ضد السكان الفلسطينيين، وضد أهداف بريطانية. وهذا يحيلنا لفهم هذا الصراع، لا من زاوية "لقاء" ثلاث مكونات مختلفة "عرب، ويهود، وانجليز" ضمن دائرة نزاع، كما يوضح يهاف وكيمرلينغ، بل من زاوية فهم السياق التاريخي لوجود حاضنة استعمار بريطاني لبنية الاستعمار الصهيوني، والذي يسعى للاستفادة قدر الإمكان من سلطة الانتداب، لتحقيق مكاسب

---

[327] دان يهاف. مصدر سبق ذكره، ص28.

[328]. حني زيو ويوئاف جلبر. مصدر سبق ذكره، ص75.

[329] افرايم ومناحيم تلمي. مصدر سبق ذكره، ص160.

[330] باروخ كيمرلينغ.مصدر سبق ذكره، ص 158.

[331] المصدر السابق، ص 160.

[332] دان يهاف.مصدر سبق ذكره، ص41.

على الأرض تسهل من إقامة الدولة. وهذا يعني بأن وضوح رؤية الصهيونية لمستقبل مشروعها في إطار نمط الدولة القومية، جعلها تعيد تعريف العنف وممارسته ضمن حدود هذا المشروع، لذلك أُفسر الصراعات داخل الهاجاناه استناداً لتباين رؤية حدود المشروع، وبالتالي أنجع الطرق لتحقيق ذلك، واستناداً له سأقدم قراءتي عن إعادة صياغة الاستعراب الصهيوني ضمن إعادة تشكيل العنف وفق حدود المشروع الصهيوني.

الاستعراب الصهيوني، الاستشراق، الطريق نحو المأسسة

ذكرت سابقاً بأن الصراع داخل المنظمة العسكرية في الييشوف، خضع لسؤال العنف ضمن حدود المشروع بدل حدود المستوطنة، وكان الانتداب هو الحاضنة لإعادة موضعة العنف مع وضوح رؤية الهدف القومي الصهيوني. وقصدت عبر ذلك بأن أُبيِّن السياق التاريخي، الذي يجب الاستناد عليه لفهم دور الاستعراب الصهيوني. كما لم يُعد الاستعراب الصهيوني وقت الانتداب، ينحصر في الحراسة، كجزء من المنظمات العسكرية الأولى، أو في ممارسة المحاكاة بشكل فردي بتقليد السكان المحليين، كحاجة من أجل البقاء الاستيطاني. ودخل حينها مرحلة جديدة في توظيفه من أجل الأهداف الأمنية –الاستخباراتية، والعسكرية أيضاً، ضمن مركزية احتكار وإدارة العنف، وعبر نهج المأسسة كوسيلة أساسية لاستكمال مسار المشروع الصهيوني. ولا اعتبر هذا التطور كتحول مركزي غير من مضمون الاستعراب الصهيوني، بل من خلال مناقشتي السابقة لمكانة الاستعراب في بنية الاستيطان، وكيفية بناء الحدود عبر العنف والتمثيل، أؤكد على بقاء هذا المضمون، مع إعادة إنتاج الممارسة ضمن نمط المأسسة الاستشراقية في الطريق نحو إقامة الدولة، ولتوضيح ذلك سأقدم قراءة كل من هيليل كوهين وغيل إيال لدور المستعربين في الفترة الواقعة بين العام1920 وحتى تأسيس البالماخ في العام 1941، بحكم تناولهم لهذه الفترة من منظور إعادة إنتاج الرواية الصهيونية أكاديمياً. ومن ثم سأقدم قراءتي المبنية على فهم دور المستعربين في هذه الفترة باعتبارهم دخلوا حقبة جديدة من المأسسة، تركزت في إنتاج معرفة استعمارية بهدف السيطرة، والتي تمثّل بذور مستقبل الاستعراب الصهيوني في ممارسة الاختراق عبر التمثيل ضمن مؤسسة أمنية استشراقية.

يشير هيليل كوهين، في كتابه "جيش الظل" بأنه وفي عقب الانتداب البريطاني كانت الحاجة الاستخباراتية – الأمنية قد تبلورت ضمن العلاقة مع مقاومة المشروع الصهيوني، و"كلما ارتفعت معارضة الصهيونية، ازدادت حاجة الصهاينة إلى جمع الاستخبارات –السياسية والعسكرية – المتعلقة بالتوجهات العامة، وبخطط عمليات الحركة القومية الفلسطينية، كما أنشطتها السياسية. جاءت الخطوة الأولى مباشرة، عقب الاحتلال البريطاني،

بتأسيس جهاز مخابرات لتجنيد عملاء عرباً ومخبرين"[333]. فقد كان تجنيد المخبرين بالإضافة لدور المستعربين أحد أبرز وسائل جمع المعلومات حول مقاومة الفلسطينيين، ويسلط كوهين الضوء على الدور الذي لعبه المستعربون في تنفيذ هذه المهمة، خاصة بعد العام 1920:

> **أخذت الحركة الصهيونية في تطوير استراتيجيتها للرد على تلك العمليات، بهدف تشويه الشعور القومي وإعاقة تطوره في الداخل الفلسطيني. واتبع نشطاء الصهيونية، على اختلاف مستوياتهم، أسلوب مقاربة الشخصيات السياسية العربية، وإيجاد متعاونين عرباً. كان المستعربون في اللجنة التنفيذية للحركة الصهيونية، القوة المحركة لتحقيق ذلك الهدف، ومن بينهم حاييم مارجيوث، تاجر الأراضي المخنك التابع إلى رابطة الاستيطان اليهودي وصاحب العلاقات الطيبة مع العرب، وكان يعلوه في المرتبة فرديرك كيش، ضابط الاستخبارات البريطاني المتقاعد ورئيس القسم السياسي للجنة التنفيذية الصهيونية في فلسطين**[334].

ويشير كوهين للدور المبكر للمستعربين وأعضاء من الهاجاناه، في تعزيز توجهات معادية لسلطة المفتي الحاج امين الحسيني، من خلال عقد صلات مع خصومه[335]. وأرى بأن هذه الفترة تميزت بتركيز نشاط المنظمة الصهيونية، وذراعها العسكري الهاجاناه، على مواجهة المقاومة الفلسطينية، والتي كانت في مواجهة مزدوجة أمام سلطة الانتداب، ونشاط الحركة الصهيونية في الهجرة والسيطرة على الأراضي العربية. ارتكزت الهاجاناه على تشكيل قاعدة عسكرية عريضة لمواجهة مقاومة الفلسطينيين، وكان النشاط الاستخباراتي- الأمني، من أبرز المعطيات الجديدة في مواجهة الفلسطينيين.

و لم يكن تشكيل البنى الأساسية قد تم بعيداً عن تجربة تنظيم هشومير، كما يوضح كوهين، فقد حصل تنافس بين أعضاء هشومير وعناصر شبكة التجسس نيللي على الحصول على موافقة المنظمة الصهيونية تأسيس جهاز مخابرات لتجنيد متعاونين عرب[336]. "وقدمت عناصر هشومير اقتراحاً إلى الجمعية المنتخبة، يتضمن المواضيع الواجب جمع المعلومات حولها: تحديد الأراضي الواجب شراؤها، تأثير المسيحين ونفوذهم بصورة عامة على الأهالي، الحوادث الجارية بين البدو، ودراسة موقف العرب تجاهنا"[337]. كذلك فقد تقدم عناصر نيللي باقتراح موازٍ حازوا فيه على تنفيذ هذه المهمة، وهكذا تم تأسيس مكتب المعلومات التابع للجمعية المنتخبة[338].

---

[333] هيليل كوهين. **جيش الظل: المتعاونون الفلسطينيون مع الصهيونية 1917–1948**. ترجمة هالة العوري، بيروت: بيسان للنشر والتوزيع،2015. ص55.

[334] المصدر السابق، ص29.

[335] المصدر السابق، ص21.

[336] المصدر السابق، ص55.

[337] المصدر السابق، ص55.

[338] المصدر السابق، ص30.

والجمعية المنتخبة هي الهيئة المسؤولة عن الاستخبارات والأنشطة السياسية للسكان العرب[339]، والتابعة للهيئة التنفيذية للمنظمة الصهيونية.

لقد انعكست خبرة تنظيم هشومير على مساعيه لشغل دور في العمل الاستخباراتي، وكان الاستعراب الذي مارسه أفراد التنظيم هو المفتاح الذي رأوا من خلاله قابلية وقدرة على تنفيذ عمليات تجنيد، وصياغة رؤية أمنية استناداً لمعرفتهم بالمحيط العربي. هذا السياق في العمل، مثل مجالاً جديداً من حيث السعي لمأسسة وتشكيل المعرفة حول الفلسطينيين في إطار مؤسسة أمنية –استشراقية. كما أن بنية الهاجاناه هي إعادة إنتاج لدور تنظيم هشومير خارج حدود المستوطنة، ونحو ترسيم حدود مشروع الدولة. وبالعودة إلى مسار الأحداث التي نقرأ من خلالها تجربة الاستعراب الصهيوني، قدم كوهين مثالاً عن ممارسة الاستعراب في إطار المؤسسة، والذي وقع قبل ثورة البراق 1929، حيث قامت الهاجاناه بتجنيد جواسيس- مستعربين متطوعين، من داخل صفوفها، مستعدين للعمل داخل المناطق العربية، وكان من بين من تجندوا أيه.اتش. كوهن، الذي وافق فور تلقيه العرض، حيث "استدعاه يتسحق بن زيفي وأمره بترك عمله والبدء بجمع المعلومات. وأصبح كوهن خلال فترة وجيزة العمود الفقري للنشاط الاستخباراتي الصهيوني"[340]. ومن أهم أسباب "نجاح" كوهن في عمله، هو أنه اتسم بأسلوبين، هما: "سرية التجسس وتنكره كعربي، ثم الإشراف على المتعاونين"[341]، ويضيف هيليل مثالاً على أسلوب كوهن في العمل، ويقول: "عثر كوهن على مخابئ الأسلحة في غزة، فقد انطلق إليها بصحبة اثنين من مساعديه، بهويات مزيفه بصفتهم ممثلين عن اللجنة التنفيذية العربية، بذريعة فحص حالة السلاح في المدينة، ثم عاد ثلاثتهم إلى القدس بعد أداء مهمتهم، وقدموا تقريراً إلى بن زيفي بأماكن المخابئ، وفي اليوم الثاني عاد البريطانيون بعربتين محملتين بالبنادق"[342]. يمثل هذا النموذج بذور مستقبل الاستعراب الصهيوني القائم على الاختراق، والذي يعكس إطار المأسسة في توظيف الاستعراب لمهمات خارجية. من المهم الإشارة هنا إلى المسافة بين التجسس، والاستعراب. حيث يمثل التجسس وجمع المعلومات أحد مجالات الاستعراب في تلك الفترة، والاستعراب هو مظلة أوسع للعنف، والإقصاء، وكل أشكال السيطرة الممكنة، بما فيها جمع المعلومات.

بعد تشكل منظمة الهاجاناه، تم إعادة صياغة الاستعراب الصهيوني كمصدر للمعرفة الأمنية والمعلومات، بحيث استفادت الهاجاناه من تجربة الاستعراب باعتبارها مصدر معرفي، يقدم معارفه حول السكان الفلسطينيين، لخدمة أهداف المنظمة الأمنية والسياسة والعسكرية. يتناول غيل إيال جانب من تاريخ المستعربين قبل العام

---

[339] المصدر السابق، ص55.

[340] المصدر السابق، ص57.

[341] المصدر السابق، ص57.

[342] المصدر السابق، ص58.

1948، باعتبارهم منتج حصل بسبب "لقاء" الصهيونية مع المجتمع المحلي في فلسطين، في الفترة المبكرة للاستيطان، وعبر عنهم إيال كمهجنين سعوا "للتوسط" بين الصهيونية –كفكرة ومشروع من وجهة نظرهم– والسكان المحليين. وبموازاتهم وضع إيال دور المستشرقين، كمدرسة إنتاج معرفي بذات السياق –إنتاج معرفة عن "الشرق"– سعت بدورها للعب ذات الدور في "التوسط". ولاحقاً تمكنت الصهيونية وعبر بسط نفوذها الذي تحقق ذروته في العام 1948، من إنهاء دور المستعربين "كوسطاء"، وجعل الاستشراق انعزالي تجاه العرب. إن ذروة "الوساطة" كما يوثقها إيال كانت في إنشاء "بريت شالوم" ومعهد الدراسات الشرقية في ذات الوقت من العام1925، وكان الهدف هو ما أطلق عليه نشر "الهاسبرا"، والتي نعني "التفسير" لغوياً، وتشير إلى النشاط الثقافي– الاجتماعي في تطبيع الفكرة الصهيونية. خاصة في محاولة اقناع بعض الفلسطينيين من اتخاذ موقف أكثر مرونة تجاه الصهيونية[343]، عبر خطاب ثقافي يقدم الصهيونية "كتوسط" بين "الشرق والغرب"[344]. بالإضافة لذلك يُعرف إيال المستعربين، وهذا مهم لفهم موقعيتهم ضمن المؤسسة لاحقاً، بأنهم: "كل من تعلم اللهجة الفلسطينية من جيرانه، وأصبح قادر على تقليدهم، يمكن تصنيفه مستعرب"[345]. وفي توضيح آخر، يقول إيال: "في الواقع التحق بعض الحراس، الذين قلدوا البدو في الماضي، ثم عملوا مخاتير لمستوطنات يهودية، بأجهزة الأمن اليهودية شبه العسكرية، وأصبحوا مستعربين"[346]. بالتالي تتضح المسافة بين التعريفان، حيث اختزل الأول الاستعراب بالقدرة على التمثيل، وتوقف التعريف الثاني بالاعتراف بهم ضمن المؤسسة الأمنية فقط، أي أنهم كانوا يقلدون وقت الحراسة، وفقط عندما أصبحوا جزءا من المؤسسة الأمنية صاروا مستعربين. وعملياً، حسب ما أرى فإن هذا التوصيف سطحي، لأنه يختزل الاستعراب، وينفي بنية الاستعراب التي شكلت، وتشكلت، ضمن الحدود الاستعمارية، والتي أنتجت معارفاً استشراقية – استعمارية، هدفت لإخضاع الفلسطينيين. والاستعراب الصهيوني في هذه الفترة يوازي ويُفسر من خلال الاستشراق كمنظومة بنى معرفية تنتج خطاب سلطوي بهدف الإخضاع.

يشير إيال أيضاً إلى الصراع الدائر في المؤسسة الأمنية والسياسية بين المستعربين، والمستشرقين. حيث "تنافس طرفان في الصراع على النموذج المثالي للمعارف الاستشراقية قبل العام 1948، واقتسما أغلب إنتاج المعرفة الاستشراقية، ولم تكن نتيجة الصراع بينهما محسومة. في جانب أساتذة الدراسات الاستشراقية، في الجامعة العبرية، الذين تلقوا تعليمهم في الجامعات الألمانية، وفي جانب أخر المستعربون، الذين يتكلمون اللهجة

---

[343] غيل إيال. مصدر سبق ذكره، ص94.

[344] المصدر السابق، ص89-94.

[345] المصدر السابق ، ص95.

[346] المصدر السابق ، ص95.

الفلسطينية المحلية، ويشتغلون كمستشارين لدى القيادة السياسية"[347]. وكما يؤكد إيال، فقد انبثق المستعربون، كمجموعة تدعي امتلاك معارف استشراقية، من محاولة تطويع الوجهاء أصحاب العلاقات مع الفلسطينيين، من قبل القيادة السياسة للمنظمة الصهيونية. و"كان الوجهاء ينقصهم التعليم الأكاديمي الاستشراقي الأكاديمي، لكنهم يتكلمون العربية بلهجة فلسطينية، وكانوا بحكم أعمالهم كتجار، وأصحاب بيارات، وحراس، ومخاتير في المستوطنات العبرية، على اتصال يومي بالوجهاء والفلاحين الفلسطينيين"[348]. فقد تعلموا الحديث والتصرف على طريقة الفلسطينيين، واستطاعوا محاكاة حياتهم، "وبفضل هذه المحاكاة زعموا أن بإمكانهم فهم طريقة الفلسطينيين في التفكير، والتنبؤ بتصرفاتهم"[349].

يميز إيال بين جيلين من المستعربين، المستعربين الأوائل وهم فئة الوجهاء والتجار والحراس، الذين رغم شغلهم لأدوار في الاستخبارات وكمستشارين للقيادة السياسية، سعوا لموائمة تجربتهم في الاستعراب ضمن رؤيتهم للدور الوظيفي في المؤسسة. بمعنى أنهم اعتزّوا بوجهة نظرهم، انطلاقاً من ادعائهم معرفة عميقة بالعقلية العربية، و "لم تكن التقارير، بحكم نظرة المستعربين إلى أنفسهم، مجرد معلومات، بل كانت جزءا من حوار مع المركز السياسي، الذي توجهوا إليه بالشكاوى والتحذيرات، على طريقة الوجهاء مع السلطات العثمانية والبريطانية[350]. أما الجيل الثاني، وهم جيل ولدوا في فلسطين، ونشؤا ضمن الاحتكاك بالسكان المحليين، سواء بالزراعة أو العمل أو بحكم المجاورة، لعبوا دوراً بارزاً في الهاجاناه والبالماخ لاحقاً، ومنهم موشي ديان، وييغال ألون، واسحق رابين. وبحكم نشأتهم كانت المحاكاة جزء مهم في تكوينهم، فقد "راقبوا الفلاحين والبدو، وقلدوا عاداتهم باعتبارها جزء من أسلوبهم الخاص في بناء أنفسهم، من ناحية، تأثروا بهم كنماذج تحيل لأزمنة التوراة، ومن ناحية أخرى لتمييز أنفسهم عن الكبار. بيد أن القليل منهم تمكن من إجادة التقليد –نجح دايان وألون، وفشل رابين. عموماً كانت الكفاءة في هذا الشأن علامة تميز في أوساط الجماعة، ومصدر احترام. وقد تنافسوا، بهذا المعنى، مع المستعربين الذين يكبرونهم سناً، وعلى موقع الخبراء والمستشارين في الشؤون العربية"[351]. وكما يشير إيال، فلم يكن جيل الشباب بكفاءة المستعربين الأوائل، لكنهم امتلكوا روح المواجهة الصدامية، وتمتعوا بالتدريب العسكري[352].

---

[347] المصدر السابق، ص89.

[348] المصدر السابق، ص95.

[349] المصدر السابق، ص95.

[350] المصدر السابق، ص97.

[351] المصدر السابق، ص101.

[352] المصدر السابق، ص95.

يؤكد إيال بأن القيادة السياسة شرعت لتهميش المستعربين- الجيل الأول من دعاة الهسبرا، وطُلب منهم إخضاع معارفهم، وتقديم معلومات، لصناع القرار بشكل مباشر، وكانت خبرتهم غير محصورة فقط بمجال الاستخبارات، بل سبقت ذلك في نشاطهم الذاتي عبر توظيف استعرابهم لتحقيق أهداف محدودة في حماية مكانتهم وممتلكاتهم، فمثلاً "كان فرع الاستخبارات العربية في الهاجاناه (المنظمة اليهودية الأساسية شبه العسكرية) الذي تشكل في أعقاب الثورة العربية في العام 1936، معتمداً في جانب كبير منه على الشبكة الخاصة لعزرا دانين –وهو وجيه يهودي، وصاحب بيارات للحمضيات، أنشأ شبكته في وقت سابق لحماية حقوله، وجمع معلومات عن العصابات واللصوص، أقام علاقات في القرى، ليتمكن من ملاحقة اللصوص، واستعادة أملاكه، دون تعريض علاقات الجوار للأذى"[353]. يفسر إيال ذلك باعتبار أن خدمة المستعربين من الجيل الأول، في الاستخبارات الأمنية، وتحديداً في تجنيد متعاونين، كان "نوعاً من الفن، أي معرفة عملية تتجسد عادة من خلال تعلم القيام بهذا العمل، ومزيج من التوسط البارع، والتفاوض، والمساومة، التي يصعب في سياقها التمييز الواضح بين مهمة جمع المعلومات الاستخباراية، ومهمة الحفاظ على علاقات الجوار"[354]. إن إشكالية هذا الطرح تكمن في ترجمته توظيف الاستعراب في المؤسسة الأمنية ضمن خطاب استشراقي، أي أنه يُخفي مضمون الاستعراب ونتائجه، على حساب إظهار ميزة التمثيل "كتوسط". كما أنه في التركيز على فكرة "التوسط" والحفاظ على علاقات الجوار، يتجاوز الموقعية الاستعمارية للمستوطن الصهيوني بغض النظر عن دوره، فاستحضار نموذج عزرا دنين كوجيه يهودي، وكيفية توظيفه للاستعراب، يقفز عن موقعية دانين، والتي انخرطت بالضرورة مع بنية المؤسسة الصهيونية العسكرية. هنا يجب الوقوف عند مداخلة سعيد التي كشفت عن بنى الاستشراق باعتباره أحد أدوات السيطرة الاستعمارية، والتي يفسرها سعيد بأنها: "المؤسسة المشتركة للتعامل مع الشرق- التعامل معه بإصدار تقريرات حوله، وإجازة الآراء فيه وإقرارها، وبوصفه، وتدريسه، والاستقرار فيه، وحكمه بإيجاز، الاستشراق كأسلوب غربي للسيطرة على الشرق، واستبنائه، وامتلاك السيادة عليه"[355]. بالتالي فقد شكلت فلسطين والفلسطينيين موضوع المؤسسة الصهيونية المشتركة سواء، المعرفية، العسكرية، الأمنية، الاجتماعية، والسياسية. وعبر قراءة دور المؤسسات التي شكلت بنى الدولة للحركة الصهيونية، وممارساتها، نفهم تماماً، بأن الاستعراب الصهيوني، والاستشراق الصهيوني، على خلاف ما ذكر إيال- عبر وضعهما في تقابل وتضاد أحياناً تحت سقف مؤسساتي يتصارعان ضمنه-شكّلا سوياً العدسة التي تم من خلالها رصد وتصوير وتشكيل الفلسطينيين باعتبارهم "الآخر" الذي يهدد بنية المشروع الصهيوني،

---

[353] المصدر السابق، ص96.

[354] المصدر السابق، ص97.

[355] إدواردسعيد، مصدر سبق ذكره، ص39.

بحكم ادعائه للسيادة. وعبر هذه العدسة نفهم أيضاً أن الاستعراب الصهيوني قد دخل طوراً جديداً، تجاوز حاجة البقاء، والحراسة، إلى لعب دور في تصنيف الفلسطينيين وإعادة تشكيلهم كموضوعات استعمارية، عبر جمع معلومات حولهم ومحاولة فك رموز عالمهم من أجل السيطرة عليه. هذا يذكرنا بكيفية تناول سعيد لدور المستشرق- المستعرب، في حديثه عن تجربة بيرتن وتقييم نجاحه في الاستشراق عبر الدخول في "الشرق" وبناء معرفة من داخل التجربة العملية للحياة في "الشرق"، فقد كان فهم بيرتين لهذه التجربة يدور حول نظام الرموز والمعاني الذي تشكل عالم "الشرق". ونجاحه كان ليس فقط لأنه تمكن من أن يظهر "كشرقي"؛ "فهو لم يتكلم العربية بطلاقة وحسب، بل إنه استطاع أن ينفذ إلى قلب الإسلام ويحقق، متنكراً كطبيب هندي مسلم، الحج إلى مكة"[356]. فقد عرف بيتين "أن الشرق بشكل عام والإسلام بشكل خاص كانا نظامين للمعلومات، والسلوك، والاعتقاد، وإن كون المرء شرقياً أو مسلماً يعني معرفة أشياء معينة بطريقة معينة، وأن هذه الأشياء طبعاً كانت خاضعة للتاريخ والجغرافيا، ولتطور المجتمع في ظروف خاصة به"[357]. كذلك الأمر بالنسبة للمستعرب، سواء نموذج كوهن الذي استحضره هيليل كوهن، والذي كان استعرابه أحد مقومات نجاحه، كونه تمكن من فهم عالم الرموز والمعاني عبر تمثيل الفلسطيني، وتوظيف ذلك في اختراقه لخدمة المشروع تحت سقف المؤسسة الأمنية، والتي هي بالأساس ذات بنى استشراقية.

تمكن الاستعراب عبر دخوله طور المأسسة، والسعي في تقديم التقارير للمستوى السياسي، والأمني، وجمع المعلومات، من صياغة ملامح تمثيل الفلسطيني، بهدف إقصاءه والسيطرة عليه، بالتوازي أيضاً مع خطاب الاستشراق الأوروبي الذي أُشبعت به الحركة الصهيونية. وعبر هذا المسار المزدوج يجب إدراك بنية الاستعمار الاستيطاني الصهيوني، من زاوية السياق التاريخي التراكمي لحركة الهجرة والاستيطان، التي انطلقت من البقاء إلى السيطرة والإقصاء، والتي وظفت الاستعراب في مشروعها بحكم موقعيته، ليس فقط من أجل الاستفادة منه في تحقيق النفي، وهذا ينفي بالضرورة فكرة "التوسط" التي تناولها إيال، والتي تتجاوز الموقعية الاستعمارية.

إن مكانة ودور المستعربين في الفترة الممتدة من بداية الانتداب البريطاني وحتى العام 1941، كانت نتاج أمرين؛ الأول: التجربة التاريخية السابقة للمستعربين، والثاني: مسار وبنية الاستيطان الصهيوني. فقد تمكن المستعربين من الظهور كجزء بارز من المشهد الاستيطاني، قبل حقبة الانتداب، وحققوا بذلك مكانة واضحة في البيشوف، بعد طرد الحراس والعمال العرب، والمشاركة في عمليات احتلال الأراضي العربية، وإنشاء مستوطنات خاصة بهم. وكان العنف المنظم في إطار المجموعة هو الوسيلة التي من خلالها تمكنوا من فرض شروطهم في الحراسة والتطلع لصياغة "دفاع" شامل للبيشوف على غرار تجربتهم. أما فترة الانتداب البريطاني

---

[356] المصدر السابق، ص206.

[357] المصدر السابق.

فكانت بمثابة النقلة النوعية في ممارسة الاستعراب الصهيوني ضمن المؤسسة، بمعنى الاستفادة حسب حدود المشروع من الاستعراب باعتباره أحد أدوات إنتاج المعرفة الاستعمارية اللازمة لإخضاع الفلسطينين، كما الاستشراق الصهيوني، واحتوائه على مكون العنف البنيوي جعل منه استثمارا لافتاً في تحقيق اختراق المجتمع الفلسطيني والعربي، كما سيظهر بعد تأسيس البالماخ من العام 1941، وهو ما يكشف بواكير "الفوضى"، كممارسة تتبع الاختراق من أجل السيطرة.

المستعربون في البالماخ، مستقبل الاستعراب الصهيوني: العنف والفوضى

كانت بداية مرحلة المأسسة، السابقة للعام 1941، تكشف عن بواكير ارتباط الاستعراب بالمؤسسة، وهو ما أطلق عليه بداية مسار إعادة إنتاج لدور المستعرب عبر المزج بين التجربة التاريخية للاستعراب، ورؤية وأهداف الحركة الصهيونية كممارسة استعمارية بعد الانتداب البريطانية. في هذا المحور يتم التركيز على معنى الاستعراب الصهيوني من خلال المؤسسة، والتي بات يعرف فقط من خلالها، كذلك يتناول بالتفسير كيفية ترسيخ ممارسة العنف والفوضى التي كانت بوادرها جزء من بنية الاستعراب الصهيوني في المرحلة السابقة، والتي ظهرت بشكل بارز وقت البالماخ، خاصة ضمن الدور البريطاني، الذي لعب دوراً مركزياً وأساسياً في عملية إعادة الإنتاج والمأسسة. فقد وجدوا البريطانيون في الييشوف مكاناً حيوياً وإمكانيات مفتوحة لجمع المعلومات، وعلموا المستعربين طرق العمل والاتصال اللاسلكي والتجسس، والأعمال التخريبية، كما خدم أفرادهم في أوروبا، وهذه الفكرة لم تكن وليدة اللحظة بل كانت قد ظهرت لدى البريطانيين مطلع الثلاثينيات مع صعود هتلر في ألمانيا[358].

كانت بداية الحرب العالمية الثانية 1939، هي من أبرز مولدات اهتمام السلطات البريطانية في استخدام كافة طاقاتها في سبيل كسب الحرب ضد دول المحور، خاصة عند تعاظم خطر تقدم قوات المانيا وإيطاليا، وكجزء من هذا السعي أصبح التطلع للاستفادة من الحركة الصهيونية في فلسطين ضرورة تعكس الدور الوظيفي لها، والذي يفسر معنى الحاضنة الاستعمارية البريطانية منذ إعلان بلفور وحتى تطبيق الانتداب على فلسطين. كما كان قمع الثورة الفلسطينية له أثر بارز في إضعاف المقاومة، وزيادة فرص تمكين الييشوف من فرض سيطرته عبر الاستفادة من التعاون البريطاني، الذي يجب قراءته انطلاقاً لا فقط من مصالح بريطانيا في الحرب، بقدر موقعيتها كدولة استعمارية ذات مصالح امبريالية.

---

[358] عاموس بلوفيشتين. مصدر سبق ذكره (بالعبرية)، ص7.

كان العام 1941، مفصلياً في تشكيل قوات البالماخ، وكما يؤرخ كيمرلينغ بأنه "في العام 1941 شكلت وحدات نخبوية قطرية ومتحركة للهاجاناه (الفصائل الضاربة، البالماخ). وكان هذا أيضاً بالتعاون من جانب البريطانيين وبتدريبهم. تم إسكان رجال البالماخ في مزارع زراعية جماعية (كيبوتسات). وخصص نصف وقتهم هناك للعمل لتغطية نفقات معيشتهم، ونصفه الآخر قضوه بالتدريب على فنون القتال بوحدات قليلة العدد ومتحركة"[359]. وضمن إنشاء القوات الضاربة، كان التفكير قد نضج باتجاه الاستفادة من تجربة المستعربين، والتي ترجمت في تشكيل "الدائرة السورية" ثم "الدائرة العربية" داخل البالماخ، والتي أنشئت بين العام 1940-1950 بفضل البريطانيين، وكما يؤكد بلوفيشتين فإن الحرب العالمية الثانية هي التي ولدت الحاجة للمستعربين، وأفراد الوحدة، ظهروا كالعرب، وتوجهوا للدول العربية المحيطة، من أجل تنفيذ عمليات تخريب لأهداف عسكرية ومدنية، ومن أجل جمع معلومات عسكرية وسياسية، ونشر دعاية في المجتمعات المحلية. كل ذلك فقط من أجل إبعاد خطر الحرب عن البلاد[360].

أنشئت الدائرة السورية، إثر سقوط فرنسا بيد القوات الألمانية في يونيو 1940، حينها انتقلت زمام حكومات الانتداب الفرنسي في سوريا ولبنان بيد حكومة فيشي، فكان ذلك تهديد على الوجود البريطاني في الشرق الأوسط[361]. تصاعد القلق الصهيوني من سيطرة الألمان على سوريا ولبنان والاقتراب من الأردن، وتؤكد الرواية الصهيونية، بأنه وبعد "تعاطف" المجتمع العربي مع الألمان، توجه البريطانيون لمؤسسات الييشوف اليهودي بطلب المساعدة من أجل تنفيذ عمليات تخريبية واستخباراتية في كل من سوريا ولبنان، وكان هذا التوجه جزء من خطة شاملة تحتوي تنفيذ عمليات خاصة في المناطق التي تشكل فيها ألمانيا وإيطاليا خطراً على البريطانيين[362]. ونتاج للتعاون البريطاني مع قيادة مؤسسات الييشوف اليهودي، تبلورت "الخطة السورية" التي وضع أهدافها "يجال ألون" قائد الوحدة حينها، وتتمثل بالإعداد لتخريب الطرق، وسكك الحديد، والمطارات، وتخريب خطوط النفط، والمصفاة في القطاع الغربي، بالإضافة إلى جاهزية استهداف أهداف أخرى ضرورية، والحصول على معلومات عسكرية وسياسية، ونقلهم لوجهتهم، وكذلك عمل شبكة محطات اتصال لاسلكي، وعمل دعاية للحلفاء وسط السكان[363].

بدأ تدريب أفراد من الهاجاناه على يد ضباط بريطانيين، بعد سقوط فرنسا بيد القوات الألمانية. واحتوى التدريب الأعداد لتنفيذ عمليات تخريب وتفجير طرق وجسور وأماكن حيوية، بالإضافة لجمع ونقل المعلومات

---

[359] باروخ كيمرلينغ. مصدر سبق ذكره، ص 164.

[360] عاموس بلوفشتين. مصدر سبق ذكره (بالعبري)، ص192.

[361] جمليال كوهين. مصدر سبق ذكره (بالعبرية)، ص18.

[362] المصدر السابق.

[363] المصدر السابق.

العسكرية والأمنية. وبعد سيطرة حكومة فيشي على سوريا ولبنان، خرج أوائل المتدربين إلى بـــلاد الشـــام، وكانوا بالخاص من مواليد سوريا، ومن خريجي حركة "الطلائع" في سوريا. وكان أولهم كامل مواس، الذي سافر من حيفا بالسيارة إلى منزل والديه في دمشق، والتحق به بعد أسابيع جاك سعد، واسحاق يافا، وشلومو صالح، ويوسف كوسطيقا[364].

وفي صيف العام 1941، أُقيمت الدائرة السورية على يد عزرا دانين، ويهوشاع بلمون، وبدأوا بتجنيد أعضاء في الهاجاناه، من أبناء ومواليد سوريا، ومن أبناء المستوطنات في الجليل اللذين أتقنوا اللغة والتقاليد العربية[365]. وفي 12 ماي أُرسل حيمكا لبكوك، ويسرائيل بن يهودا، الملقب "بعبدو" إلى سوريا، وحسب رواية لبكوك، فقد التقوا مع ديفيد هكاهان في ميناء حيفا، وأخذوا تعليمات بتفجير مخزن أسلحة ووقود تابع لقوات فيشي بين بيروت وطرابلس، وأيضاً فندق في حلب نزل فيه ضباط ألمان، أو تفجير طائرات ألمانية نزلت في مطـــار عسكري قريب للبلدة[366]. وفي دمشق توجه عبدو ولبكوك إلى حارة اليهود، من أجل التواصل مع مجموعـــة جاك سعد، لاحقاً، استقر الاثنان في منطقة جوبر، والتي كانت مناسبة تماماً لعملهم، حيث تعرفوا على المكان، وأقاموا علاقات طيبة مع أبناء المنطقة، وفي الأثناء انضم إليهم بلمون تحت اسم محمد الحج عمـــر. عملـــت الشبكة بإرسال معلومات عن الطيران الألماني، وتحركات الجيش الفرنسي، وكانت المعلومات تصل لمكتب في حيفا، ومن ثم تنقل إلى القدس، ومن هناك إلى البريطانيين[367].

يقول لبكوب في مقابلة حول بداية عملهم كمستعربين في سوريا:

> **بدأنا في اليوم الرابع تحضير المواد، والقصة المعروفة، الخيار، البطيخ والكوسا، وكل هذا نعمل منه محشي[368]، ويتم تعبئته وملئه جيداً، وحتى ابريق الماء، وترموس ماء، وكل شيء جاهز حسب حجم المهمة. ثم نحن نذهب خارج المدينة، ونجلس على قمة نراقب النقاط التي سنتوزع عليها، أنا مثلاً وصلت إلى محطة القطار، ورأيـــت العديد من الكرفانات المليئة بالذخائر، وفي كل واحد تم وضع نوع من الخضروات[369]. بعد وضع العبـــوات، توجه لبكوك ورفاقه إلى أحد المقاهي بانتظار عبدو والآخرين اللذين ذهبوا لتنفيذ مهمات مماثلة. ويســـتكمل لبكوك قائلاً: طلبنا قهوة، ونحن ننتظر، وننتظر بترقب، وأحدهم يقول، والله ما اجو، والله ما اجو، وفجأة يظهر عبدو ومحمود، قدمنا لهم القهوة التي طلبناها، كذلك طلبنا عرق، وأكل جيد، وراقصة تغني وترقص، وفجـــأة**

---

[364] المصدر السابق، ص19.

[365] المصدر السابق، ص20.

[366] المصدر السابق، ص20.

[367] المصدر السابق، ص20.

[368] القصد هو إخفاء العبوات الناسفة التي استخدموها لتفجير أهدافهم، داخل الخضروات. وكلمة محشي هي تعبير بالعامية الفلسطينية، يشير طبق تقليدي يتم حشو الخضروات بالأرز.

[369] המסתערבים הראשונים באמת.תסריט ובימוי, גיל סדן. Published on Aug 23, 2017 ، https://www.youtube.com/watch?v=l1FU28FDyUM&t=716s (استخدم بتاريخ، 5.4.2018) المستعربون الأوائل في الحقيقة. فيلم توثيقي بالعبرية.

انفجار عظيم، فمحطة القطار لم تكن تبعد كثيراً عن المقهى، فأحدهم قال شو البطيخ، قلت له لا والله الخيـــار .هذه قصة ليلة واحدة، تم تفجير ثلاثة عشر عبوة ناسفة، بكل الأهداف[370].

يوضح لبكوب، بترعة استعراب استشراقية، يكتنيها العنف، كيف استخدم رموز ومعـــاني عربيـــة- أسمـــاء خضروات- من أجل تمرير المهمة التخريبية، فتحولت هذه المعاني من دلالتها اللغوية في السياق الثقافي العربي، إلى استعارات تنكرية قام من خلالها بممارسة الاختراق والعنف وصناعة فوضى، عبر سلسلة من الـــتفجيرات. بهذا؛ يتضح هنا معنى الاستعراب استشراقياً، كأداة سلطة وإخضاع، تقوم على فصل الصورة عن المضـــمون، فتتحول المعاني إلى أدوات؛ الخضروات إلى متفجرات. كذلك فإن الوصف الاستشراقي، الذي يجرد الواقع من سياقه ويعيد إنتاجه وفق بنيته، يظهر الراقصة والعرق، ثم الانفجار، كتصور عن الواقع، باعتبـــاره "حقيقـــة" مدركة، كما يقول سعيد، في تحويل "الشرق" المتخيل، إلى "حقيقة ذات جوهر ثابت". في ذات السياق، أود الوقوف عند مفهوم الفوضى حسب ما أقصد به في الدراسة، وهو تحديداً ما قام به لبكوب ورفقائـــه مـــن المستعربين في عملية الاختراق، وإحداث سلسلة تفجيرات، بمعنى ممارسة العنف بشكل مفاجئ وصادم، خارج حدود حيز المشروع الاستيطاني، واستخدام عنصر المباغتة، من أجل إلحاق ضرر وخسائر عبر الإرباك، وهذا ما أعني به الفوضى، والتي تلازمت مع الاستعراب الصهيوني منذ مرحلة المأسسة، وبقيت كذلك في مختلـــف مراحل تطورها، كما سأبين في الفصل الرابع.

وفي ذات المقابلة، يؤكد لبكوب بعد سؤاله عن هدف هذه العمليات، قال: بأننا في تلك العمليات لم ننتصـــر على هتلر، أو نهزم إيطاليا، والهدف إسهامنا كشركاء في الحرب بجانب الحلفاء ضد النازية[371]. هذا يعكـــس عمق إدراك الحركة الصهيونية على لعب دور بارز في الحفاظ على الحاضنة الاستعمارية البريطانية، بالرغم من تضارب المصالح اللاحق، الذي تكلل بمواجهات جزئية نفذها أعضاء البالماخ ضد أهداف بريطانية، بعد العام 1943.

يضيف بلوفيشتين، بأن عمل الوحدة السورية بين العام 1940-1943، لم يكن ذو أهمية عملية للهاجاناه من الناحية العسكرية، بقدر أهميته في الإعداد، وأهم ما حققته الوحدة هو أنها أنشأت وأسست أدوات الاستعراب بطابع مؤسساتي، نجحت بإقناع الهاجاناه بأهمية الاستعراب، وخلقت نموذج مهم للمقاتل اليهودي[372]. تبـــع ذلك تأسيس وحدة "الفجر" التي أنشئت بناء على تجربة الوحدة السورية، حيث قدمت الكثير من أجل حرب النكبة وإنشاء الدولة. لكن الاستعراب في تجربة الدائرة السورية يختلف عن الاستعراب داخل فلسطين. ففـــي

---

[370] المصدر السابق.

[371] المصدر السابق.

[372] عاموس بلفوشتين. مصدر سبق ذكره(بالعبرية)، ص193.

وقت عمل هشاحر كانت المواجهة مختلفة، "و لم يعد هناك عدو واحد من الخارج، ولكن ثلاثة أعداء سوياً، البريطانيين وعرب البلاد، والدول العربية كذلك"[373]. هنا يمكن اقتفاء كيفية تشكل الحدود بالنسبة للمستعرب، والتي تعني عملية إنشاء حدود مستمرة وديناميكية وفق حاجة ومصالح المشروع الاستيطاني، خاصة أن وفق هذا التفسير الذي أتبناه، أؤكد بأن الحدود باعتبارها معطى استعماري، لا يمكن أن تتشكل بصورة نهائية بدون اكتمال المشروع الاستيطاني، فمنذ بداية الاستيطان الصهيوني وبروز المستعرب–المستوطن، ثم المستعرب–الحارس المستوطن، حتى تنظيم الاستعراب ومأسسته، وكذلك مستقبله،– كما سأبين في الفصل الرابع– فالاستعراب عبارة عن تفاعل مكون العنف والتمثيل ضمن حدود المشروع الاستيطاني، وكل تغيير يطرأ على حدود المشروع يعني بالضرورة تغيير على عمل وهدف المستعرب.

أقدم لاستكمال تتبع تطور الاستعراب في البالماخ وبعد تأسيس الدائرة العربية، قصة شمعون سومخ–سمعان ، الملقب بأبو المستعربين، كأهم الشخصيات الصهيونية في حقل الاستعراب الاستخباراتي والعسكري. ولد سومخ في العراق عام 1906، وهاجر منها إلى فلسطين في العام 1933، وفي العام 1942، كان في سنته الدراسية الأخيرة في مشمار هاعيمق، وهناك ذهب إليه يجال ألون، وهو المسؤول عن تجنيد مستعربين أنداك، والإشراف على إعدادهم وحتى عملياتهم، وطلب منه الالتحاق بدورة تحتاج معرفة اللغة العربية. وافق سومخ فوراً ودون تردد، وفور اجتياز الدورة إلتحق بدورة متخصصة لإعداد المستعربين في هدار، وهناك حصل على لقب "سمعان" الذي لازمه طيلة حياته. هذه الدورة كانت ضمن نطاق عمل الدائرة السورية في البالماخ، والتي أشرف عليها ألون، وفيها لاحظ سمعان عدم نضوج التدريب، وافتقاره لعناصر المهنية التي تؤهل المستعرب من العمل باحترافية، وبناء على ذلك طلب من ألون تطوير التدريب ضمن تصوره عن الاستعراب، ومنذ ذلك الحين تم تكليفه كمعلم رئيسي لإعداد المستعربين، بالإضافة لتنفيذه بعض المهمات خارج فلسطين[374]. أعد سمعان المستعرب، باحترافيه عالية، وكما تؤكد الرواية الصهيونية، بأنه وبفضله، عمل المستعربين متخفين في المحيط العربي، وكانوا أعين وأذان الدولة لسنوات خلف الحدود. وكانت مهماتهم في اختراق المجتمع العربي والتواجد فيه من أجل تنفيذ عمليات وجمع معلومات، ومساعدة الأجهزة العسكرية في عملها، وحتى في

---

[373] المصدر السابق.

[374] יררון בכר. אבי המסתערבים, המרכז למורשת המודיעין, http://intelligence.org.il/KotarPort.aspx#http%3A%2F%2Fmalam.barebone.kotar.co.il%2FKotarAp p%2FViewer.aspx%3FnBookID%3D97357510%2329.9249.4.none (استخدم بتاريخ، 20.3.2018). يارون بكر. أبو المستعربين.

تسهيل وتأمين الهجرة. وهم عرفوا أن إعداد سمعان لهم بالتأسيس والمهنية والعلاقة، كان المفتاح لنجاحهم وأمنهم الخاص في مهماتهم[375].

يقول سمعان واصفاً معنى الاستعراب ومعرفاً عن المستعربين في مقابلة له:

> **من يطلق عليه مستعرب، لا يعني ببساطة، شاب أسمر الوجه، مع شارب، يتحدث العربية ويظهر في المحيط العربي، يشرب القهوة ويبقى لحظات أو سنوات ثم يغادر. المستعرب يعني الظهور كعربي في كل شيء، في صورته وفي اللهجة والتصرف، في السكن والعمل والاستجمام، مع تغطية مناسبة للهوية ومكان الولادة والخلفية، المستعرب يجب أن يكون ممثل موهوب يؤدي دوره 24 ساعة متواصلة، ودوره هذا يكلفه أثارا نفسية مستمرة، من التوتر العصبي وحتى الجنون**[376].

إن عمق التدقيق في الاهتمام في كيفية تمثيل الفلسطيني–العربي، تكشف وبوضوح، عن أن الاستعراب الصهيوني في طور المؤسسة، بات متجها ليس فقط نحو التمثيل، بل نحو خلق وصناعة الصورة، التي ستكون ذاتها أداة للسيطرة بهدف الإخضاع. وإذا كان الاستشراق كما يقول سعيد يجعل من الأوروبي في حالة انفصال للوعي، ف"أن يكون المرء أوروبياً في الشرق يشبك دائماً أن يكون وعياً منفصلاً عن، وغير متساوٍ مع، ما يحيط به. بيد أن الشيء الأساسي الذي ينبغي أن يلاحظ هو نية هذا الوعي"[377]. فكيف نفسر دور المستعرب الذي يمثل الفلسطيني، ضمن هذا السياق؟ في إجابة للمستعرب سمعان عن سؤال في مقابلة: "كيف تفعل ذلك، كيف تجعل منهم مستعربين؟"، يقول سمعان: أولاً أجعله يلبس كعربي، ثم أُدخِل داخل هذا اللباس محتوى عربي"[378].

عبر ما قاله سمعان، ومن خلال مقولة سعيد في "انفصال الوعي"، أؤكد بأن منطق الاستعراب يتقاطع بشكل كبير مع الاستشراق، خاصة في كيفية فصل الصورة عن المضمون، والتي ذكرتها سابقاً في تحليل قصة لبكوب، وهذا تكرر أيضاً في وصف سمعان لعملية إنتاج المستعرب، بحيث يتم إنتاج صورة العربي، وتضمينه على محتوى يعزز من فاعلية الصورة، ضمن نية ورغبة العمل. لكن ما يحدث هو أولاً تعطيل لمظهر المستوطن، سواء كان بملامح "أوروبية" أو الاستفادة من ذوي الأصول العربية، ثم عمل تعديل على المظهر ليتناسب مع المهمة، وإدخال محتوى استعماري، أي أنه مظهر عربي بوعي استيطاني، وهذا ما جعل من الاستعراب الصهيوني المأسس أحد أبرز وسائل السيطرة والنفي.

في العام 1943، أوقف البريطانيون التعاون مع اليشوف في القضايا الأمنية والعسكرية، كما تشير الرواية الصهيونية. حينها تم حل الدائرة السورية من قبل البالماخ، وتحمل يُرحم كوهن في نفس الوقت، مسؤولية بناء دائرة جديدة للمستعربين، وهو مستعرب ذو خبرة، وهكذا أُسست في آب 1943 "الدائرة العربية" في البالماخ، التي أطلق عليها اسم "هشاحر– الفجر". وضمن هذا المسار، التحق سمعان بالدائرة الجديدة كمعلم

---

[375] المصدر السابق.

[376] المصدر السابق.

[377] ادوارد سعيد. مصدر سبق ذكره، ص 174.

[378] المستعربون الأوائل في الحقيقة. مصدر سبق ذكره (بالعبرية).

أساسي، حيث تدرب تحت يده جميع المستعربين في الفترة الممتدة حتى حرب النكبة، وشارك أعضاء الوحدة في العشرات من العمليات والمهمات داخل وخارج فلسطين، ومع إقامة الجيش في العام 1948، انتقلت الدائرة العربية إلى وحدة الاستخبارات العسكرية كفرع تابع لها[379].

يجمل تسفيكا دورر، دور ومشاركة المستعربين في سلسلة مهمات وعمليات، تكشف عن وجه الاستعراب الصهيوني كأداة لتحقيق مشروع النفي بغطاء تنكري عربي:

> **شاركوا في دورات احترافية، الاستيلاء على أسلحة بفقوعة، شاركوا في عمليات تطهير وعقاب عرب ألحقوا الضرر بيهود (اغتصاب، قتل، وتبليغ سلطات)، إعداد ملفات حول القرى العربية، إعداد ملفات حول أهداف بريطانية، متابعة قيادات عربية في مناطق مختلفة من البلاد، المشاركة في صلوات أيام الجمعة في المساجد (استخبارات+استعراب)، المشاركة بالاستيلاء على أسلحة من قواعد بريطانية، اختراق التجمعات العربية، انغرسوا في ميناء حيفا ويافا، المشاركة في عمليات منظمة الهجرة "ب"، جولات وهجمات واختراق قواعد بريطانية، المشاركة كمستعربين في عمليات الهاجاناه والبالماخ، الهجوم على اللطرون وتفجير مصفاة، استهداف رجال الحكومة البريطانية وقيادة عربية متطرفة، الاشتراك في عمليات ليلة الجسور، وضع سيارة مفخخة في جنوب مدينة حيفا، جولات واختراق في دمشق لجمع معلومات عن الجيش السوري، زرع خلايا استخبارات في سوريا ولبنان من أجل عمليات التخريب والاتصال**[380].

من المهم الالتفات بأن المستعربين مارسوا دوراً لافتاً في إعداد ملفات القرى، والتي تم من خلالها مسح ورصد القرى العربية[381]، التي تعرضت لاحقاً للتهجير في حرب النكبة، وكان هذا جزءاً من مسعى الهاجاناه في إحكام سيطرتها على الأرض، عبر حيازة معرفة دقيقة عن أحوال القرى والأماكن العربية، والتي تمثل أحد أدوات السيطرة من أجل النفي والإقصاء. بالإضافة لذلك، فإن سرد سلسلة نشاطات المستعربين، يكشف بالضرورة عن المحتوى الذي تحدث عنه سمعان، خاصةً نية هذا المحتوى من خلف التنكر والظهور بمظهر عربي، وهنا أعيد موضعة العنف والفوضى، كأبرز مخرجات ممارسة المستعربين وقت المأسسة. "وهكذا، مع انتهاء الحرب العالمية الثانية–تلك الفترة التي جمدت فيها كل باقي المسارات– كانت الجماعة الإثنية–اليهودية مزودة بالأدوات المؤسسية للصدام الحاسم مع الجالية العربية"[382]. وكان المستعربين جزءاً من الإعداد للمواجهة التي ستدفع بولادة المشروع الاستيطاني الصهيوني على شاكلة دولة. مع نهاية حرب النكبة، وإنشاء الدولة،

---

[379] يرون بكر. مصدر سبق ذكره (بالعبرية).

[380] تسيبكا دورر. مصدر سبق ذكره (بالعبرية)، ص233.

[381] מודיעין- תיקיכפרים، מכזמידעפלמ"ח.
http://info.palmach.org.il/show_item.asp?levelId=38612&itemId=5528&itemType=0(استخدم بتاريخ، 20.3.2018). الاستخبارات، ملفات القرى، مركز معلومات البالماخ.

[382] باروخ كيمرلينغ. مصدر سبق ذكره. ص 164.

والجيش، شهد العام 1950، حل الدائرة العربية – وحدة الفجر، رسمياً، واستيعاب اعضائها بأجهزة الأمن التابعة للمخابرات والجيش[383].

إن مرحلة المأسسة، التي شيدت الطريق في عمل المستعربين نحو مشروع الدولة، تميزت بتوظيف الاستعراب كجزء من أدوات مؤسسات الحركة الصهيونية العسكرية، حيث أصبح من الواضح بأن المستعرب يُعرف فقط من خلال المؤسسة، و لم يعد له مكان خارجها، بالمقارنة مع بدايات الاستعراب، لذلك تشير معظم الأدبيات الصهيونية إلى المستعربين الأوائل بمستعربي البالماخ، كما يقدم دورر عنوان كتابه. وتفسير ذلك، هو أن فترة المأسسة، هي الفترة التي تمكن فيها المشروع الصهيوني من هضم مختلف المكونات الاستيطانية، وإعادة إنتاجها لتحقيق إقامة الدولة. مع نهاية عمل الوحدة كدائرة متماسكة تابعة للبالماخ، كانت أجهزة الدولة الأمنية والعسكرية من القدرة على احتواء مثل هذه التجربة، وإظهارها في الوقت الذي تحتاجه فقط، لذا ستكون السنوات من العام 1950، مروراً بحرب العام 1967، وصولاً إلى بداية احداث الانتفاضة الفلسطينية الأولى 1987، هي السنوات التي لم يعمل فيه المستعربين كوحدة متمايزة عن باقي التشكيلات الأمنية والعسكرية، والتي عادت للظهور بداية الانتفاضة الفلسطينية. حيث تواجد المستعربين على شكل أفراد يعملون داخل مختلف أجنحة المؤسسة الأمنية والاستخباراتية، حسب الحاجة. أما بعد بداية الانتفاضة الأولى فقد تم إعادة تشكيل الوحدة كإطار منظم كما حدث أيام هشومير ثم البالماخ.

خاتمة

شكل نشوء تنظيم بارغيورا وهشومير، تطوراً جديداً في مسار الاستيطان الصهيوني في فلسطين، حيث مهدت هذه التنظيمات لمأسسة الاستعراب كأداة بارزة لفرض مستقبل السيادة الاستيطانية. لقد عبر الاستعراب الصهيوني ضمن تجربة التنظيمات العسكرية عن حاجة مزدوجة: الرغبة في الظهور كـ"سكان أصليين" وليس كغرباء، كتعبير عن قلق في الهوية والعلاقة بالأرض. ومن زاوية أخرى، كان هدف الاستعراب مرتبط بالحراسة والعنف، أي إبراز فاعلية حدود المستوطنة. أما بعد دخول فترة الانتداب، فقد تراجع قلق الادعاء الأصلاني، وكان بسبب وضوح ملامح المشروع الصهيوني في رحم الحاضنة الاستعمارية البريطانية. وتمكن الاستعراب الصهيوني فترة الانتداب من أن يتشكل وفق نمط المأسسة، بتأثير من التجربة الاستعمارية البريطانية، والتي من خلالها تم توسيع حيز الحدود الاستعمارية، من نطاق المستوطنة، إلى نطاق المشروع نحو الدولة. ضمن هذا التحول، تقدم الاستعراب الصهيوني كممارسة متجددة لا تقتصر على التمثيل والحراسة، بل تضع التمثيل

[383] عاموس بلوفشتين. مصدر سبق ذكره (بالعبرية)، ص191.

والتنكر والاختراق كأداوات من أجل إنتاج معرفة هدفها السيطرة والإقصاء. ناقشت في هذا الفصل ثلاث محاور رئيسية في تطور الاستعراب الصهيوني منذ تشكيل منظمات الحراسة الأولى، وهم: التأسيس، واحتكار العنف، والمأسسة. وتتبع الفصل الفترة التاريخية بين العام 1907، تأسيس تنظيم بارغيورا، وصولاً إلى إقامة تنظيم هشومير 1909، ثم مرحلة دخول الانتداب البريطاني، ودخول المستعربين بعد العام 1920 مسار المؤسسة في إنتاج المعرفة الاستعمارية في العمل الاستخبارتي، وصولاً إلى إنشاء "الدائرة السورية" ثم "الدائرة العربية" في البالماخ، بشراكة وإشراف بريطاني، حتى حرب النكبة 1948. لقد كان تطور الاستعراب الصهيوني، مرتبط بشكل بنيوي بتطور مسار الاستيطان الصهيوني. وتحولات الاستعراب يجب أن تُدرك من خلال مكون العنف، بالإضافة لخطاب الاستشراق الصهيوني، وبنية الاستعمار الاستيطان. وكانت الفترة منذ نشوء تنظيمات الحراسة إلى حرب النكبة، تجسد تماسك بنية الاستعراب الصهيوني من حيث حاجة التمثيل، والاختراق، وممارسة العنف. كما كان استخدام المستعربين، وحجم العنف والاختراق مرتبط بشكل مباشر بحجم وعنف المقاومة الفلسطينية، وبالتالي أضيف قراءة رد الفعل الاستعماري، على المقاومة الفلسطينية، باعتبارها منازعة للسيادة الاستيطانية، كأحد دوافع استخدام المستعربين المستمر، كأداة سيطرة وإقصاء مستمرة.

الفصل الرابع

نكبة مستمرة، استعراب مستمر

مقدمة

يناقش هذا الفصل الفترة التاريخية للاستعراب الصهيوني، منذ حرب النكبة 1948-1949، إلى الحاضر من العام 2018. ويركز الفصل على توضيح استمرارية عمل ونشاط المستعربين، في الفترة المذكورة، وعدم انقطاعه. بالرغم من وجود ادعاء سائد في انقطاع نشاطهم المستعربين، في الأربع عقود الأولى بعد إقامة الدولة. ولتفسير ذلك استخدم مفهومان: الكمون، وكثافة الاستخدام. ومن خلال تناول مفهوم الكمون، أوضح تراجع استخدام المستعربين، في الفترة التي حاولت المؤسسة الأمنية استخدامهم في سياق التجسس وجمع المعلومات، وهي التجربة التي استمرت 12 عام، دون تحقيق نتائج مجدية بالنسبة للمؤسسة. ومن خلال ذلك قمت بتفسير هذا الكمون، باعتبار أن سياق العمل الاستخباراتي فقط، لا يحقق مغزى وجود ودور المستعربين. مقابل هذه الفترة، كان مفهوم كثافة الاستخدام يشير إلى علاقة رد فعل السلطة الاستعمارية على المقاومة الفلسطينية. أي أن فترات تراجع حدة المقاومة وسكونها، هي فترات تراجع حدة وكثافة استخدام المستعربين، وفي تصاعد حدة المقاومة واتساع مجالها، يزداد استخدام المستعربين بكثافة. يتطرق الفصل أيضاً، إلى تقنيات عمل المستعربين (التمثيل-التنكر، والاختراق، والعنف والفوضى) في هذه الحقبة، والتي أعادة إنتاج النمط السابق في الاستعراب، لكن مع دخول عنصر إنتاج دور المستعربين في الخطاب الاعلامي، بعد اعتراف الخطاب الصهيوني الرسمي، من المؤسسة الأمنية تحديداً، بوجودهم مطلع التسعينيات. وكانت هذه الفترة هي الفترة التي شهدت تصاعد وبدء مسار كثافة استخدام المستعربين، بالإضافة إلى أنها ذات الفترة التي توافقت معظم الأدبيات على تناولها كحاضر الاستعراب، وبدأ الاهتمام في توثيق عمليات المستعربين، وانتاج خطاب مكشوف عن دورهم ومكانتهم. وهو ما أعزيه لاحتكار المؤسسة الأمنية، كسلطة استعمار استيطاني، للمعلومات، انطلاقاً من موقعيتها، وتوظيفها لهذا المخزون لصالح مصالحها الإقصائية الاستعمارية.

يتناول هذا الفصل، توثيق سلسلة من عمليات المستعربين، التي تم عرضها في الخطاب الاعلامي الصهيوني، والتي تعزز مكانة ودور المستعرب في المشهد الاستعماري، ويناقش فيها تقنيات الاستعراب الأربعة السابقة. كما يحاول تفسير أبرز تقنيات الخطاب الاعلامي: الإخفاء/الإظهار، تبادلية الأدوار والإنتاج، والسيطرة/الإقصاء، بحيث يتم عبر هذه التقنيات إنتاج مكانة ودور المستعرب كنموذج إقصائي، بهدف توسيع حيز وفضاء السيطرة الاستعمارية.

حرب النكبة

تشكّل مرحلة النكبة مفتاحاً رئيسياً لفهم معنى ما قبل النكبة، وما بعدها، باعتبارها أوضح ترجمة عملية لغاية الاستعمار الاستيطاني الصهيوني في فلسطين. ولكي أوضح ذلك، سأرتكز على قاعدتين؛ هما: النكبة كنموذج للهدم والبناء، ومفهوم النكبة المستمرة. وعبر قراءة النكبة ضمن هذا المنظور، سأقوم بإعادة توضيح مسار الاستعراب الصهيوني ضمن ذات المنظور، والذي سيشكل تمهيداً لفهم تحولات ممارسة الاستعراب الصهيوني في ظل الدولة.

جسدت النكبة التاريخ الأبرز لعملية الهدم/البناء الاستعماري في فلسطين. وهي المرحلة التي نجم عنها أكبر تغير جغرافي – ديمغرافي بالنسبة لفلسطين والفلسطينيين. وأفسر مفهوم الهدم: بمعنى أن النكبة هي مجموع عمليات التصفية المتكاملة التي نتج عنها قيام إسرائيل على 78% من مجمل مساحة فلسطين التاريخية، وتم خلالها السيطرة على 17.178.000 دونم من أراضي الفلسطينيين، كما شملت على عملية التطهير العرقي والتدمير الكامل لـ531 قرية ومدينة فلسطينية، وبلغ عدد المهجرين إثر ذلك 800 ألف لاجئ، وقتل خلالها 15 ألف فلسطيني[384].

ضمن هذا المعنى تكون النكبة هي تجسيد فعلي لمعنى "الهدم". ويقابل ذلك مفهوم "البناء–المستمر" بفعل إقامة الدولة كخلاصة للمشروع الاستيطاني الإحلالي، وكما تشير أناهيد الحردان بأن مفردة النكبة–الكارثة تُحيل إلى الذاكرة: "تأسيس دولة إسرائيل على أرض فلسطين عام 1948 عن طريق طرد أكثر من نصف سكان فلسطين التاريخية، وتدمير التراث الفلسطيني، والمؤسسات الاجتماعية والسياسية في الأراضي المحتلة"[385]، فعملية التدمير توازت مع عملية بناء الدولة، وهي عملية إعادة إنتاج بنى الاستعمار الاستيطاني من مرحلة الييشوف تحت الانتداب البريطاني، إلى مرحلة نشوء جسم الدولة وأجهزته كأعلى سلطة سيادية تمارس عمليات التصفية وفق المعطيات المتاحة في حينه. إن عملية التحول من مؤسسات الييشوف للحركة الصهيونية إلى مؤسسات الدولة هي ذاتها عملية المحو التي توازت مع البناء الاستعماري في إطار الإحلال الكلي، وتفسر ذلك هنيدة غانم بأن ما يتم هو أن "يمحى السكان أولاً من خلال تهجيرهم ورفض عودتهم، ثم تمحى بيوتهم وتحال قراهم إلى أكوام ركام، ثم تسوّى الأكوام بالأرض"[386]، وتضيف بأن هناك علاقة وظيفية بين المحو والإنشاء، حيث يتم

---

[384] النكبة في أرقام. موسوعة النكبة الفلسطينية، http://www.nakba.ps/numbers.php (استخدم بتاريخ، 8.4.2018).

[385] أناهيد الحردان. **النكبة**، موقع ذاكرات، http://zochrot.org/ar/contentAccordion/nakba (استخدم بتاريخ، 8.4.2018).
انظر أيضاً:

Anaheed Al-Hardan. Palestinains in Syria: Nakba Memories of Shattered Communities. NYC: Columbia University press, 2016.

[386] هنيدة غانم، المحو والإنشاء في المشروع الصهيوني. (**مجلة الدراسات الفلسطينية**، عدد96. 2013)، ص120.

محو المشهد الأصلي واستبداله بآخر استعماري، بحيث يكون الاستبدال حالة من البناء على أنقاض المجتمع الأصلاني.

إن النكبة بواقعها، ما هي إلا جزء من البنية المتكاملة لمشروع إحلالي، وهذا ما يفسر معنى "البناء-المستمر"، حيث يمكن فهم النكبة كأحد تجليات الحالة الاستعمارية الاستيطانية المستمرة. يتناول إلياس خوري في تفسيره لمعنى النكبة مستمرة، بأن "الافتراض الرئيسي هو أن النكبة ليست حدثاً تاريخياً أُنجز في سنة 1948، وإنما هي مسار مستمر لم يتوقف منذ ثلاثة وستين عاماً، أي أن قراءتها بصفتها ماضياً تحجب الحقيقة، فمسار النكبة لا زال مستمراً، ويتخذ أشكالاً متعددة، بحسب المراحل التاريخية، فالنكبة حاضر فلسطين لا ماضيها"[387]، وضمن اعتبارات الحاضر، يمكن بوضوح إدراك المشهد المستمر لإنتاج النكبة ضمن سلسلة أحداث وسياسات لا تنقطع في عزل وإقصاء الفلسطيني والسعي المستمر للسيطرة على أرضه، حيث تشكل عملية التوسع الاستيطاني المستمر وغير المتوقف ثابتاً مركزياً في استكمال المشروع الصهيوني. يقول عضو الكنيست السابق "يشعياهو بن فورات" في مقال له مطلع السبعينات: "إن الحقيقة هي لا صهيونية بدون استيطان، ولا دولة يهودية بدون إخلاء العرب ومصادرة أراضي وتسييجها"[388]، ومعنى ذلك هو أن وجود المشروع الصهيوني مرتبط بالاستيطان بشكل وثيق، وهو ما يشير إلى أن السيطرة على أراضي الفلسطينيين وطردهم أو إقصائهم ما هو إلا جزء من مفهوم النكبة، والتي تعبر عن نكبة مستمرة في كل عملية هدم ومصادرة واقتلاع.

لقد تمثل ارتباط النكبة بالبناء الاستعماري من ناحية كونها جزء من بنية وليست حدثا[389]، وكما أشار "يشعياهو بن فورات" فإنه لا انفصال بين المشروع الصهيوني وضرورة الاستحواذ على الأرض عبر الاستيطان، وهو ما يشكل تعبيراً من تعبيرات النكبة، وكذلك ما قدمه إلياس خوري في توضيح مقولة النكبة مستمرة كجزء من وعي الحاضر لا الماضي. وكما يرى رائف زريق بأن "الصهيونية دفعت اليهود في فلسطين إلى وضع مستحيل، إذ لا يمكن للدولة اليهودية أن تقوم إلا على حساب فلسطين والفلسطينيين، وبهذا فإن حرب 1948 بالنسبة لليهود هي حرب وجودية، لكن كونها وجودية لا يعني أنها ليست عدوانية"[390]، وهذا يفسر بأن الوجود الاستيطاني الصهيوني لا يمكن أن يستمر إلا على حساب سكان فلسطين وأرضهم، بمعنى ان الارتباط الوجودي للمشروع الصهيوني على أرض فلسطين، هو مصير نحو تحقيق نكبات متوالية لا نكبة

---

[387] الياس خوري، النكبة مستمرة. (**مجلة الدراسات الفلسطينية**: عدد 89، 2012)، ص37.

[388] يشعياهو بن فورت، اقتباس من مقال "الخطأ والسذاجة والتلون"، يديعوت أحرنوت، في تقرير بعنوان "التوسع الاستيطاني، تتبع تاريخي" منشورات وزارة الإعلام الفلسطينية، www.minfo.gov.ps/Docs/II%20estitan.doc (استخدم بتاريخ: 11-1-2016).

[389] Patrick Wolf ."Settler Colonialism and the Elimination of the Native". Journal of Genocide Research (2006), 8(4), December, 387–409.

[390] رائف زريق، 48 عاماً على هزيمة 67.(مجلة الدراسات الفلسطينية:العدد104،2015) ص9.

واحدة، وربط النكبة بالوجود يعني أن مصير البقاء للمشروع الاستعماري هو مصير لإعادة إحيـــاء وإنتـــاج النكبة بشكل مستمر.

نكبة مستمرة، استعراب صهيوني مستمر

تمكنت الحركة الصهيونية بين العام 1947 والعام 1948، وعبر عملية منظمة ومدروسة من طرد ما يقارب من 800 ألف فلسطيني[391]. ومن خلال فصل السكان الأصلين عن أراضيهم، وإخضاع البقية الباقية للأحكام العسكرية، تمكنت الحركة الصهيونية من إرساء دعائم البنية الاستعمارية الاستيطانية على أرض الواقع، ومنـــذ ذلك الحين أخذت السياسات الاستعمارية منحاً أكثر عمقاً في استكمال بنية المشروع. وكانت الوسائل التي استخدمت من أجل فرض منطق السيادة على كافة الأراضي تتفاوت بين استخدام بنية الدولة من أجل تمرير قوانين تمكنها من الاستحواذ على الأرض، وعمليات نفي وإقصاء تجاه السكان الأصليين.

أكدتُ سابقاً، بأن الاستعراب الصهيوني، لا ينفصل عن مسار وبنية الاستعمار الاستيطاني الصهيوني. وباعتبار هذا المنطلق، كقاعدة أساسية لفهم وقراءة بدايات وتطور الاستعراب الصهيوني، يتضح أمامنا بـــأن حـــرب النكبة، وما تبعها من إقامة الدولة، كانت استكمال لمسار الاستيطان الإحلالي، والذي وصل ذروته في محاولة تطهير أكبر حيز استيطاني من السكان الفلسطينيين في حرب النكبة 1947-1948. بالإضافة لذلك، فـــإن كل تتبع تاريخي لتطور ظاهرة الاستعراب الصهيوني، يجب أن يُقرأ من خلال سياق تطور بنية الاستيطان، والتي توظف أدوات سيطرتها وفق الظروف المتاحة والممكنة لتحقيق أكبر مكاسب سيادية في النفي والإقصاء. ومن هنا كان الاستعراب الصهيوني فترة ما قبل حرب النكبة، قد تهيأ كحال باقي أركان المشروع الصهيوني، من أجل الإعداد لمواجهة مصيرية مع السكان الفلسطينيين. يؤكد ذلك كيمرلينغ مشيراً إلى أنه و"مع انتهاء الحرب العالمية الثانية – تلك الفترة التي حمدت فيها كل باقي المسارات- كانت الجماعة الإثنية –اليهوديـــة مـــزودة بالأدوات المؤسسية للصدام الحاسم مع الجالية العربية"[392]. هذا الإعداد تجلى عبر بروز نمط المأسسة، كإطـــار ناظم لسير عملية النفي، وكان المستعربين جزءا من ذلك الفضاء المؤسساتي، بدءاً من بـــارغيورا وهشـــومير، وصولاً إلى قوات البالماخ.

لذا كانت إقامة الدولة الصهيونية عام 1948، هي اللحظة الفارقة في دخول الاستعراب مرحلـــة جديـــدة، خاصة بعد تغيير المعطيات أمام ماكنة الاستعمار الصهيوني في فلسطين. فخلال حرب النكبة، تم السيطرة على

---

[391] انظر: وليد الخالدي. الخطة دالت مجدداً. (مجلة الدراسات الفلسطينية: العدد 96، 2013)، ص303-381.

[392] باروخ كيمرلينغ. مصدر سبق ذكره، ص 164.

أراض ونفي سكان بالقوة والعنف، من أجل بناء الدولة، وهذا البناء من شأنه أن يعيد هضم مكونات الاستيطان السابقة، في مجتمع اليشوف، وأدوات الحركة الصهيونية قبل النكبة، ومن ثم إعادة إنتاجها حسب الحاجات والأهداف المتاحة. وضمن هذا المسار، تم التعامل مع المستعربين، عبر استيعابهم في أجهزة الدولة الأمنية والعسكرية، وتوظيف التجربة وفق الطموحات الاستعمارية التي تتطابق ورؤية الدولة لكيفية تطبيق السيطرة على السكان الفلسطينيين، والمحيط الإقليمي أيضاً.

المستعربون بعد إقامة الدولة، تجربة جديدة

سأتناول في هذا الباب جانبان أساسيان للدخول في مرحلة الاستعراب ما بعد الدولة، أولهما؛ هو دحض مقولة توقف الاستعراب في العقود الأربعة الأولى بعد إقامة الدولة. والآخر؛ هو قراءة تجربة خاصة في الاستعراب بعد إقامة الدولة، والتي تشير لنمط جديد لم يكتمل أو ينضج كما تم في السابق، أو كما سيكون بعد منتصف الثمانينات. والذي يندرج تحت مظلة العمل الاستخباراتي المحض، بأكثر ما يعبر عن تجربة المستعربين كما أقرتها، والمرتبطة بالتنكر والاختراق، والعنف والفوضى، حيث انحصرت هذه التجربة في التجسس وجمع المعلومات، والتي لم تنضج كما سأبيّن.

وأبدأ بالمقولة السائدة التي تدعي بأنه وبعد قيام الدولة تم حل وحدة المستعربين، وانتهى عملها حتى إعادة إحيائها أواخر الثمانينات، أي قبيل صعود الانتفاضة الأولى. هذه المقولة تظهر بصيغتين في الأدبيات التي تناولتها، صيغة غير مباشرة، تنتقل من حقبة المستعربين في البالماخ، عبر فجوة وقفزة تاريخية، وتصل مباشرة إلى عملهم ضمن الوحدات المشكلة قبيل الانتفاضة الأولى، مثلما قدم المسيري في موسعته "موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية"، والتي عرف فيها المستعربين، بدءاً من عملهم في البالماخ بداية الأربعينات ضمن الشراكة البريطانية، ومن ثم انتقل مباشرة إلى حقبة الانتفاضة الأولى باعتبارها المشهد الأحدث والأبرز لظهورهم[393]. أما الصيغة المباشرة والتي عرضها كتاب "المؤسسة العسكرية في إسرائيل" وجاء فيها: "انقطع استخدام المستعربين خلال العقود الأربعة الأولى بعد إقامة إسرائيل ثم تجدد في نهاية الثمانينيات عند انطلاق الانتفاضة الأولى في الضفة الغربية وقطاع غزة، وأصبح المستعربون تحت إدارة وتوجيه الجيش الإسرائيلي"[394]. هذه القراءة تتجه للقطع الكلي بوجود استخدام نشط للمستعربين من قبل المؤسسة الأمنية- العسكرية بعد

---

[393] عبد الوهاب المسيري. مصدر سبق ذكره، ص 146.

[394] جوني منصور، وفادي النحاس. **المؤسسة العسكرية في اسرائيل (تاريخ، واقع، استرتيجيات وتحولات)**. رام الله: مدار، المركز الفلسطيني للدراسات الاسرائيلية، 2009. ص334.

إقامة الدولة وحتى الانتفاضة الأولى، لكن من خلال التقصي التاريخي، ومراجعة عدد من المصادر الصهيونية، اتضح لي بأن عمل المستعربين لم يتوقف أو ينتهي، بل تم إعادة تشكيله في حقبة ما بعد الدولة، وهذا التشكيل لم يُمنَ دائماً بالنجاح، بل تراجع وتقدم، ودخل مسار الاستيعاب وإعادة الإنتاج المستمر وفق الظرف والشرط الاستعماري.

من المهم الأخذ بعين الاعتبار، أن الاستعراب الصهيوني عند دخوله مرحلة المأسسة، منذ إنشاء الدائرة السورية ثم الدائرة العربية في البالماخ 1941-1943، بات يُدرك ويُعرف من خلال المؤسسة. وتطور المؤسسة باتجاه استكمال بنى الدولة، أثر بدوره على تطور الاستعراب ضمنه، وكان هذا التطور يعني أن يُعاد تشكيل الاستعراب والمستعربين وفق غايات وعمل المؤسسة الصهيونية، العسكرية، الأمنية والسياسية. لذلك من الضروري الإشارة إلى أن الاستعراب الصهيوني بات في عملية معالجة مستمرة وفق الأهداف المتبلورة لتحولات المشروع الصهيوني بعد إقامة الدولة، وأحد مخرجات هذه المعالجة كانت في مواءمة الاستعراب للعمل الاستخباراتي الاستراتيجي وطويل الأمد.

كذلك فإن ارتباط بنية الاستعراب ببنية الاستيطان الصهيوني، يوضح بأن استمرار ونجاح الاستعراب ارتبط عضوياً بفاعلية بنية الاستيطان القائمة على السيطرة/الإقصاء، أي أن الاستعراب الصهيوني يتحقق ضمن عملية النفي والاختراق والعنف معاً، من أجل السيطرة، وهي ذاتها غاية المشروع الصهيوني، لذا كانت تجربة الاستعراب الاستخباراتية التي انحصرت بالتنكر والتعايش في الوسط العربي من أجل جمع المعلومات فقط، والتي امتدت 12 عاماً (1952-1964)، قد حظيت بالفشل، كما أقرأها، وكما يقدمها نُعم روتم قائلاً: "في أوائل الخمسينات من القرن الماضي، قرر الشاباك جمع معلومات عن السكان العرب، وتم تدريب الشباب اليهود واستيعابهم في القرى، وتزوج الجنود المتخفين من القرويين والعائلات الراسخة، وبعد 12 سنة، أدركت الدولة أن الأمر برمته كان خطأ حول خدمات الاستخبارات"[395]. وأرى في هذا السياق ضرورة سرد موجز لهذه القصة، لما تحمله من مؤشرات ستكون ذات قيمة مهمة في تكوين تصور تاريخي عن معنى علاقة الاستعراب بالعنف وعلاقته بالاستيطان كأساس للمشروع الصهيوني في فلسطين. يروي روتم قائلاً:

> **هذه القصة بدأت مطلع الخمسينات، عندما لا زالت دولة إسرائيل فتية، وعاش حينها السكان العرب تحت الحكم العسكري. لذلك قرر ضباط من الاستخبارات الإسرائيلية بان عليهم جمع معلومات عن التواصل بين من تبقوا من السكان وإخوانهم الذين خرجوا خارج الحدود بعد النكبة. رئيس جهاز الاستخبارات الإسرائيلية، الشاباك إيسر هاريل في ذلك الحين، ألقى هذه المهمة على ضابط شاب نسبيا، اسمه "صموئيل**

[395] נעם רותם. המסתערבים שהמדינה שלחה כדי להסתנן ולרגל בכפרים ערבים. שיחהמקומית، 31.7.2016، https://mekomit.co.il (استخدم بتاريخ 1.4.2018). نوعم روتم. المستعربون الذين أرسلتهم الدولة كي يتسللوا ويتجسسوا في القرى العربية.

(سامي) موريا"، الذي جند عشرات الشبان اليهود من أصول "شرقية"، يتحدثون باللغة العربية باعتبارها لغتهم الأم، وتم تدريبهم في قاعدة قرب الرملة. تعلموا أن يتكلموا اللهجة المحلية، وتعلموا القرآن وقوانين الصلاة، وكل واحد منهم حصل على قصة تفصيلية–تغطية–عن خلفيته، والتي يجب أن يحفظها بشكل جيد، وتعلموا هناك أيضاً الاتصال اللاسلكي، واستخدام التشفير، والتعامل مع الاسلحة. كانت الخطة هي أخذ هؤلاء الشباب، وتفريقهم في القرى العربية في جميع أنحاء البلاد، حتى يتسللوا داخل المجتمعات المحلية، لينقلوا المعلومات الاستخباراتية لقادتهم في جهاز الاستخبارات الإسرائيلي. وكان الاسم الممنوح لهم هو المستعربين. هكذا، في عام **1952** تم إطلاق العملية ووصل عشرات الشبان اليهود الذين تظاهروا بأنهم لاجئون فلسطينيون إلى القرى والمدن، وبدأوا في الاندماج في السكان، معتمدين على لطف السكان المحليين الذين سيستقبلونهم في منازلهم ومجتمعاتهم. تدريجيا تم استيعاب الجواسيس في المجتمعات الفلسطينية، وجدوا المساكن، وفرص العمل، والاتصالات الاجتماعية. ومع مرور الوقت، بدأ وجود الشباب كغزاب في قلب المجتمعات يثير الشكوك، وكان من الواضح أنه سيكون من المستحيل الاستمرار في مختلف الأعذار حول العزلة الطويلة. وهكذا ، في حوالي عام **1954**، تم اتخاذ قرار في مقر الشين بيت بأن الوقت قد حان لهؤلاء الشباب لبدء الزواج من النساء العربيات وتأسيس العائلات. لم تكن المعلومات التي قدمها المستعربون ذات أهمية حقيقية، وبدأ النقاش بعد **12** عام أي في العام **1964**، حول جدوى هذه المهمة، خاصة بعد اقتراب إنهاء الحكم العسكري على السكان الفلسطينيين المقيمين داخل الدولة، لكن مع مرور السنين تزوج المستعربون نساء عربيات وأنجبوا أطفالا وكونوا أسرا، وهذه كانت معضلة، تحديداً في السؤال حول مصير الأبناء والأمهات في دولة تخص اليهود، لأنهم سيجدوا صعوبة في الاندماج بحكم أن الأب يهودي والأم فلسطينية. من أجل ذلك أنشأ الحاخام شلومو غورين، وهو كبير الحاخامات العسكريين في ذلك الوقت، محكمة مؤلفة من ثلاثة حاخامات حكموا بأنه رغم كون الأم ليست يهودية، كان الأطفال في الواقع يهودًا لأنهم ولدوا خلال مهمة الأب. حتى أنهم اقترحوا أن تتحول النساء في عملية متسارعة وأن يعتبروا يهودا. والنتيجة اللاحقة، بعد كشفهم لأنفسهم كمستعربين، أمام زوجاتهم، إثر انتهاء المهمة، انفصل العديد من الأزواج، وعادت النساء إلى عائلاتهن، وأخذو معهم أطفالهم أبناء المستعربين –الجواسيس. وحاول بعض الأزواج الاحتفاظ بهم، سواء في الخارج أو في إسرائيل، لكن العديد من هؤلاء انفصلت أسرهم في غضون بضع سنوات.[396]

كانت تجربة توظيف وحصر الاستعراب بالعمل الاستخباراتي، يشوبها الكثير من التساؤل، من زاوية تعريف معنى الاستعراب ضمن مكانته في المشروع الصهيوني، كأداة سيطرة/إقصاء. والمهم هو تفسير تبدد تجربة التجسس، وإنهاء المهمة، رغم استمرارها ل12 عام. مع نشوء الدولة، وتغيير حدود المشروع الاستيطاني، بالنسبة للمحيط الفلسطيني والعربي، كان المستعربون أحد أدوات الفحص والاختراق، ضمن سياق العمل الاستخباراتي، لكنهم وبحكم اختلاف بنية الاستعراب عن سياق العمل، لم يُكتب لهذه التجربة أن تستمر، كما استمرت منذ منتصف الثمانينات وحتى يومنا هذا، ولأن الاستعراب الصهيوني مقترن بشكل عملي ومباشر بعملية المحو والنفي.

---

[396] المصدر السابق. انظر أيضاً: מרינה גולן. הזהות הכפולה של המסתערבים. Israel defense، 30.8.2013، http://www.israeldefense.co.il/ (استخدم بتاريخ، 1.4.2018). مرينا جولن. الهوية المزدوجة للمستعربين.

ينتقد روتم العملية برمتها، من منطلق "أخلاقي" في استخدام المستعربين كجواسيس واستغلال الكرم العربي وحسن الضيافة. كما يشير إلى أن فكرة زرع المستعربين داخل السكان المدنيين وليس المنظمات الارهابية، هو تدهور "أخلاقي"، نتج عنه تدمير عائلات ونساء بسبب مساعي جهاز المخابرات الإسرائيلي[397]. ما يهمنا في هذا السياق هو أن وجود مثل هذه الرواية يؤكد على عدم توقف استخدام المستعربين بعد نشوء الدولة، وإن كانت التجربة لم تحقق غاياتها، لكنها تكفي كمؤشر لإدراك حاجة المؤسسة الأمنية لاستخدامهم، ضمن المحيط العربي والمحلي. وكما يقول جوني منصور: "إن الاستعراب، على ما يبدو، لن يكون نصيبه التوقف أو الانتهاء، فهو موجود في حالتي الحرب والسلم على السواء، فحاجة إسرائيل كبيرة وملحة إلى استمرارية توارد المعلومات عن الفلسطينيين والعرب، حتى تتمكن الحكومة الإسرائيلية وهيئاتها السياسية والحربية من بناء خطط للتعامل مع العرب وقضاياهم"[398]. وبالرغم من تركيز منصور على الاستعراب كمصدر معلومات هنا، أؤكد حسب قراءتي، على أن جمع المعلومات هو جزء من الاستعراب، لكن الاستعراب كأحد تجليات بنية الاستعمار الاستيطاني يقوم بالأساس على ممارسة العنف والإقصاء. لذلك كان انفصال عمل المستعربين عن ممارسة العنف وإحداث الفوضى، والاكتفاء بالتجسس وجمع المعلومات، يجسد العجز في تحقيق أهداف المنظومة الاستيطانية، وهو ما دفع لوقف العمل بعد 12 عاما. وبالتالي يظهر أن الاستعراب الصهيوني لم يستطع الانحصار في هذه التجربة، بسبب بنيته، وكان التجسس وجمع المعلومات جزء من الاستعراب، ولم يصلح بأن يكون العكس.

وبالعودة إلى الرواية السابقة، كان من الواضح بأن تشكل الدولة ضمن وجود بقاء أصلاني خاضع للحكم العسكري، داخل حدودها، ووجود محيط عربي تسعى لاختراقه ومحاولة ضبطه- سواء بالحرب أو بالسلم-، كان محدداً جديداً في كيفية بلورة دور المستعربين من أجل تحقيق أهداف الدولة، التي هي أساساً إعادة إنتاج لأهداف الصهيونية. وأذكر في هذا السياق كيفية تحول الاستعراب وقت الانتداب، كما ذكرت سابقاً، من العمل ضمن إطار حدود المستوطنة، إلى العمل ضمن حدود المشروع، كمدخل لتبلور تجربة المأسسة. وفي فترة ما بعد الدولة كانت تجربة المستعربين في ذات التناغم بتحول دور المستعربين ضمن حدود طموحات الدولة في تحقيق السيطرة. من زاوية أخرى، وحسب ما تشير إليه الرواية السابقة، أقرأ من خلالها بأن التجسس لم يكن يكفي-أو مجدي بالكفاية- لتحقيق السيطرة، وإن كان ضروريا كما يقول منصور في توفير مادة معلوماتية تشكل قاعدة معرفية لضبط أدوات السيطرة مع المحيط العربي والفلسطيني، ونموذج ذلك كان واضحا في دور المستعربين في إعداد ملفات القرى قبيل النكبة. لكن السيطرة الصهيونية تعني كما سيتضح من التتبع التاريخي اللاحق، ممارسة أشكال العنف ونشر الفوضى ومحاولة زرع الخوف والإرباك من أجل السيطرة المستمرة

---

[397] نوعم روتم. مصدر سبق ذكره.

[398] جوني منصور. المستعربون: البدايات والجرائم، كيف أعدوا المستعرب وما هي مهماته؟. (قضايا اسرائيلية: مجلد 4، عدد 15، 2004). ص 20.

واليومية على الحيز المستَعمر، بالإضافة للدور المعلوماتي الذي سيتم اشغاله وفق تطور أدوات التجسس وجمع المعلومات لاحقاً، أي بعد نضوج المؤسسة الأمنية. إن فشل استخدام المستعربين في تجربة الـــ12 عاما كان وفق فهمي مرتبط بسبب عدم اقترانه بمغزى الاستيطان، وتحقيق سيطرة ملموسة على الحيز المستَعمر بـــالمعنى الجغرافي.

وفي مقام آخر، تشير الرواية إلى مسألة مهمة، في كيفية احتساب جنسية المواليد وتحديد انتمـــائهم للدولـــة، والذي تحدد عبر مهمة الأب، بمعنى أن ضرورة كون الأم يهودية، لاحتساب الأطفال يهود، قد انتفت أمـــام دور الأب كمستعرب، وهذه العملية التحويلة تشير إلى مدى ارتباط الاستعراب الصهيونية كجزء من هويـــة المشروع الصهيوني، الذي ينتج الأفراد وفق غايات المشروع، لهذا يتم تعريف اليهود من خلال الصهيونية، ليس فقط عبر الانتماء الديني. وهذا مؤشر آخر على كون الاستعراب غير منحصرا فقط بالعمل الاستخباراتي، بقدر ارتباطه العضوي ببنية المشروع الصهيوني والموقعية.

المستعربون، جذور مستمرة، مستقبل كثيف

جسدت الفترة الواقعة بين منتصف الخمسينات، وصولاً إلى منتصف الثمانينات، كمون في دور المســـتعربين، مقابل ما كان في السابق، أو كما سيكون بعد منتصف الثمانينات. واخترت أن أصف تراجع دور المستعربين بالكمون، بدل القطع في الادعاء بتوقف عملهم، لوجود مؤشرات كما ذكرت سابقاً على استخدامهم فتـــرة 12 عاما، انتهت في العام 1964 بفشل العملية. ولتوضيح معنى كمون دور المستعربين، بدل الانقطاع، اعتبر الفترة التي أُعيد فيها إنتاج الوحدة بشكل رسمي قبيل الانتفاضة الفلسطينية الأولى، مؤشر آخر على حضـــور فكرة ودور المستعرب طيلة الفترة السابقة، دون استثمارها بشكل مكثف وعلني، خاصةً أن نشاط المستعربين بات مرتبط بأجهزة مخابرات واستخبارات الدولة، التي تتعمد إخفاء الكثير من المعلومات حول عملياتها السرية، وتحديداً عمليات "الوحدة- سييرت متكال" التي اندمج ضمنها المستعربين، وكانت الجسر الذي من خلاله تم إنشاء وحدة المستعربين "الدوفدفان" من العام 1986، كما سأوضح.

يشير أفرايم لبيد في مقال "من هشاحر إلى الدوفدفان" إلى التطور التاريخي للمستعربين بدءاً من وحدة هشاحر- الفجر في البالماخ 1943، وصولاً إلى تأسيس الدوفدفان كفرقة مستعربين للعمليات الخاصة من العام 1986، ويوضح الرابط في ذلك من خلال مبادرة الضابط ابراهم ارنان في تشكيل وحـــدة للمســـتعربين منتصـــف الخمسينات، التي تكللت بتشكيل أبرز وحدة عمليات خاصة وسرية في تاريخ الدولة "سييرت متكال" في العام 1957. سييرت متكال والمعروفة باسم "الوحدة"، هي عبارة عن: "وحدة عســـكرية منتخبـــة في الجـــيش

الإسرائيلي وخاضعة مباشرة لهيئة الأركان العامة، وتصنف مع دائرة المخابرات، هدفها الأساسي والمركـــزي القيام بتجميع معلومات استخباراتية من عمق مواقع البلاد العربية، وفي الوقت ذاته القيام بتدريب أفرادها على كافة أنواع القتال البري، وخاصة ما تسميه إسرائيل (مكافحة الإرهاب)"[399].

لقد نجح رجال هشاحر في تنفيذ العديد من العمليات بنجاح، كما يقول لبيد، وفي أغسطس 1948، أصبح قسم هشاحر تحت اسم (ش.م 18)، وهو "قسم المهمات الخاصة"، ووحدة من وحدات الاستخبارات الجديدة التي أنشئت مع الجيش[400]. وخلال حرب النكبة كان العديد من أعضائها نشطين في الدول العربية. وكانت هذه الوحدة الأخيرة التابعة للبالماخ التي تفككت في العام 1950، ومع نهاية خدمتها تجند أفرادها كأعضاء في أجهزة الاستخبارات المختلفة[401]. في عام 1957، وضمن فترة "يهوشفاط هركبي" رئيس وحدة الاستخبارات العسكرية، تم إنشاء وحدة جديدة للمستعربين، من داخـــل الوحـــدة 154، والـــتي تخصصـــت في عمـــل الاستخبارات وتجنيد العملاء للمخابرات العسكرية، وكان على رأسها ابراهم ارنان، وفي البداية لم يتم توظيف سوى اليهود السفارديم، الذين يعرفون اللغة العربية[402]. تطورت هذه الوحدة إلى وحـــدة خاصة"ســـييريت متكال" كفرقة كوماندوز تابعة لجهاز الاستخبارات والتي تتخصص في العمل القتالي والاستخباراتي خلـــف خطوط "العدو"، وفي العام 1960 تشكلت الوحدة –سييرت متكال بمبادرة من أرنان من: مستعربين البالماخ، ومقاتلي قدامى في جهاز الاستخبارات، وأعضاء سابقين في الوحدة 101، وأعضاء من لواء المظليين وشباب من الكيبوتسات، وهي من الوحدات الأكثر سرية في أجهزة الأمن[403]. حيث " لم تصادق الحكومة الإسرائيلية أو قيادة الجيش رسمياً ونهائياً على هذه الوحدة إلا في نهاية الثمانينات من القرن الماضي، وخاصة في أعقـــاب انطلاق الانتفاضة الفلسطينية الأولى. أما خطط وفعاليات الوحدة فبقيت طي الكتمان حتى اليوم، إلا ما أُجيز نشره ولا ضرر فيه"[404].وهذا ما يفسر عدم وجود معلومات كافية تغطي نشاط المستعربين في هذه الفتـــرة. ومن أبرز الشخصيات التي تخرجت وعملت في الوحدة: ايهود باراك/قائد الوحدة سابقاً، بنيامين نتنياهو/قائد فصيل سابق في الوحدة، شاؤول موفاز/نائب قائد الوحدة سابقاً، موشي يعلون/رئيس هيئة الأركان العامـــة

---

[399] جوني منصور، وفادي النحاس. المؤسسة العسكرية في اسرائيل (تاريخ، واقع، استرتيجيات وتحولات). رام الله: مدار، المركز الفلسطيني للدراسات الاسرائيلية، 2009.ص331.

[400] אפרים לפיד.מ"השחר" עד "דובדבן" – מסתערבים פעילים בשטח، Israel defense، 14.2.2014، http://www.israeldefense.co.il (استخدم بتاريخ، 30.3.2018). أفراييم لبيد. من هشحر إلى دوفدفان– مستعربين نشطون في المنطقة.

[401] المصدر السابق.

[402] المصدر السابق.

[403] מיכל דניאלי. "היחידה": סיירת מטכ"ל. Mako، 1.7.2011، https://www.mako.co.il/pzm-units/special-units/Article-38b1ec63a4ca031006.htm (استخدم بتاريخ، 30.3.2018). ميكيل دانيال. الوحدة: سييرتمتكال.

[404] جوني منصور، وفادي النحاس. مصدر سبق ذكره، ص331.

للجيش سابقاً، أفي ديختر/رئيس الشاباك سابقاً[405]. وأبرز عمليات الوحدة اغتيال القادة الثلاثة في بيروت، كمال عدوان وكمال ناصر وأبو يوسف النجار عام 1973 بقيادة باراك[406].

يشير أيضاً غسان دوعر إلى تشكيل وحدة للمستعربين في العام 1970، على يد أريئيل شارون-قائد المنطقة الجنوبية للجيش، عندما أعطى تعليماته للكولونيل مائير دغان، لإقامة وحدة مختارة من الجيش، لمواجهة الأعمال الفدائية في غزة، وأطلق عليها اسم وحدة "ريمون"[407]. ويوضح دوعر بأن عمليات المستعربين كانت على شكل حرب عصابات، حيث استخدم فيها المستعربون درجة عالية من العنف، فقاموا بتصفية مطلوبين، وممارسة "حرية" اطلاق النار وفق ما يرونه مناسباً في عمليات الاختراق، والبحث وملاحقة مطلوبين. يؤكد ذلك "جل فرل" في مقاله نشرها مطلع العام 2015، بأن أبرز وحدات المستعربين بعد إنشاء الدولة، كانت وحدة رمون التي استخدمت أسلوب التخفي والتنكر لتنفيذ عمليات بارزة في قطاع غزة[408].

إن تأسيس وحدة دوفدفان، من العام 1986، يوضح الحضور الدائم لمنطق الاستعراب المرتبط ببنية المؤسسة من حيث حاجة التصفية والعنف. وفي تتبع المسار التاريخي كما أقرأه، من البالماخ 1943، إلى الاستخبارات العسكرية والمخابرات، بعد الدولة، وتجربة الـ12 عاما في التجسس حتى منتصف الستينات، ثم إنشاء السييرت متكال بمبادرة ارنان 1957-1960 من مستعربي البالماخ وبعض أفراد المظليين وأعضاء الفرقة 101، بالإضافة لتشكيل وحدة "ريمون" مطلع السبعينات، بتوصية من شارون، كل ذلك يوضح بأن عمل المستعربين لم ينقطع طيلة تلك الفترة، بل دخل مراحل كمون، كان فيها نشاط المستعربين موجود لكن بأقل كثافة عن ما قبله وعن ما بعده. وهو ما يرتبط بحاجة الدولة في فرض وممارسة سيادة استيطانية داخل حدود فلسطين الانتدابية، الأمر الذي يختلف عن فرض معادلة القوة بالنسبة للدول المحيطة، في حالات الحروب التقليدية.

إن مسار نشوء الدولة-إسرائيل من الناحية العسكرية والأمنية، اعتمد على استخدام تكتيكات الضربات الاستباقية، والعمليات المحدودة، بالإضافة لسلسلة حروب وحملات عسكرية بدءاً من حرب النكبة 1948، والعدوان الثلاثي على مصر 1956، وحرب حزيران 1967، وحرب اكتوبر 1973، والحرب الأولى على لبنان 1982. إلى جانب سلسلة أخرى من العمليات الانتقامية بهدف الردع، والتي وصلت بين مطلع

---

[405] المصدر السابق، ص332.

[406] المصدر السابق، ص333.

[407] غسان دوعر. **مصدر سبق ذكره**، ص 31.

[408] גל פרל. שקט, מסתערבים!.20.2.2015، HTTPS://GALPEREL.WORDPRESS.COM (استخدم بتاريخ، 12.4.2018). جل فرل. صمت، مستعربون.

الخمسينات والعام 2006 في العدوان على قطاع غزة، إلى 27 عملية عسكرية انتقامية، شملت شن هجمات عسكرية وعمليات تصفية وغارات[409]. واستنتج من ذلك بأنه كلما تصاعد تركيز الدولة للمواجهة الخارجية، على نمط الحروب التقليدية، أي المواجهة العسكرية بوجود حدود واضحة تكون الفاصل بين سيادة إسرائيل وسيادة دولة أخرى، تراجعت الحاجة لاستخدام المستعربين. وكلما ركزت الدولة على ممارسة سيادتها الاستيطانية في المناطق التي تسيطر عليها، مثل مناطق التوسع الاستيطاني، والمناطق السكانية الفلسطينية التي تعيق وتقاوم هذه السيادة، ازداد استخدامها للمستعربين. بالتالي فإن الفترة الواقعة بين منتصف الخمسينات، وحتى الانتفاضة الفلسطينية الأولى، جسدت فترة كمون المستعربين، وليس انقطاع عملهم، في مقابل إعادة بروز دورهم بعد الانتفاضة الأولى، واستخدامهم بشكل مكثف. بمعنى أن المختلف بعد قيام الانتفاضة الأولى، عن الفترة التي سبقتها في استخدام المستعربين، هو تكثيف استخدامهم بشكل بارز، أي اعتماد دور المستعربين كأداة مركزية في محاولات السيطرة على السكان الفلسطينيين. هذه الكثافة في استخدام المستعربين ستكون السمة الأبرز لفهم الفترة التاريخية منذ الانتفاضة الأولى وصولاً إلى يومنا هذا.

الانتفاضة الفلسطينية الأولى: العنف كرد فعل مزدوج

في العام 1986، تم إنشاء جيل جديد من الوحدة –سييرت متكال في الجيش الإسرائيلي، بناء على مبادرة من رئيس القيادة المركزية ايهود باراك قبل بدء الانتفاضة الشعبية في الأراضي المحتلة، وكانت عبارة عن تشكيلتين "دوفدفان" في الضفة الغربية، تابعة لقيادة المركز، و"شمشون" في قطاع غزة، تابعة لقيادة منطقة الجنوب[410]. منذ تأسيسها، نفذت وحدة "دوفدفان" الآلاف من العمليات في الضفة الغربية، وعبر طرق متقدمة جدًا في الاستعراب[411]. وثق مركز المعلومات الفلسطيني لحقوق الإنسان، قيام وحدات سرية تابعة لقوات الجيش الإسرائيلي بتنفيذ كمائن وعمليات قتل لفلسطينيين، في مخيم بلاطة 1986، وفي غزة في تشرين الأول 1987[412]، أي قبل بداية الانتفاضة الأولى، الأمر الذي أدى لاندلاع مظاهرات واحتجاجات، قامت على أثرها قوات الجيش بفرض إغلاق على المناطق المحتلة لمدة اسبوع[413]. بعد ذلك تم إعادة استخدام "سياسة

---

[409] جوني منصور، وفادي النحاس. مصدر سبق ذكره.ص135-230.

[410] أفراييم لبيد، مصدر سبق ذكره (بالعبرية).

[411] المصدر السابق.

[412] ايليا زريق وآخرون. **تصويب بهدف القتل**. القدس: مركز المعلومات الفلسطيني لحقوق الانسان،1992. ص6.

[413] المصدر السابق.

الوحدات السرية بشكل سري في الشهور الأولى من الانتفاضة الفلسطينية، تحت سلطة وزير الدفاع آنـــذاك اسحق رابين"[414].

إن التوقف عند الانتفاضة الفلسطينية الأولى، يعتبر المحطة الأبرز لمختلف الروايات الـــتي تناولـــت موضـــوع المستعربين. بحكم أنها اللحظة التاريخية التي كشفت فيها المؤسسة الأمنية الإسرائيلية عن هذه الوحـــدة كمـــا سأوضح لاحقاً. وفي قراءتي للاستعراب الصهيوني، ضمن هذه الفترة، فإني أتناوله كجزء من المسار التـــاريخي المتصل، والذي تبرز فيه هذه الفترة، باعتبارها بداية لمسار "جديد/قديم" يتميز بكثافة اســـتخدام المســـتعربين، كأداة لقمع وضبط السكان الفلسطينيين، ومحاولة إخضاعهم. ولتوضيح ذلك سأتوقف عن أمران؛ توصـــيف سياق الانتفاضة الفلسطينية الأولى كونها امتدادا لمقاومة السكان الفلسطينيين التاريخية منذ بدايات وعي مخاطر الاستيطان الصهيوني، وقراءة استخدام السلطات الإسرائيلية للعنف من خلال المستعربين كرد فعل مزدوج؛ أي رد فعل ذاتي في عجزها عن السيطرة الكاملة على الفلسطينيين، ورد فعل على مقاومة الفلسطينيين، باعتبارهم موضع الاستعمار.

لم تتوقف ماكنة الاستعمار الصهيوني من محاولة فرض سيادتها منذ بداية الاستيطان، في الحقبة العثمانية، وفترة الانتداب، حتى إنشاء الدولة في حرب النكبة. و"بحلول العام 1985 كان أكثر من 50% من أراضي الضفة الغربية غير القدس العربية قد صودرت لصالح السلطات العسكرية"[415]، لذا لم تكن الانتفاضة الفلسطينية الأولى حدثاً مفاجئاً أو رد فعل جماهيري على حادث دهس العمال الفلسطينيين في غزة في 8 كانون الأول من العام 1987، بل كانت نتاج تجربة تراكمية للحراك الوطني والاحتجاجي ضد ممارسات السلطات الإســـرائيلية في المناطق المحتلة. وبالرغم من اعتبار تاريخ حادثة الدهس كشرارة تفاقمت على إثرها حدة الاحتجاجات مـــن جباليا إلى نابلس ورام الله، فإن الجماهير الفلسطينية والنخب السياسية العاملة على الأرض كانت في حـــراك مستمر ومتراكم قبل أحداث الانتفاضة، وعبرت بمختلف الوسائل عن إستيائها من وضع السيطرة العســـكرية الإسرائيلية، الأمر الذي جُوبه منتصف الثمانينات بتشديد السياسات العقابية الإسرائيلية. وكما يعلق "جيفري أرنسون" عن هذه المرحلة في فشل سياسات استيعاب الاحتجاجات واستخدام القوة ضمن "إجراءات القبضة الحديدية التي أقرتها الحكومة الإسرائيلية في 4 آب 1985، والتي تعبر عن حالة إخفاق "الجزرة" التي مثلـــها تحسين نوعية الحياة، وعن الاستياء المستشري في جيل يرفض القبول بالوضع القائم. كانت إعادة العمل بالإبعاد والاعتقال الاداري والاحترازي وغيرها من العقوبات الإدارية أهم سمات السياسة الجديدة، سياسة العصا التي

---

[414] المصدر السابق.

[415] عادل أبو عمشة، **الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في الضفة الغربية وقطاع غزة قبل وأثناء الانتفاضة**. نابلس: جامعة النجاح الوطنية، 1989. ص35.

صار الفلسطينيون يعرفونها حق المعرفة"[416]. في المقابل لم تنجح سياسة القبضة الحديدية في وقف الاحتجاجات والاضطرابات، حتى تحولت المواجهة مع القوات الإسرائيلية من الثوابت الرئيسية في الأشهر الأخيرة من العام 1986[417]، ومع دخول ردة الفعل الجماهيرية على حادثة دهس العمال في غزة بداية العام 1987 حيز الفعل الجماهيري، عمت الاحتجاجات والمظاهرات مختلف المناطق المحتلة، وبدأ تطبيق الإضرابات وبوادر العصيان المدني المنظم، كذلك فقد اشتدت حدة القمع الإسرائيلي بمختلف الوسائل العسكرية والإدارية والاقتصادية لوقف موجة الاحتجاجات العارمة.

مع تصاعد حدة الاحتجاجات وتنظيمها بشكل موجه، أدركت السلطات الإسرائيلية ضرورة استخدام القوة ومختلف وسائل القمع من أجل إخماد تطور وتيرة الانتفاضة، ومع بروز دور القيادة الوطنية الموحدة ونضوج المطالب بالخلاص من التبعية السياسية والاقتصادية للسلطات الإسرائيلية، بدأت سلسلة العقوبات والإجراءات التعسفية الجماعية لإحباط الانتفاضة الشعبية، فتم فرض نظام منع التجول، وإغلاق بعض المؤسسات الخيرية والاعلامية، وتم نشر نقاط عسكرية للتفتيش، وطبق سياسة المنع من السفر بما يشمل منطقة معينة يخرج منها ناشطين في الانتفاضة، واستخدمت سياسة هدم واغلاق المنازل، والاعتقالات والتعذيب وسياسة الابعاد[418]، كما "فرضت السلطة الحصار العسكري مرات عديدة، حيث منعت دخول أو خروج البضائع إلى المناطق المحاصرة ومنعت فتح المحلات التجارية في الصباح، وفي إحدى المرات استمر الحصار الاقتصادي على مدينة نابلس 30 يوماً متتاليات"[419]، واستمرت سياسة الاغلاقات منذ اليوم الأول للانتفاضة كإجراء عقابي جماعي، حتى وصل "فرض حظر التجول على مخيم بلاطه خلال العام الأول للانتفاضة 26 مرة، واستمرت إحداها 35 يوما، كما فرض حظر التجول على مخيم الجلزون مائة يوم خلال أول 170 يوم من الانتفاضة، كما تعرض قطاع غزة بكامله وفي آن واحد معا لمنع التجول أربع مرات في السنة الأولى"[420].

قدم أرييه شاليف دراسة عن الانتفاضة الفلسطينية الأولى، والتي جسدت —حسب قرائتي– الرواية الصهيونية لتأريخ هذه الفترة. حيث ركز شاليف على وجود أسباب مركزية وأخرى ثانوية، كان أبرزها كما يقول: "تزايد أعمال العنف ومزيداً من مشاعر الاحباط واليأس، وبناء بنية وطنية تحتية، وغياب الرادع الإسرائيلي"[421]. يركز شاليف على فكرة غياب الرادع الإسرائيلي، باعتباره أبرز أسباب اندلاع الانتفاضة،

---

[416] جيفري أرنسون. **سياسة الأمر الواقع في الضفة الغربية**، بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1990. ص325.

[417] المصدر السابق، ص329

[418] عادل أبو عمشة. مصدر سبق ذكره، ص107–117

[419] المصدر السابق ، ص150

[420] المصدر السابق ، ص149.

[421] أرييه شاليف. **الانتفاضة: أسباب —خصائص– انعكاسات**، ترجمة عليان الهندي. القدس: جمعية الدراسات العربية، 1993. ص33.

حيث أن تلاشي مخاوف جيل الانتفاضة من مواجهة السلطات الإسرائيلية، كان بسبب عدم حضور الرادع، وهو ما أدى بشكل أساسي-كما يؤكد- إلى تصاعد وتيرة الانتفاضة. أرى في هذه المقولة، والتي تجسّد الخطاب الصهيوني، عبر تحميل المؤسسة الأمنية والعسكرية مسؤولية بداية وتصاعد الانتفاضة، بسبب تقصيرها في خلق رادع يمنع الفلسطينيين من العصيان، أي بلغة أخرى، عجز الأمن الإسرائيلي من إخضاع الفلسطينيين والسيطرة عليهم. وهذه سمة تكوينية في بنية الدولة، باعتباره دولة استعمار استيطاني، لا تنحصر فها حاجة فرض السيطرة وقت خروج وعصيان السكان فقط، بل إن السيطرة والإخضاع خاصية بنيوية في الدولة. واستدل من مقولة شاليف في كيفية الرد على مسار الانتفاضة، بأن الإمعان وتصعيد ممارسة العنف، جاء كرد فعل، وهذا يجيب على ما تناولته سابقاً حول معنى تكثيف استخدام المستعربين بعد الانتفاضة بشكل كبير.

ويعدد شاليف الأساليب التي استخدمتها الدولة من أجل إنهاء الانتفاضة، منها زيادة حجم القوات العسكرية في الضفة الغربية وقطاع غزة، واستخدام أساليب شرطية في قمع الاحتجاجات، مثل الغاز المسيل للدموع، واستخدام الضرب بالعصي، والرصاص المطاطي، منع التجول، واستخدام السلاح القضائي، هدم البيوت، الإبعاد، منع من السفر، عقابات جماعية، تقييد حركة السكان والبضائع، بالإضافة لاستخدام الوحدات الخاصة، ويقول شاليف عن ذلك: "ذكرت الصحافة الجنبية أنه تم تشكيل فرقتين، دوفدفان وشمشون، لإلقاء القبض على المطلوبين في المدن والقرى، وإلقاء القبض على أفراد اللجان الشعبية وهي تعمل في الليل، وشن حرب ضد الملثمين، بهذه الطريقة فقد تم اعتقال عدة مئات من الملثمين وبعضهم مع أسلحته"[422].

لقد كان استخدام المستعربين كأحد وسائل السيطرة على السكان الفلسطينيين، كرد فعل على الانتفاضة، وكتعبير عن حاجة البنية الاستعمارية للدولة في فرض سيادتها المستمرة على الحيز المستَعمر، بالتالي فإن تاريخ بدء الانتفاضة الفلسطينية الأولى، هو تاريخ بدء مسار تكثيف عمل المستعربين، عبر ممارسة العنف والفوضى، كوسيلة للإخضاع كما سأبين.

المستعربون في الانتفاضة الأولى، تمثيل- تنكر، اختراق، عنف وفوضى

في هذا المحور أناقش عمل المستعربين فترة الانتفاضة الأولى، عبر أربع تقنيات رئيسية، تشكل إطار عملهم منذ بداية الانتفاضة الأولى، وصولاً إلى يومنا هذا، وهي: التمثيل-التنكر، الاختراق، والعنف والفوضى. حيث لا ينفي ذلك اعتماد الاستعراب تاريخياً على هذه التقنيات، بل أن هذه التقنيات تم استخدامها منذ تأسيس الدائرة العربية في البالماخ، مطلع الأربعينيات، لكنها عادة للظهور عبر مسار جديد، والمتمثل بسيطرة الدولة

[422] المصدر السابق، ص90.

الاستعمارية على مختلف جوانب حياة الفلسطينيين، بعد احتلالها للضفة الغربية وقطاع غـــزة عـــام 1967، وتبلور دور المستعربين في المؤسسة الأمنية–العسكرية ضمن تشكيلات قوات النخبة، التي تختص بتنفيذ عمليات نوعية ومحددة، ذات طابع الضربات الاستباقية والاختراق، بالإضافة إلى صعود الانتفاضة الفلسطينية، كتعـــبير عن رفض سيادة السلطات الإسرائيلية.

وأبدأ بتفسير التمثيل والتنكر، وهو إخفاء مظهر المستوطن، والظهور بمظهر الأصلاني، ويكـــون عـــبر قيـــام المستعرب بتقمص دور الفلسطيني، عبر استخدام اللغة، والعادات والتقاليد، والتنكر بزي يلائم المهمة. وهـــذا تماماً ما قاله شمعون تسومخ—سمعان، مسؤول تدريب المستعربين في البالماخ، بـــأن أهـــم خطـــوة في إعـــداد المستعرب، هي في إنتاج المظهر العربي باحترافية عالية[423]. ويقول باراك واصفاً وحدة المستعربين –دوفـــدفان فترة قيادته للمنطقة الوسطى: "أنشئت الوحدة في العام 1986، من الرغبة لإنشاء وحدة يظهر أشخاصها كما العرب، يتحدثوا مثل العرب، يركبوا على الدرجات النارية في القصبة في نابلس، وكأنهم في ديزنغوف في تل أبيب. أشخاص يمكنهم العمل في تغطية جزئية من أجل الوصول لأهداف دون الحاجة إلى قوات كبيرة"[424]. ويضيف شاي ليفي، في تقرير حول المستعربين، وعمل وحدة شمشون في الشجاعية–غزة، قائلاً: "يمكن رؤية مثال على الطابع الخاص للوحدة في واحدة من الاغتيالات الشهيرة التي قام بها شمشون في قطاع غزة، عنـــدما تخفى مقاتلو الوحدة أنفسهم كالباعة المتجولين والشباب العاطلين عن العمل والعديد من النساء، وكبار السن الذين كانوا كمراقبين. تحت قيادة أوري أزولاي الذي تخرج من سييرت ماتكال، وقاموا باغتيـــال قائـــد في الجناح العسكري لحماس لكتائب عز الدين القسام عماد حسن إبراهيم عقل في قلب حي الشـــجاعية"[425]. يعكس هذا الاستعراض، أهمية وفاعلية التمثيل–التنكر في عمل المستعربين، باعتباره المدخل لتحقيق الاختـــراق ومن ثم العنف والفوضى.

إن أبرز ميزة لوحدة المستعربين هي القدرة على التخفي والتنكر، وفي "محاولة لإزالة الاختلاف بـــين العـــرب واليهود تحاول قوات الوحدات الخاصة أن تستعمل الأزياء العربية وأن تندمج في العادات المحلية عـــن طريـــق ارتداء الملابس المدنية المصنوعة محلياً، وكذلك عن طريق التحدث بلغة عربية سليمة. وكجزء من إضفاء الصبغة الاحترافية على الوحدات أن تستخدم أدوات التنكر المستعملة في المسرح"[426]، يقول أحد المستعربين في مقابلة

---

[423] انظر الفصل الثالث، المستعربون في البالماخ، مستقبل الاستعراب الصهيوني: العنف والفوضى: مقابلة شمعون سومخ —سمعان، ص97.

[424] דבר מפקיד יחידת דובדבן. https://www.idf.il/ (استخدم بتاريخ، 3.4.2018). حديث قائد وحدة دوفدفان.

[425] שי לוי، לוחמי הצללים: 10 דברים שלא ידעתם על המסתערבים، פורסם 18/11/15، http://www.mako.co.il/pzm-magazine/Article-5da80c044b91151006.htm (استخدم بتاريخ، 11.5.2016)
شاي ليفي. مقاتلو الظلال: 10 أشياء لم تعرفوهم عن المستعربين. مصدر سبق ذكره (بالعبرية).

[426] ايليا زريق، مصدر سبق ذكره. ص 10

مع مراسل لشبكة "mako": "لا يوجد شخصية لا يمكننا الدخول فيها"[427]، بمعنى أن المستعرب مؤهل على صعيد تقمص دور أي شخصية بمهارة، وكما يؤكد مراسل شبكة "mako- شاي ليفي" الذي قابل عدد من المستعربين بأنهم "يستطيعوا أن يتحولوا لأي شخص وفي أي مكان، فقد يكون شاب عشريني ويتنكر كمسن كبير، ومن أجل إتقان الأدوار يحتاج جنود الوحدة لعبور دروس متخصصة في التمثيل"[428]، ولا يمنع المستعرب أن يستخدم أي وسيلة تنكرية من أجل تحقيق هدف العملية ففي "تاريخ 5.7.1988 بثت شبكة "abc" خبراً يعود لتاريخ 16.6.1988، حيث وصل رجال أمن إسرائيليين لسلفيت بسيارة تحمل إشارة المحطة "abc"، هم حملوا كاميرات وقدموا أنفسهم كصحفيين من أجل عمل مقابلة مع فتى فلسطيني على أطلال بيته الذي دمُر لاشتباه بإلقاء زجاجات حارقة منه، وفوراً بعد انتهاء المقابلة قاموا باعتقاله"[429]، كما يفيد تقرير "بتسلم" بأن المستعربين يستخدمون كوسائط نقل "سيارات غير عسكرية، عليها لوحات ترخيص الضفة الغربية وقطاع غزة، ويستطيعون أن يستعملوا سيارات أو عربات كانت قد صُودرت من أصحابها في المنطقة لأغراض عسكرية"[430].

يتبع عملية التمثيل والتنكر، عملية الاختراق. وليس فقط الاختراق بمعنى التحول وتمثيل فلسطيني، والدخول بوسائل تنكرية داخل المجتمع والمحيط الفلسطيني، بل إنه تجسيد لدور المستعربين في استخدام فاعلية الحدود الاستعمارية، بوصفها منتج استعماري غير ثابت ومتغير، وقابل للسيطرة من خلال عبوره المستمر من جانب المستعمِر. أي أن الحدود بهذا التفسير تكون طرق عبور باتجاه واحد، يقوم المستعمِر بصناعتها واختراقها وفق حاجة السيطرة، ونموذج المناطق المحتلة، يفسر ذلك جغرافياً. فتكون عملية اختراق المستعرب لحدود الحيز المستَعمر، من أجل تنفيذ المهمة العسكرية-الأمنية، عبارة عن استغلال لمعنى غياب الحدود الواضحة[431]، وترجمة لحاجة السيطرة الاستعمارية المستمرة.

أما العنف، فهو يتبع التمثيل والاختراق، ويهدف إلى تحقيق أكبر قدر من الصدمة والارباك، وخاصة استخدام عنصر المفاجئة المرتبط بدرجة عالية من العنف. ولا يكون العنف موجه نحو هدف واحد، سواء اعتقال أو تصفية، بل بشكل أوسع، وغير محدد، كما سأوضح في أمثلة لاحقة، يكون فيها العنف مساراً لتحقيق العجز لدى السكان الفلسطينيين من مواجهة السلطة الاستعمارية. كما أن الفوضى تلازم العنف، وهي حالة من الارباك، بعكس الاتزان، أو الاستقرار. وأستخدم مفهوم الفوضى لتفسير هدف ومخرجات عمليات المستعربين،

---

[427] شاي ليفي، مصدر سبق ذكره.

[428] المصدر السابق.

[429] פעילות היחידות המיוחדות בשטחים.ירושלים. בצלם,1992.ד62. تقرير بتسليم: عمليات الوحدات الخاصة في المناطق.

[430] المصدر السابق، ص11

[431] انظر: نقاش الحدود الاستعمارية في الخاتمة، ص168.

في إحداث كسر وإرباك داخل النسيج الفلسطيني الفاعل والحاضن للمقاومة، باعتبار المقاومة حالة اتزان، بحكم وجود الاستعمار. وفي حالة الاستعمار الصهيوني في فلسطين، كان المستعربين نموذجا بارزا لمحاولة فرض واقع الإخضاع والسيطرة على السكان الفلسطينيين، عبر ممارسة التنكر، الاختراق، والعنف والفوضى معاً. إن حالة السيطرة الاستعمارية تعني تصفية أي مقاومة محلية، باعتبارها شكل من أشكال الخروج، عدم الانصياع، والرفض، والمناهضة لسلطة السيادة الاستعمارية، وهي بذلك–وفق قراءتي لخطاب السيطرة الصهيوني– عائق أمام تحقيق سيادة استعمارية وفق غايات المشروع الصهيوني. لذا كان التنكر والاختراق وإنتاج العنف والفوضى في الحيز المستعمَر، بهدف الارباك، وكسر توازن المقاومة من أجل التصفية–النفي.

كان نشاط المستعربين، في وحدة دوفدفان وشمشون، منذ بداية الانتفاضة الأولى، يتجه بتسارع نحو تكثيف عمليات العنف لقمع الانتفاضة، سواء في تنفيذ اعتقالات ومداهمات، وتفريق مظاهرات، وبشكل خاص، عمليات التصفية والقتل. حيث وثق مركز المعلومات الفلسطيني لحقوق الإنسان، في الأربع سنوات الأولى للانتفاضة بأن: "75 فلسطينيا على الأقل قتلوا بأيدي جنود الوحدات الخاصة أو بأيدي أفراد من قوات الأمن يرتدون الملابس المدنية"[432]، حيث قتلت وحدات المستعربين 8 فلسطينيين في العام 1988، و26 فلسطينيا في العام 1989، و12 فلسطينيا في العام 1990، و29 فلسطينيا العام 1991[433].

تُجسّد الإحصائيات السابقة، مؤشرا لبداية تكثيف عمل المستعربين، كأحد وسائل ضبط وإخضاع الفلسطينيين. فقد جسدت الانتفاضة الأولى معنى كسر مفهوم السيادة الاستعمارية، وهو ما يفسر بدء الدولة، باعتبارها دولة استعمار استيطاني، تقوم على فكرة وممارسة السيادة الاستيطانية، في محاولة فرض سيادتها بشتى السبل. لذا كان استخدام العنف شرطا أساسيا لمحاولة فرض هذه السيادة، كتعبير عن حاجة الدولة لإنهاء الانتفاضة. ومع ممارسة العنف في عمليات المستعربين، سواء في الاعتقال أو التصفية، هدفت عمليات المستعربين إلى نشر الخوف، والإرباك، عبر استخدام عنصر المفاجئة في عمليات محددة مكانياً زمانياً. ولتوضيح قراءتي لعمليات المستعربين سأقدم نموذجان لعمليات مستعربين أسفرت عن قتل فلسطينيين، والتي ستكشف لنا إطار ومميزات الاستعراب الصهيوني فترة الانتفاضة الفلسطينية الأولى، ومعنى التنكر– التمثيل، الاختراق، العنف والفوضى.

عملية قتل المستعربين لأفراد من عائلة الكرد مطلع الانتفاضة الأولى:

الثاني من نيسان 1988، توقف عربة محلية يستقلها سبعة جنود إسرائيليين، يرتدون ملابس مدنية ويتلثمون بالكوفيات، توقفت بالقرب من محل لبيع اللحوم تمتلكه عائلة الكردي في حي الصبرة في مدينة غزة، حيث

---

[432] ايليا زريق وآخرون. مصدر سبق ذكره. ص4.

[433] المصدر السابق.

جرى تفريق مظاهرة في وقت سابق من ذلك اليوم. قفز الرجال المسلحون من العربة وبدأوا بضرب علي الكردي، وحينما حاول عمه الحاج جميل مساعدته، ضرب هو الآخر، وبعدها بدأ المسلحون بإطلاق النار بشكل عشوائي مستخدمين مسدساتهم الاتوماتيكية. وقد قام جنود الوحدة السرية الإسرائيليون بعد ذلك بقتل ثلاثة من أفراد عائلة الكرد بالرصاص– وهم علي ووالده وعمه– وبإصابة أربعة أشخاص آخرين، كما أصيب ثلاثة من الإسرائيليين. وبعد ذلك بفترة وجيزة وصل جنود يرتدون الزي العسكري إلى المكان وبدأوا بإطلاق النار من بنادقهم الرشاشة، مما تسبب في اصابة أربعة فلسطينيين آخرين[434].

يتضح من ذلك بأن تنفيذ المستعربين لمهمتهم شمل على: تنكر، واختراق ومفاجأة، واستخدام عنف، ونشر الفوضى، ثم الانسحاب. حيث كان تنكر المستعربين عبر ملائمة شكل المستعرب للمكان والسكان، في ارتداء لباس مدني، والكوفيات، حتى يتمكن من دخول آمن نحو الهدف. ومباشرة يتم استخدام المفاجئة وأعلى درجات العنف معاً، حتى تحقيق الهدف، كما هو واضح في تصفية علي الكرد، ومن ثم الانسحاب بوجود تعزيزات. لكن ليس فقط من تم تصفيته هو علي الكرد، بل تم قتل والده وعمه، وهذا معنى عدم الاكتفاء بتحقيق هدف العملية، بل إن هذا مؤشر على وجود مساحة لدى المستعرب لإحداث أكبر قدر من العنف والفوضى في إطلاق النار. وفي عملية أخرى في جنين:

22 آذار 1992، سار أربعة من جنود الوحدات الخاصة يرتدون جاكيتات سوداء وبنطلونات جينز، عبر ملعب كرة القدم البلدي في طولكرم أثناء مباراة كانت تجري فيه بين ناديين رياضيين محليين. سار هؤلاء من لاعب إلى آخر إلى أن توقفوا على بعد 10 أمتار من جمال غانم، وطبقاً لما ذكره شاهد عيان فإن جمال الذي كان على وشك القيام بضربة ركنية شاهدهم، ورفع يديه إلى رأسه كدلالة على الاستسلام، كما حاول الاختباء خلف الحكم، قام الأربعة بإطلاق النار عليه دون أي تحذير فسقط على الأرض، ثم ضغط أحد الجنود بقدمه على كتف جمال بينما كان يوجه بندقيته نحوه، واطلق عدد آخر من جنود الوحدات السرية النار على مدرج الملعب حيث كان يجلس المشاهدون، وهددوا الاشخاص الذين كانوا ما يزالون متواجدين في الملعب. وبعد ذلك بدقائق وصلت 10 جيبات عسكرية إلى المكان وأخذوا جمال. وذكر تصريح للجيش أن قوة من الجيش تعرفت على جمال وطلبت منه التوقف، وحينما حاول الهرب قامت بإطلاق النار عليه مما تسبب في قتله[435].

أما في حادثة تصفية جمال غانم، فقد تنكر المستعربون بدون كوفيات، وهذا بسبب ضرورة عدم إثارة أي شبه وقت الاختراق، وملائمة التنكر للمكان، في ملعب كرة قدم. بالإضافة لذلك فقد تم اطلاق النار من قبل المستعربين لا فقط على جمال، بل على جمهور المشاهدين للمباراة، وهذا ما قصدته سابقاً، في محاولة المستعربين استخدام العنف والفوضى معاً، من أجل صناعة مشهد يثير رعب الفلسطينيين المشاهدين، بمعنى أن اطلاق النار المفتوح من مميزات هذه الوحدة في استخدام أعلى درجات العنف.

---

[434] ايليا زريق وآخرون. مصدر سبق ذكره. ص1.

[435] المصدر السابق، ص2.

استخلص تقرير مركز المعلومات الفلسطيني لحقوق الانسان، والذي أجرى دراسة حالة على 29 عملية قتل من قبل القوات الخاصة الإسرائيلية–المستعربين، وقعت في العام 1991، نمط العمل المتبع في عمليات المستعربين كالتالي: تصل الوحدات الخاصة بسيارات تحمل لوحات تسجيل عربية إلى المناطق السكانية الفلسطينية، لا يرتدي أعضاء الوحدة الملابس العسكرية، بل يتنكرون بملابس تقليدية أو حتى بزي نساء فلسطيني. يظهر بأن المستعربين يكونون على دراية بموقع المطلوب ووجهه واسمه وملابسه. وتتقدم الوحدة من الهدف بشكل كمين، وبدون تحذير مسبق، يبدأ الجنود بإطلاق النار من مدى قريب، وتحديداً المنطقة العلوية من الجسم، وفي حالة عدم تعرض المطلوب للقتل، ويقترب منه أفراد الوحدة ويقوموا بإطلاق النار مرة أخرى، وقتله من مدى قريب أو قتله من خلال الضرب بعد الإصابة. ثم تتدخل بعد ذلك قوات عسكرية بعرباتها المعروفة وبالزي العسكري، لمنع الفلسطينيين من التجمهر أو تقديم المساعدة للضحية[436].

إن التنكر، باعتباره مفتاح الاختراق، ومقدمة العنف، شيء أساسي لعمل المستعربين تاريخياً، وبشكل خاص بعد بداية الانتفاضة الأولى. وما قدمته سابقاً، من اقتباسات توضح حاجة التنكر–التمثيل، كميزة تمكّن المستعربين من تحقيق أهدافهم داخل الحيز المستعمَر. إن استخدام المستعربين خلال الانتفاضة الأولى، والتركيز على إرباك المجتمع وإدخاله في حالات صدمة متكررة، عبر تنفيذ عمليات بدرجة عالية من العنف والفوضى ضمن عنصر المفاجئة. كل ذلك يجسد بداية مسار تكثيف عمل المستعربين من أجل فرض سيطرة استعمارية على الفلسطينيين، باعتبارهم أداة فاعلة لضبط أي مقاومة مناهضة للاستعمار، وهي عملية تسعى لوضع الفلسطينيين في حالة من عدم اليقين والخوف والترقب الدائم، عبر التنكر والاختراق، والعنف والفوضى. حيث يمثل عمل المستعربين وسيلة لصياغة تصور–وعي لدى الفلسطينيين، بأن الدولة الاستعمارية ستظهر في أي وقت وأي مكان، وفي أي شكل وتمثيل، وبأعلى درجات العنف لتضيق فضاء المقاومة–باعتباره فضاء خارج السيطرة الاستعمارية–، وإشعارهم بأن هذا الفضاء غير آمن، وله عواقب العنف والفوضى. وهذا ما قدمه موقع وحدة الدوفدفان الالكتروني، كتعريف بالوحدة، فجاء فيه: "ليكونوا في كل مكان، وشكل، ووقت، للقفز من الصفر إلى المئة، للعمل ليلاً ونهاراً، لتنفيذ عمليات خاصة في كل أيام السنة والحصول على أدق النتائج، هذه هي وحدة الدوفدفان"[437]. إن هذا الادعاء حول قدرة تواجد المستعربين في كل مكان ووقت مركزي وأساسي يهدف إرباك المجتمع الفلسطيني من حجم وحدود السيطرة الاستعمارية المفتوحة، والتي تتمتع من خلال المستعربين باختراق أي فضاء مناهض للاستعمار.

---

[436] المصدر السابق، ص2–3.

[437] حديث قائد وحدة دوفدفان. مصدر سبق ذكره (بالعبرية).

ظهور خطاب الاعتراف

كان مطلع التسعينات هو بداية سياسة الاعتراف الرسمي والإعلامي، من قبل السلطات الإسرائيلية بعمل الوحدة ونشاطها. هذه الفترة ذات أهمية، كونها ستدمج إلى جانب تقنيات عمل المستعربين، بعداً جديداً كأداة خطابية بيد السلطة الاستعمارية، لاستكمال مسار السيطرة والإقصاء. ولتوضيح ذلك، أعود لكيفية تناول شاليف لدور المستعربين، في دراسته عن الانتفاضة الأولى، بطريقة تعكس غياب المعلومات، وعدم دراية كافية بالظاهرة، حيث اكتفى للإشارة بوجود مثل هذه الوحدات العاملة وقت الانتفاضة الفلسطينية، كأداة قمع[438]. وهذا ما يفسر حجب السلطات الإسرائيلية الكشف والإعلان عن عمل الوحدة حتى مطلع التسعينيات.

يشير تقرير بتسلم حول عمليات المستعربين، الصادر في أيار 1992، إلى عملية كان قد نفذها جنود القوات الخاصة المتخفين بزي مدني في 9 أكتوبر 1988 في يطا- الخليل، والتي قتل فيها كمال السريع وفضل نجير. وكانت العملية قد أثارت نقاشاً واسعاً بعد فتح الشرطة العسكرية تحقيقاً بالحادث، وإثر ذلك ظهرت العديد من التقارير التي تشير إلى استخدام الجيش قوات خاصة بزي مدني من أجل تنفيذ عمليات القتل داخل المناطق المحتلة[439]. كما "منعت الرقابة العسكرية الإسرائيلية، في بداية الانتفاضة، نشر تقارير حول الفرق الخاصة. فقد أجبرت محطة تلفزيون سي بي اس CBS على محو شريط كانت قد صورته، دون معرفة، لجنود وحدات خاصة وهم يقفزون من سيارات عربية في مدينة نابلس في تموز 1988ويعتقلون راشقي الحجارة"[440]. و "لم يعترف الجيش بنشاطات الوحدات الخاصة بشكل رسمي حتى 21 حزيران 1991، عندما عرض التلفزيون الإسرائيلي فيلماً خضع للرقابة طوله 15 دقيقة في البرنامج الاخباري المذاع باللغة العبرية، والذي أعده منتج خاص بالتعاون مع قوات "الدفاع" الإسرائيلية"[441].

إن التتبع التاريخي لمسار الاعتراف، والظهور الإعلامي للمستعربين، منذ مطلع التسعينيات، وحتى العام 2018، يشير بشكل واضح إلى زخم حضور المستعربين في الخطاب الرسمي، والفضاء الإعلامي، سواء المكتوب، أو المسموع، أو المرئي، بالمقارنة عن إخفاء ذلك قبل التسعينيات. وهذا ما سأتناوله في المحور التالي لقراءة نشاط المستعربين منذ بداية الانتفاضة الفلسطينية الثانية.

---

[438] أرييه شاليف. مصدر سبق ذكره، ص90.

[439] تقرير بتسليم. مصدر سبق ذكره، ص7.

[440] ايليا زريق وآخرون. مصدر سبق ذكره، ص8.

[441] المصدر السابق، ص9.

من الانتفاضة إلى أوسلو

شكلت بداية الدخول في مرحلة اتفاق أوسلو من العام 1993، والموقع بين منظمة التحرير الفلسطينية، والحكومة الإسرائيلية، نهاية الانتفاضة الفلسطينية الأولى، وليس توقف أعمال المقاومة. بمعنى تراجع الصبغة الجماهيرية الشعبية، ونهاية دور القيادة الموحدة في قيادة الانتفاضة. وكان التحول الفعلي هو في إنشاء السلطة الفلسطينية كجسم تابع لمنظمة التحرير من أجل تنفيذ بنود الاتفاق، وخاصة "الحكم الذاتي" على المناطق التي انسحبت إسرائيل منها عسكرياً. في ذات الوقت برز دور التنظيمات الفلسطينية التي رفضت الاتفاق، خاصة الإسلامية، والتي بدأت سلسلة من العمليات النوعية والعسكرية الموجه ضد إسرائيل. وأخذت هذه العمليات نمط التفجيرات لأهداف إسرائيلية متنوعة.

كانت مرحلة أوسلو، عبارة عن تحول في شكل السيطرة الإسرائيلية على بعض المناطق الفلسطينية، من سيطرة عسكرية مباشرة داخل المدن في الضفة الغربية والقطاع، إلى سيطرة مزدوجة. بمعنى سيطرة وإشراف على الدور الوظيفي للسلطة الفلسطينية، من خلال الاتفاقيات الموقعة، الأمنية والاقتصادية تحديداً. وسيطرة شبه مباشره على حياة السكان الفلسطينيين، والتي جسدها الاستمرار بفرض عقوبات، واغلاقات جماعية، وتعطيل حركة السكان عبر الحواجز، واستمرار سياسات الاعتقال، والتوسع الاستيطاني، وبشكل خاص استمرار استخدام المستعربين، لكن كان من الواضح تراجع كثافة استخدام المستعربين، قبل اندلاع الانتفاضة الفلسطينية الثانية من العام 2000. وبالرغم من تراجع دورهم إلا أنه لم يتم الاستغناء عن الحاجة إليهم، خاصة لتبلور واقع جديد تحتاج فيه السلطات الإسرائيلية من تحقيق أهداف أمنية عبر عمليات محدودة داخل المناطق التي انسحبت منها عسكرياً، وهو ما يفسر حضور المستعربين الدائم في مشهد السيطرة الاستعمارية. ويؤكد لبيد ذلك، بأنه مع دخول اتفاق أوسلو تلقت الوحدة عملية تحول في مسار العمل، حيث لم يعد الجيش الإسرائيلي مقيماً في مراكز المدن الفلسطينية ونشأت حاجة الدخول السري إلى المراكز السكانية الفلسطينية[442].

إن تراجع حدة المقاومة الفلسطينية استدعى بالضرورة تراجع كثافة استخدام المستعربين، وبالتالي فإن زيادة المقاومة يعني بالضرورة زيادة حضور واستخدام المستعربين. وقد كان الهدف الأساسي لعمل المستعربين في الانتفاضة الأولى هو تنفيذ اعتقالات بحق الناشطين الفلسطينيين وقمع الاحتجاجات، ومحاولة ترهيب وفض المظاهرات وإرباك النسيج الاجتماعي الفلسطيني، وقتل مطلوبين، ومع دخول اتفاق أوسلو استمر عمل وحدات المستعربين المرتبط بمهام محددة في اعتقال وتصفية المطلوبين، لكن سرعان ما اشتد نشاط الوحدة خاصة في الضفة الغربية عند بداية الانتفاضة الثانية من العام 2000. فمنذ العام 1988 وحتى أواخر العام

[442] أفرايم لبيد، مصدر سبق ذكره (بالعبرية).

1993 قتلت وحدات المستعربين في الضفة الغربية والقطاع 202 فلسطيني[443]، ومنذ مطلع العام 1994 حتى بداية الانتفاضة الثانية في أيلول 2000 قضى برصاص المستعربين 48 فلسطينيا، وبين العام 2000 حتى 2003 استشهد 172 فلسطينيا[444]، والظاهر أن عمل الوحدة وتركيزها على نمط التصفية تصاعد بشكل ملحوظ في سنوات الانتفاضة الثانية حتى العام 2005، ويورد تقرير نشرته جريدة "يديعوت أحرنوت" في العام 2005، بأن "وحدة المستعربين التابعة لحرس الحدود والعاملة في الضفة الغربية، كانت مسؤولة لوحدها عن تصفية 25 فلسطينيا من أصل 35 مطلوبا قتلوا خلال العام"[445]. وهذا يفسر احصائياً كيف كانت مرحلة أوسلو بحكم تراجع حجم وكثافة المقاومة، تنعكس بتراجع حجم وكثافة عمل المستعربين، في المقابل كانت فترة الانتفاضة الثانية تعكس حجم وكثافة عمل المستعربين، بسبب اتساع حجم وكثافة المقاومة الفلسطينية.

الانتفاضة الثانية، مقاومة أوسع، استعراب كثيف

اندلعت الانتفاضة الفلسطينية الثانية، بعد انهيار المحادثات في كامب ديفيد بين الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات و رئيس الوزراء الإسرائيلي ايهود باراك، ومن ثم دخول أريئيل شارون إلى الأقصى في 28 سبتمبر/ أيلول من عام 2000، وسقوط سبعة فلسطينيين قتلى في مقاومة اقتحام شارون للأقصى، الأمر الذي سرعان ما امتد أثره إلى كافة المدن الفلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة[446]. تميزت الانتفاضة الثانية بتصاعد العمليات العسكرية الفلسطينية، واستخدام وسائل جديدة من قبل القوات الإسرائيلية لقمع الانتفاضة، حيث استخدمت إسرائيل لأول مرة القصف الجوي والمدفعي لأهداف ومواقع وشخصيات بارزة في الانتفاضة، كما قامت باجتياح المدن الفلسطينية– أبرزها مخيم جنين– بعد عامين من اندلاعها، وإقامة جدار يحاصر معظم المناطق الفلسطينية، التي كانت خاضعة لشبه سيادة فلسطينية منذ أوسلو. "ووفقا لأرقام فلسطينية وإسرائيلية رسمية، فقد أسفرت الانتفاضة الثانية عن مقتل 4412 فلسطينيا إضافة إلى 48 ألفا و322 جريحا، بينما قُتل 1100 إسرائيليا، بينهم ثلاثمئة جندي، وجرح نحو 4500 آخرين"[447]. وتشير الكثير من الآراء إلى توقف الانتفاضة الثانية في شباط 2005 بعد قمة عقدة في شرم الشيخ بين الرئيس الفلسطيني محمود عباس، ورئيس الوزراء

---

[443] غسان دوعر. مصدر سبق ذكره، ص 175–186.

[444] نفس المصدر السابق، ص186–196.

[445] יוסי יהושוע וראובן וייס, הצייד.ידיעות אחרונות- אתר הגבורה 8.4.2005، http://www.gvura.org/a343441-%D7%94%D7%A6%D7%99%D7%99%D7%93 (استخدم بتاريخ، 8.5.2016). يوسي يهوشواع و روبين فايس، الصياد.

[446] الانتفاضة الفلسطينية الثانية. موسوعة الجزيرة، الجزيرة، نشر في 28.9.2016. http://www.aljazeera.net (استخدم بتاريخ، 19.4.2018).

[447] المصدر السابق.

الإسرائيلي أريئيل شارون، كاتفاق هدنة بين الفلسطينيين والإسرائيليين[448]. لكن هذه القمة لم تخرج باتفاق سياسي، بل استكملت مسار سيطرت إسرائيل المزدوجة على السلطة الفلسطينية، وبشكل أكبر على السكان الفلسطينيين، كما وزادت منذ ذلك الوقت اقتحامات القوات الإسرائيلية للمناطق التابعة حسب اتفاق أوسلو للسلطة، لتحقيق أهداف أمنية محددة. لذا فإن اعتبار العام 2005، نهاية الانتفاضة الثانية، لا يعكس واقع استمرار السيطرة الإسرائيلية على الأرض، أو حتى استمرار المقاومة الفلسطينية. وهذا ما سيجعلني اقدم هذه الحقبة باعتبارها مساراً مستمر للمقاومة الفلسطينية، ولرد الفعل الإسرائيلية المستمرة في استخدام المستعربين.

ضمن المشهد السابق، كان للمستعربين نصيباً واسعاً في العمل خلال الانتفاضة الثانية حتى يومنا هذا. وحافظ المستعربين على تقنياتهم التي ذكرتها سابقاً، تمثيل- تنكر، اختراق، وعنف وفوضى، لكن أُضيف إلى ذلك الدور البارز في استخدام المستعربين كأداة ضبط بيد الخطاب الصهيوني الرسمي، عبر استخدام وتوظيف الإعلام لتحقيق ذلك. على عكس ما كان في بداية الانتفاضة الأولى، ولا يعزى الأمر فقط إلى ثقة بنية الدولة في الكشف عن عمليات المستعربين، باعتبارهم وحدات خاصة وسرية، بل إن الأمر تجاوز ذلك إلى صياغة صورة المستعربين كأداة مركزية في مشهد السيطرة المستمرة على الفلسطينيين، وهذا ما سأبينه.

المستعربون في الانتفاضة الثانية: مكانة استعمارية جديدة

ذكرت سابقاً، أن مكانة المستعربين في المشهد الاستعماري تعززت بفعل كثافة استخدامهم في الانتفاضة الفلسطينية الثانية، بالإضافة لاهتمام المؤسسة الأمنية والعسكرية بتصدير المستعربين وفق دور مركزي في مواجهة الفلسطينيين. ويعود ذلك لاعتبارات تعميق الثقة داخل المجتمع الاستيطاني بإمكانيات المؤسسة من إدارة وتوظيف العنف في مسار الغاية الاستيطانية، بالإضافة لاستعراض اعلامي بهدف إرباك وزعزعة تماسك الفلسطينيين بالمقاومة. وهذا يرتبط بشكل مباشر بثنائية المستَعمِر/المستَعمَر، والتي تكشف عن نمط السلطة الاستعمارية التي تسعى لممارسة النفي والسيطرة المستمرة، عبر إنشاء المستعرب كنموذج إقصائي.

لتوضيح ذلك، أتناول موقع "البطولة" الالكتروني باعتباره مرآة المؤسسة الأمنية والعسكرية التي تعكس صورتها وخطابها. ويوثق الموقع منح أوسمة "الشرف"، و"البطولة"، و"الشجاعة"، لعاملين ومجندين في المؤسسة الأمنية، أو لمدنيين قدموا خدمات كبيرة للدولة. ويعد وسام "البطولة" في إسرائيل، من المنح المهمة التي تعكس تقدير الدولة والمؤسسة الرسمية لـ"تضحيات" الأفراد، حيث لم تكن تجربة منح أوسمة "البطولة والشجاعة"

[448] المصدر السابق.

للمقاتلين الإسرائيليين بمعزل عن التطور التاريخي لمفهوم "البطولة" في سياق التجربة الصهيونية، إذ تنطلق الفكرة الحديثة لـــِ"البطولة" منذ إقامة الدولة في حرب النكبة 1948، والتي تعتبرها الأدبيات الصـــهيونية أبـــرز "بطولة" في تحقيق حلم إقامة الوطن القومي وحل "المسألة" اليهودية التاريخية في أوروبا، ويصرح بذلك موقع "البطولة" بشكل مباشر[449]. يشير الموقع في تعريفه بأن: "تاريخ النضال من أجل وجود وقيام دولة إســـرائيل والمنسوج بالعمل البطولي الاستثنائي، هذه البطولة ولدت بين صفحات الكتاب المقدس، منذ معارك المكابيين والحرب اليهودية ضد الرومان وانتفاضة الغيتو، ثم النضال السري في الفترة التي سبقت قيـــام الدولـــة"[450]، ويضيف التعريف بأن أول وسام "بطولة" في إسرائيل تم منحه لـــِ 12 مقاتل عقب حرب 1948 في حفل أقيم في 17 يوليو 1949[451]، وكان من أجل تقدير "التفوق والشجاعة" في أرض المعركة.

ويورد الموقع اسم وصورة كل شخص تم تكريمه بوسام "البطولة" من قبل الدولة، ويستثنى من ذلـــك أفـــراد الوحدات الخاصة، حيث لا يتم عرض الصورة الشخصية أو الاسم، ويكتفي الموقع بعرض الرتبـــة والوحـــدة القتالية حسب اللواء أو الفرقة، ويضيف كذلك تاريخ تقليد الوسام وتاريخ تفاصيل الحادث أو العمل الذي تم تقليد الفرد "وسام البطولة" بسببه، كما لا يذكر الموقع بأن متقلد الوسام هو من وحدة المستعربين، ويكتفـــي بالإشارة إلى أنه من فرقة الوحدات الخاصة.

ومن خلال التنقيب والبحث في البيانات المنشورة في الفترة الواقعة بين العام 2000- 2009، تبين أنه مـــن أصل "100" وسام تكريم، حصد المستعربون العاملون في الوحدة الخاصة التابعة لحرس الحدود "30" وســـام بطولة، وكانت جميعها حول عمليات قتل داخل المناطق الفلسطينية. ولتأكيد ذلك، لا يورد الموقع والبيانات كون الوحدة كانت بمهمة تنكرية كمستعربين، لكن ضمن البحث في بعض التواريخ التي وثقها الموقع، يتبين لي من خلال الرجوع لمصادر محلية وعربية اعلامية ومؤسسات حقوق الانسان، أن العمليات المذكورة تمـــت على يد مستعربين متنكرين بالزي المدني وبسيارات محلية. وأورد في هذا السياق نموذج تكريم ضابط في القوات الخاصة التابعة لحرس الحدود "م" في العام "2007"، والذي تقلد وسام "بطولة الخدمة المتميزة على التمييـــز

---

[449] موقع رسمي اسرائيلي وناطق بالعبري يختص بتوثيق كل أوسمة الشرف والبطولة "مثل أشجع محارب"، والتي منحت منذ قيام الدولة وحتى يومنا هذا. انظر: http://www.gvura.org

[450] עפר דרורי، אתר הגבורה – מבוא והגדרות. http://www.gvura.org ، (استخدم بتاريخ، 5.4.2018). عوفر دروري. موقع البطولة– تقديم وتعريف.

[451] المصدر السابق.

وإظهار الشجاعة والمبادرة"[452]، وكانت الواقعة التي "استحق" عليها الوسام قد وقعت في 10.3.2004 في منطقة جنين، حيث أورد الموقع ما يلي:

> **بعد تلقى الضابط "م" معلومات استخباراتية عن وجود مجموعة من خمسة أفراد مطلوبين في مدينة جنين يتحركون بسيارة جيب من أجل تنفيذ عملية، قام "م" مع مقاتلين أخرين بالدخول إلى المدينة بقصد البحث عن المطلوبين، في غضون ذلك وردت معلومات جديدة بانضمام سيارة أخرى لسيارة المطلوبين، وهذا لم يكن وارد، ثم قام المطلوبون بإطلاق النار في الهواء، بعد ذلك لاحقتهم الوحدة واعترضوا طريقهم، الضابط "م" الذي كان برفقة الوحدة ويجلس في الكرسي الخلفي من السيارة، فتح الباب ووجد نفسه مباشرة أمام المطلوبين من السيارة الثانية، أحد المطلوبين أخذ بندقية "M-16" بهدف إطلاق النار، فأطلق "م" النار عليه وأصابه، ثم حاول السائق الفرار تجاه الزقاق فتبعته الوحدة، وبعد مطاردة بالركض خلفه تم قتله على يد القوة، هذه المواجهة أسفرت عن قتل المطلوبين الخمسة، والذين كانوا مسلحين بثلاث بنادق "كلاشنكوف" وبندقية "M-16"، وتم مصادرة الأسلحة والذخيرة من قبل القوة، وعلى هذا العمل منح "م" وسام التميز على إظهار الشجاعة والمبادرة، قلده الوسام المفتش العام "موشيه كرادي" حسب الأنظمة في شهر مايو من العام 2007 منطقة يهودا والسامرة.**[453]

بعد البحث حول التاريخ في المصادر العربية، تبين أن الفلسطينيين الخمسة حسب تقرير المركز الفلسطيني لحقوق الانسان هم: عامر محمد صالح القصراوي -20 عاماً- من مدينة جنين، أيمن محمود سباعنة-22 عاماً- من بلدة قباطية، محمد أحمد خير الله أبو سمرة -25 عاماً- من بلدة قباطية، إيهاب طالب أبو جعفر-26 عاماً- من مدينة جنين، وباسل خالد المهدي -15 عاماً- من مدينة جنين[454]. حيث وثق تقرير المركز التالي: "في جريمة جديدة من جرائم القتل خارج نطاق القضاء، المتبناة رسمياً من قبل الحكومة الإسرائيلية، قتلت قوات الاحتلال الحربي الإسرائيلي بعد ظهر يوم الأربعاء الموافق 2004/3/10، خمسة مواطنين فلسطينيين في مدينة جنين، أربعة منهم من كتائب شهداء الأقصى، الجناح العسكري لحركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح)، كانت تتعقبهم تلك القوات. نُفِّذَتْ هذه الجريمة على أيدي "وحدات المستعربين" التابعة لقوات (حرس الحدود)"[455]. يضيف التقرير بأن الفلسطينيين الخمسة وحسب شهود عيان "تفاجئوا بتوقف سيارتين مدنيتين داخل أحد المباني، على مسافة خمسين متراً منهم، على الفور فتح مسلحون كانوا متمركزين داخل

---

[452] אתר הגבורה. http://www.gvura.org/a344756-%D7%9E%D7%A4%D7%A7%D7%97-%D7%99-%D7%9E (استخدم بتاريخ، 5.7.2016). موقع البطولة.

[453] المصدر السابق.

[454] المركز الفلسطيني لحقوق الانسان، التقرير الاسبوعي حول الانتهاكات الاسرائيلية في الاراضي المحتلة 4-10 مارس 2004، http://www.pchrgaza.org/files/w_report/arabic/2004/11-03-2004.htm (استخدم بتاريخ، 5.7.2016).

[455] المصدر السابق.

السيارتين النار الكثيف باتجاه السيارة المذكورة، أسفر ذلك عن إصابة المواطنين الخمسة إصابات مباشـــرة في الأجزاء العلوية من الجسم، واستشهادهم على الفور."[456]

تشكّل هذه الحادثة التي نفذها المستعربون، وأدت لمقتل خمسة فلسطينيين، مؤشراً مهماً لفهم مسار الاستعراب الصهيونية ضمن فترة الانتفاضة الثانية، والذي يكشف حجم الحاجة للممارسة العنف. في المقابل فإن توثيق العملية وتكريم المستعرب الذي أطلق النار، وإعادة إنتاج الرواية من خلال موقع "البطولة"، يوضـــح الـــدور الجديد الذي يشغله المستعربون في الخطاب الصهيوني الرسمي، الموجه للمجتمع الاستيطاني، والمجتمع المستَعمَر، ويهدف كما ذكرت لتعزيز مكانة المستعرب في مشهد السيطرة الاستعماري.

وبالإضافة لتكريم المستعربين، كان تعزيز إنتاج تشكيلات المستعربين تعبيراً آخر عن حاجة الدولة لمثل هـــذا النموذج الفاعل من أجل السيطرة. حيث عندما تشكلت قوات المستعربين أواخر الثمانينات كانت عبارة عن وحدتين: دوفدفان وشمشون. لكنها لم تبقَ كذلك مع دخول الانتفاضة الثانية، وتوجد وحدة المستعربين اليوم في قوات الجيش والشرطة ضمن خمسة وحدات، "هذا التصريح بشكل رسمي من قبل الدولة بأن في إسرائيل لا يقل عن خمس وحدات مستعربين"[457]. وحسب تقرير أعده شاي ليفي فإن الوحدات هي:

> **وحدة "دوفدوفان" التابعة للجيش، والعاملة في مناطق الضفة الغربية، الوحدة الثانية هي "اليماس" التابعة لحرس الحدود والعاملة في الضفة الغربية، وهي أقرب للدوفدوفان من حرس الحدود، وتعمل تحـــت أمـــر الجـــيش والشاباك سوياً. الوحدة الثالثة هي "يماس الجنوب" وتعمل لمنع التهريب والتسلل من الحدود المصرية وقطـــاع غزة. الوحدة الرابعة هي "يماس القدس" والتابعة لقوات حرس الحدود العاملة في شرق القـــدس، والوحـــدة الخامسة هي وحدة "جدعونيم" والتي تعتبر جزء من تشكيل وحدات مكافحة الإرهاب وتعمل في إطار معالجة الأوضاع على خلفيات قومية وجنائية، وتنشط في القدس الشرقية والشمال، وهناك أيضاً وحـــدات النخبـــة "سوات" والمعروفة باسم "يمام" والتي لها قدرة على العمل في حالات تنكرية، كما اتضح في السنوات الأخيرة أن وحدة "المتساده" التابعة لمصلحة السجون كوحدة نخبة خاصة، تعمل في مهمات خاصة في الضفة الغربيـــة وضمن غطاء الاستعراب والتنكر لتنفيذ مهمات محددة.**[458]

إن اهتمام المؤسسة الرسمية بمكانة المستعربين، كأداة بارزة في مواجهة الفلسطينيين، كان عبر موضعتهم كفواعل مركزية في موقع "البطولة" وتكريمهم. وكذلك الأمر، عبر توسيع إنتاج تشكيلات المستعربين، وعدم اقتصارها بوحدة أو اثنتين فقط، بل بأكثر من خمس وحدات. هذا يعكس الحاجة الاستعمارية في إنتـــاج المســـتعربين كنماذج إقصائية فاعلة، وهو ما سيكون المدخل لتفعيل الخطاب الاعلامي لإعادة إنتاجهم ضـــمن محـــددات المؤسسة الأمنية.

---

[456] المصدر السابق.

[457] شاي ليفي، مصدر سبق ذكره (بالعبرية).

[458] المصدر السابق

العنف في فضاء جديد: المستعرب في دور مزدوج 2000–2018

بات من الواضح انشغال الخطاب الاعلامي الصهيوني، منذ مطلع العام 2000، وحتى يومنا هذا، بعرض تجربة المستعربين، باعتبارها تجربة "فريدة" و"ناجحة". وكانت المؤسسة الأمنية هي من فتحت هذا الفضاء، وبإشرافها سعت لتقديم المستعربين للإعلام الصهيوني، وإعادة إنتاج صورتهم بما يتوافق والبنية الكولونيالية للدولة، ويعكس ذلك حجم التقارير الإعلامية التي أعدت، والتغطيات الصحافية، والظهور المرئي والمسموع لهم على الشاشات العبرية. ولست بصدد الوقوف كثيراً عند مناقشة الخطاب الاعلامي الصهيوني، من حيث مميزاته، ودوره في تمكين بسط المزيد من السيطرة على السكان الفلسطينيين، باعتباره انشاء خطابي استعماري، وإن كان ذلك ضرورياً. لكني وبحكم كم المعلومات التي كشفتها المصادر العبرية خلال هذه الفترة حول عمل المستعربين، سأقدم قراءتي لتاريخ المستعربين وحاضرهم، باعتبارهم جزءا بنيويا في تاريخ الاستيطان الصهيوني، ومن خلال مراجعة تمظهرات المستعربين وإنتاجهم في الفضاء الاعلامي، سأكشف المزيد حول معاني تمثيل الفلسطيني واختراقه، وحجم العنف والفوضى كأهم منتجات للاستعراب الصهيوني.

سأتناول ثلاث نماذج لظهور المستعربين في الخطاب الإعلامي، صحافة مكتوبة، إعلام مسموع وإعلام مرئي. ومن خلال هذه النماذج سأطابق بين السياق التاريخي للاستعراب الصهيوني من حيث بنية العنف والاستعمار الاستيطاني والاستشراق، وحاضر الاستعراب المستمر، كجزء من المشهد الاستعماري والثنائية الاستعمارية. وسأستخدم لتوضيح بنية الخطاب الإعلامي ثلاث تقنيات تكشف عن بنية الخطاب المرتبط ببنية الاستعراب الصهيوني، وهم :الإخفاء/الإظهار، تبادلية الدور والإنتاج، وعنف السيطرة/الإقصاء.

تشكل أليات الإخفاء/الإظهار، فاعلية الخطاب في إبراز أهدافه. وبحكم ارتباط الأهداف بالمؤسسة كجزء من بنية الدولة الكولونيالية، كان الفلسطيني هو الموضوع الاستعماري الذي يركز الخطاب على إنتاج صورته مقابل صورة المستعرب. وكما يمثل الإعلام الصهيوني دور الوسيط الناقل للخطاب، يقوم بخلق واقع رمزي يحاصر ويحدد، ويغطي كما يقول سعيد، واقع آخر[459].

يتميز الواقع الذي يتم صناعته في الخطاب الاعلامي الصهيوني، بالتركيز على أمران: صناعة صورة المستعرب مقابل صورة الفلسطيني، وعلى موضعة العنف كإطار ناظم للعلاقة بينهما أي بين المستعرب والفلسطيني. وأفسر التركيز على العنف كون بنية الخطاب مرتبطة ببنية الدولة الاستعمارية، ولأن العنف هو ترجمة لعلاقة القوة في الثنائية الاستعمارية بين المستَعمِر/المستَعمَر. لذى يسعى الخطاب ومن خلال صناعة واقع الاستعراب

[459] انظر: ادوارد سعيد. تغطية الاسلام: كيف تتحكم أجهزة افعلام ويتحكم الخبراء في رؤيتنا لسائر بلدان العالم. ترجمة محمد عناني، القاهرة: رؤية، 2005.

الصهيوني إلى محاصرة وانهاك الوعي الفلسطيني في إظهار العنف كمحدد للعلاقة الاستعمارية، مقابل تعزيز الوعي الاستيطاني في إنتاج صورة المستعرب كنموذج إقصائي.

خطاب رواية المستعرب على صفحات الجريدة

أبدأ بعرض نموذج للصحافة المكتوبة في مقابلة نشرت على صفحات جريدة "يديعوت أحرنوت"، كشفت عن قصة مقاتل باسم مستعار "ي" في وحدة المستعربين، والذي حاز على وسام "البطولة" الذي لم يُعط لمقاتل منذ 23 عام[460]. لقد قام المستعرب"ي" في العام 2005 بقتل 25 مطلوبا فلسطينيا مع فريق من المستعربين[461]، ويقول في المقابلة: "بأنه لا يحب وصفه بالقاتل، وهو يذهب من أجل اعتقال مخربين مطلوبين، وهم من يعارضوا. وفي وقت لاحق في المنزل، وهو يقرأ الصحيفة يتبين له الوجه الانساني لمن قتلهم"[462]. المهم في هذه المقابلة هي التفاصيل التي من أجلها تم "تكريم" المستعرب"ي"، أي إبراز مكانته في المشهد الاستعماري ك "بطل" باعتباره أداة فاعلة، بالإضافة لحجم العنف الذي سيفسر لنا حاضر الاستعراب، والصناعة الخطابية له في الإعلام كنموذج إقصائي مهم قائم على الثنائية الاستعمارية المستمرة في كل فضاء استعماري.

تتضمن المقابلة مع المستعرب"ي"، تفاصيل حياتية لا تكشف عن هويته، إذ تلتزم المقابلة بإخفاء صورته واسمه أو أية مؤشرات لهويته الحقيقية، وتركز المقال على محورين رئيسيين، يتمثل الأول في استعراض أهم العمليات النوعية التي تتميز بإثارة عالية، وعنف كثيف، أما المحور الآخر فيتناول الوحدة "كأسطورة" قتالية فريدة، ذات دور مركزي، بالإضافة لعرض صورة الفلسطيني كآخر، أو كشيء وفي بعض الأحيان أقرب إلى "الحيوان" كما سأوضح من خلال العرض. أقدم مناقشتي عبر عرض روايتين عن العمليات التي كشفت عنها المقالة، وكانت المسؤولة عن تحويل المستعرب"ي" إلى"أسطورة قتالية" حسب ادعاء الصحافة.

المستعرب"ي"، هو قائد في وحدة المستعربين التابعة لقوات حرس الحدود الـ"يماس"، وهو المسؤول المباشر عن قتل 25 فلسطينيا مطلوبا من أصل 35 مطلوبا تم تصفيتهم في العام 2005 في الضفة الغربية[463]. أحد العمليات التي بسببها منح وسام "تكريم" من الشرطة، هي عملية تصفية "كمال الطوباسي" في مخيم جنين بتاريخ 24.4.2004، والذي اتهمته إسرائيل بتنفيذ عملية "العفولة" التي أودت بحياة ثلاثة إسرائيليين في وقت سابق من الانتفاضة الثانية، يقول "ي":

---

[460] حاز "ي" على الوسام في العام 2005 ويصعب تحديد التاريخ الدقيق من المقال الأصلي الذي يشير بأنه في حدود شهر ابريل.

[461] يوسي يهوشواع وروبين فايس، الصياد. مصدر سبق ذكره (بالعبرية).

[462] المصدر السابق.

[463] المصدر السابق.

وفقا لمعلومات من جهاز الشاباك، كانت نية الطوباسي تدمير مناسبة عيد الاستقلال. لقد تلقينا معلومات بأنه ينوي تجهيز عملية انتحارية على شرف عيد الاستقلال، ثم بدأنا التحضير لعملية القبض عليه. ووفقاً للمعلومات الواردة، كان الطوباسي متوجهاً إلى شقة عبر سيارة داخل مخيم جنين. قائد اللواء المسؤول عن العملية في منطقة جنين تعرف على بعض المطلوبين من حول الطوباسي، لكن الأوامر استمرت بالتمسك بالهدف الأصلي، توجهت القوة نحو الهدف، وعند الاقتراب من الشقة مرت سيارة مسلحين باتجاه الشقة، لكنها حولت مسارها، فوراً ترجلت من السيارة أنا وآخر، وكان الطوباسي يغادر المنزل باتجاه سيارة بداخلها سائق، وكان يرتدي جاكيت عسكري ويحمل على كتفه سلاح من طراز كلاشنكوف، فصلنا عن الطوباسي مسافة **20** متر ولم يلاحظ الطوباسي أو من حوله أننا غرباء، ولم نتحرك، لم نرد أن نقوم بأي حركة تثير الشك بنا، وفور ما أنزل الطوباسي نظره عنا بدأنا المناوشة، تقدمنا مباشرة نحوه من أجل اطلاق النار، ولم يتوقف هو عن دخول السيارة التي بانتظاره، أصبنا السائق الذي قتل، واختبأ الطوباسي خلف غطاء المحرك، ومن هناك أخرج يده وبدأ بإطلاق النار، وصلنا إلى السيارة لمنطقة جذع المحرك، ثم قفزت من خلفها وظهرت مباشرة أمامه، وجهاً لوجه، بمسافة متر ونصف أو **2** متر، وهو قفز أمامي بالكلاشنكوف، لم يكن هناك وقت للتفكير، حتى هذه اللحظة كنت أرى وجهه فقط في الصور، بعد ذلك أدركت أنه سيصيبني، وأردت فقط أن أقتله، وضمن ثواني من المواجهة وإطلاق النار المباشر كل واحد على الآخر، أصبت بطلقة منه، وهو مقاتل جدي قاتل حتى اللحظة الأخيرة[464].

يسرد المستعرب"ي" قصة تصفية "عيس دبابسة"، والتي أوردها كمثال إضافي مهم سيعزز من ادعائي في النقاش:

استلم قائد وحدة (يماس) مكالمة على جهازه التلفوني الخاص من رئيس الحكومة أرئيل شارون، الذي شكره بحرارة على العملية الناجحة في تصفية عيسى دبابسة، وطلب تقديم الشكر لي شخصياً. العملية مرتبطة بمقتل "دربين" ابن الثامنة والعشرين والمقيم مع عائلته في موشاف"معون" جنوب الخليل، والذي قتل عام **1998**، منذ ذلك الوقت وقوات الأمن تسعى وراء عيسى دبابسة المتهم بإطلاق النار على "دربين" حتى الموت. دبابسة تبنى حياة المطلوبين، لم يكن ينام في مكان ثابت، ودائماً يتجول وهو مسلح. وردت معلومة للوحدة أنه موجود في منزل قرب قرية "يطا" المحاذية للخليل، عند وصولنا كان دبابسة يقود تراكتور ويحفر حفرة في ساحة، لم تكن لدي فكرة حول ماذا يريد أن يخبئ هناك، من حوله وقف كثير من الجيران يشاهدون الحفر، تدافعت بين الموجودين، ورغبت أن أراه عن قرب، وجهاً لوجه، وفي اللحظة التي تقاطعت فيها نظراتنا، هو أدرك. هذا نمط لسلوك متكرر لدى المطلوبين، هم شكاكون بصورة لا تصدق، الإحساس لديهم حاد جداً، مثل الحيوانات عندما تلتقي نظراتهم مع صيادهم. هذا حدث لي كثير من المرات. دبابسه قفز من التراكتور وحاول سحب مسدسه، فأطلقت النار عليه، هو سقط داخل الحفرة، لقد حفر قبره، لكني لم أشأ أن أتركه هناك، انحنيت نحو الحفرة وأمسكته من حزامه، وبدأت بسحبه للخارج، وبدأ الفلسطينيون الموجودون حول الحفرة بالهجوم نحوي، إطلاق النار خرج من بيوت مجاورة، هناك شخص أمسك بشعري وشده بكل قوة فأطلقت النار على قدمه، كل ذلك وأنا منحني باتجاه الحفرة وممسك بحزام دبابسة، بذات العين رأيت ابن "دبابسة" وهو يبلغ **17**

[464] المصدر السابق.

عام يركض نحوي مع طورية، هو أيضا أخذ رصاصة في قدمه. تدخلت الوحدة لتفريق الناس وإخراجي، لم أترك الجثة، وكان همي أن أحملها معي ليروا أني أحضرته، ووضعته أمامهم على الطاولة[465].

في سياق المقابلة يورد "ي" القليل عن حياته الشخصية والكثير عن الوحدة والعمليات التي نفذها، ويتناول جانب من طفولته قبل دخوله فلسطين مع عائلته، ويشير إلى اختباره مرارة المحرقة، حيث فقدت أمه كل عائلتها هناك، كما يروي تفاصيل حياته المدرسية والتي اختبر فيها معنى معاداة السامية في شرق أوروبا. والنتيجة التي استخلصها وصنعت منه ما هو عليه اليوم يوجزها في جملة واحدة: "مع الوقت فهمت كم هو فظيع وهذا ما دفعني لفهم أننا نحن اليهود نحتاج لمعرفة حماية أنفسنا بدون أن نسأل أسئلة وبدون حساب"[466].

ونرى في استخدام هذا التعبير منطق الشعور الملازم للرواية الصهيونية بـ"الخطر الوجودي"، وهو المرتبط بتبرير وممارسة العنف من أجل البقاء، الأمر الذي يحيلنا إلى بدايات بذور الاستعراب مع وصول موجات الهجرة الأولى، ومفهوم البقاء الاستيطاني، الذي ناقشته في الفصل الثاني. الأمر الذي يكشف البنية المستمرة للاستعراب منذ بداياته، وحتى يومنا هذا.

تعكس الرواية السابقة، وجهان للاستعراب الصهيوني، كيفية ومعنى ممارسة العنف في إطار السيطرة الاستعمارية، والصناعة الخطابية – الإعلامية للمستعرب. حيث بدأت رواية المستعرب "ي" بوصف إطار الموقعية كمحدد لتعريف الآخر، لذا يقدم كل من الطوباسي ودبابسة، باعتبارهم مطلوبين-"فارين"، وعبر تعريفهم من خلال دورهم وموقعهم المناهض والمقاوم للسلطة الاستعمارية. فيكون أول ظهور للطوباسي بوصفه "مخرب" يسعى لتنفيذ عملية "ارهابية"، وكذلك دبابسة بوصفه "قاتل" يعيش في دائرة من الشك والارتياب والهروب المستمر، في المقابل يبدأ المقال بتقديم المستعرب"ي" بصورة "البطل الأسطوري" الذي يتفاجأ بالوجه "الإنساني" للفلسطيني بعد قتله. بمعنى دخول الفلسطيني في المعنى "الإنساني" وجودياً، بمجرد فصل فاعليتة كمقاوم عن الواقع. من زاوية أخرى، تكشف الروايتين عن حاجة وهوس العنف في تحقيق السيطرة الاستعمارية، خاصة عند التركيز على التصفية المباشرة، أي وجهاً لوجه، بمعنى أن أقرب مسافة فيزيائية تتحقق بين المستعمِر والمستعمَر، تتم من خلال العنف، وتحسم لصالح المستَعمر بأعلى درجات العنف، وهي التصفية. أضف لذلك، ما تناولته سابقاً عن مكانة الفلسطيني في المشهد الاستعماري، واستخدامات تشبيه "الحيوان- الفريسة" مقابل "الصياد"، وهو عنوان المقال، كوصف للمستعرب"ي".

---

[465] المصدر السابق.

[466] المصدر السابق.

تغطية مستمرة: المستعربون في فضاء الاذاعة

النموذج الثاني الذي سأستعرضه، هو نموذج ظهور المستعربين في فضاء الإعلام المسموع؛ الراديو. وهو فضاء آخر يقوم بتوسيع مجال تواجد المستعربين، لتحقيق أكبر حيز ممكن من السيطرة. ويتناول هذا النموذج مقابلة إذاعية مع أحد ضباط وحدة المستعربين الذي حاورته الإعلامية "عادي مائير" ضمن وحدة "يمـــاس" التابعـــة لقوات حرس الحدود العاملة في منطقة القدس[467]، يأتي الحوار في فترة المواجهات المستمرة في منطقة القدس بين الشبان الفلسطينيين وقوات الأمن الإسرائيلية، التي دارت بعد جريمة إحراق الفتى "محمد أبو خضير" في تمـــوز 2014، ركزت المقابلة حول طبيعة عمل الوحدة من حيث نشاطها ضد المتظاهرين في القدس، وتبدأ "مائير" بتعريف قائد الوحدة باسم مستعار مصرحةً بحساسية الوضع الأمني لهذه الوحدة، ثم تركز على فهـــم كيفيـــة تعامل المستعربين مع المظاهرات الأخيرة في منطقة القدس، يقول المستعرب"ت" وهو قائد في وحـــدة "يمـــاس القدس":

> **جوهر العمل يقوم على المعلومة، نحن نتحقق من كل شيء حتى لا يظهر أننا نفقد شيء، وهنا الاعتماد علـــى كل أجسام المعلومات في الدولة التي تكون معلوماتهم موثوقة ومؤكدة. تقريباً في كل عملياتنا كانت المعلومات مؤكدة. نحن نتلقى الاتصال الأولي، فوراً نبدأ بتهيئة الوحدة للتوجه للمكان، ثم نستقبل بالضـــبط المعلومـــة الكاملة، ماذا يحدث في المنطقة، ثم نوائم الوحدة لذات المهمة. عندما نكون هناك نقف من حيث تكون الصورة كاملة أمامنا ثم نفهمها، ونستوعب أين توجد المجموعة، وأين يوجد الشخص الـــذي سيصـــيب أو أصـــاب القوات، ثم أقوم بالتركيز عليه، ومن هناك أوجه الوحدة نحوه، وإذ اشتبهنا بأحد بحوزته زجاجة ملوتوف، وأنه سيقوم بإلقائها وسيصيب القوة، تتوجه الوحدة نحوه وتقوم باعتقاله، عبر وحدة متخفية.وعند وصـــولنا يـــتم تشخيصنا من قبل قوة الاسناد، الهدف الرئيس هو كسر التوازن، ويكون عبر اســـتخدام القـــوة، في معظـــم الأحيان وبمجرد تنفيذ العملية ينتهي خرق النظام، ولا اتذكر في الفترة الأخيرة بأنـــه تم إحبـــاط محاولتنـــا أو كشفنا، لكن في اللحظة التي يتم كشفنا تتدخل وحدة انقاذ لضبط الموقف**[468].

تشكل هذه المقابلة محوراً مركزياً لفهم عمل المستعربين ضد حالات الاحتجـــاج الجمـــاعي- المظـــاهرات، باعتبارها أحد تجليات المقاومة، وتفسير أخر للموقعية والثنائية الاستعمارية.كما أنها إعادة إنتاج لخطاب العلاقة الاستعمارية في قصة دبابسة والطوباسي، والتي يكون العنف فيها محور العلاقة، بمعـــنى أن دخـــول الوحـــدة واختراقها للمظاهرة، هي أقرب مسافة بين المستعَمِر والمستَعمَر، وتحسم فقط من خلال العنف، الذي عبر عنه المستعرب"ت" باستخدام مفهوم كسر التوازن. وهو ما تناولته سابقاً كأحد أهداف الاستعراب، عنـــد مـــا ناقشت تقنيات الاستعراب (تنكر-اختراق-عنف وفوضى)، باعتبار المقاومة والاحتجاج الفلسطيني تعبير عن

---

[467] הכל דיבורים – ראיון בלעדי עם קצין ביחידת המסתערבים שלמג"ב، 12.11.2014.
https://www.youtube.com/watch?v=QZ5xGrp6FIc&list=PLwFXXvOzEbkq4gJlEsD2UoDdtFKxcG_9g&index=31 (استخدم بتاريخ، 5.4.2018) مقابلة حصرية مع ضابط وحدة المستعربين التابعة لحرس الحدود.

[468] المصدر السابق.

حالة اتزان أمام عنف الاستعمار، بالتالي فإن كسر التوازن من أهداف الاستعراب الصهيوني، من أجل زعزعة ثقة الفلسطينيين وإرباكهم وإثارة شكهم المستمر في محيطهم لإخضاعهم.

مسلسل "فوضى"

النموذج الثالث والأخير، هو الظهور الإعلامي في شاشات التلفاز، عبر التقارير الصحفية الكثيفة مؤخراً، والمشاهد التي يوثقها المستعربون في عملياتهم، ويتم نشرها، وبشكل خاص صناعة السينما الجديدة في إسرائيل، التي أنتجت مسلسل "فوضى". تم بث مسلسل "فوضى-פאודה"عبر قناة "yes Oh" الإسرائيلية، بتاريخ 15 فبراير 2015، وهو إنتاج وصف بـــ"الضخم والتاريخي" إسرائيليا حول عمل وحدة المستعربين، وحصد اهتمام واسع وملفت من قبل المجتمع الإسرائيلي.

ألف وأخرج المسلسل "أفي يسخروف" سوياً مع "ليئور راز"، ومن الملفت الاطلاع على عمل "يسخروف" كمعلق للشؤون العربية بدايةً في "صوت إسرائيل" ثم جريدة "هآرتس" ومؤخراً في موقع "واللاه"[469]، ونشر سوياً مع "عاموس هريئل" في العام 2004 كتاب بعنوان "الحرب السابعة- كيف ننتصر ولماذا أخفقنا في الحرب مع الفلسطينيين"، وفي العام 2008 أصدر مع "هريئل" كتاب آخر عن قصة حرب لبنان الثانية، ومن ثم قدم مسلسل فوضى في العام 2015[470]. بالإضافة ليسخروف، كان راز من خلفية مهمة لها انعكاساتها في سياق إنتاج المسلسل، حيث عمل راز سابقاً في وحدة الدوفدفان، ومثلت هذه التجربة باعترافه حافزاً لإنجاز عمل تلفزيوني بأبعاد واقعية[471].

مسلسل "فوضى"، كما يعرفه الموقع الرسمي للعمل، هو :

> **مسلسل تلفزيوني إسرائيلي من نوع الإثارة والعنف "الحركة-أكشن"، يعرض قصتين متقابلتين، من جانب هناك قصة "دورون" قائد وحدة المستعربين التي تحاول القبض على أكبر مطلوب من حركة "حماس" في الضفة، وهو "توفيق حامد- أبو أحمد" وبكل ثمن، حياً أو ميتاً. "توفيق" والملقب بـــ"الفهد" مخرب مسؤول عن قتل أكثر من مئة إسرائيلي. في الجانب الآخر من القصة هنالك "توفيق" وقصة عائلته. "فوضى" مسلسل مليء بالإثارة، يعرض التناقضات في "الصراع" العربي – الإسرائيلي اليومي برؤية الجانبين**[472].

---

[469] וואלה، אבי ישכרוף، http://news.walla.co.il/writer/1(استخدم بتاريخ، 13.4.2018). موقع والاه، أفي يسخروف.

[470] المصدر السابق.

[471] Inside Fauda - Avi Issacharoff, APB Speakers, Published on Apr 3, 2017, https://www.youtube.com/watch?v=mVMPfNtEc4M&list=PLsNV0KwOABYUEjO0E4CQI2wTAHkOngqDI(استخدم بتاريخ، 20.4.2018).

[472] פאודה، https://fauda1.wordpress.com/ (استخدم بتاريخ، 20.4.2018). فوضى: الموقع الرسمي للمسلسل.

يعرض المسلسل قصة شخصيتين مركزيتين، فلسطيني –مطلوب/إسرائيلي–مستعرب. حيث يتم تمثيل، وإظهار الفلسطيني ك "مخرب، خطير، متشوق دائماً للعنف"، مقابل مستعرب "شجاع، جريء، ذكي، عنيد، قوي، لمّاح، مسيطر، وعنيف"، ويتحدث المستعرب العربية بطلاقة ويخترق المناطق الفلسطينية دون تردد. وهذا ما أوردته مقابلة منشورة في "يديعوت أحرنوت"من العام 2005 عن المستعربين، أي قبل عشر سنوات، ورد فيها: "هم لا يخافون، ويتجولون في المناطق الفلسطينية دون تردد وكأنهم يتجولون في منازلهم"[473]، وهذا يشير إلى دور تجربة المستعربين الواقعية في كونها المادة الحية لإنتاج صورة معالجة في إطار العمل التلفزيوني، باعتباره فضاء آخر لنشر عنف المستعربين. وضمن ملاحقة المستعرب "دورن" لـــ"الفهد– أبو أحمد" بهدف قتله، تدور القصة في عجلة إعادة إنتاج الموقعية وعلاقة القوة عبر العنف، فكل اقتراب للمستعرب من المطلوب، تكون أعلى مراحل العنف في المسلسل، وهذا ما اتضح سابقاً في مناقشة مقالة الصياد في تصفية الطوباسي ودبابسة، وأيضاً في نموذج فظ المظاهرات.

يتجلى بشكل واضح اهتمام السينما الصهيونية في صناعة صورة المستعرب ك "بطل"، وهي أيضاً إعادة إنتاج للخطاب الصهيوني الرسمي الذي وضع المستعربين في أبرز مكانة في المشهد الاستعماري، عبر تكريمهم في موقع "البطولة"، كما ذكرت سابقاً. واعتبر أن مسلسل فوضى، ومحاولته لتغطية واقع، وصناعة آخر، عبر تمثيل الفلسطيني، يترجم ما قدمه سعيد في كتابه "تغطية الإسلام"[474]، من حيث دور الخبراء والمؤسسات صاحبة السلطة الاستعمارية، من خلق تصور حول واقع، تحاول تطبيعه وفرضه، من أجل تعزيز سيطرتها على المشهد الاستعماري ككل. كما أن استخدام كلمة "فوضى"، كان لغاية تعكس رؤية المجتمع الاستيطاني، لواقع حياة الفلسطينيين، يقول يسخروف في الإجابة على معنى كلمة "فوضى"، بأنها تصف الواقع الذي يعيشه الفلسطيني خلال الفترة بين العام 2000 و2007، وهو الواقع اليومي الذي كان بسبب الانتفاضة. ويضيف ليؤر راز بأن الكلمة تستخدم أيضاً كنداء عندما يتم كشف تنكر وحدة المستعربين، لاستدعاء الاسناد[475]. بهذا التفسير يتم إنتاج المعاني، كجزء من سلطة خطاب السيطرة، وبطريقة عكسية، بحيث يكون كسر التوازن من أجل وقف الفوضى. لكن ما يحدث حسب قراءتي التاريخية، بأن الفوضى هي منتج لعنف الاستعراب، كرد على المقاومة باعتبارها حالة اتزان يجب كسرها.

---

[473] يوسي يهوشواع وروبين فايس، الصياد. مصدر سبق ذكره (بالعبرية).

[474] ادوارد سعيد. تغطية الاسلام، مصدر سبق ذكره.

[475] Inside Fauda - Avi Issacharoff, APB Speakers, Published on Apr 3, 2017, https://www.youtube.com/watch?v=mVMPfNtEc4M&list=PLsNV0KwOABYUEjO0E4CQI2wTAHkOngqDI (استخدم بتاريخ، 22.4.2018).

حاز مسلسل "فوضى"، على اهتمام الشارع الإسرائيلي، وتمثل "نجاح" المسلسل في إنتاج جزء ثاني منه، بعد شراء شبكة "Netflix" الأمريكية لحق إنتاج وعرض الجزء الثاني، الذي أطلق مطلع العام 2018. وكان محط الاهتمام وفق رأيٍ بحكم محاولة أنسنة رواية المستعرب، كنافذة لتطبيع الرواية الصهيونية. بالإضافة لكون هذا العمل، عبارة عن خطاب أعلامي ودعائي آخر، يسعى لتوسيع فضاء تواجد المستعربين، كنماذج سيطرة وإقصاء فاعلة.

لقد وضحت النماذج الثلاثة السابقة، وما تخللته من روايات حول الاستعراب الصهيوني المستمر، والذي يعكس بنية الاستعمار الاستيطاني، والاستشراق الصهيوني عبر العنف. كما كشفت تقنيات الخطاب الإعلامي الإظهار/الإخفاء، والسيطرة/الإقصاء بأن مكانة المستعربين في الخطاب الإعلامي هي ذات مكانتهم في المشهد الاستعماري، كأدوات نفي وسيطرة مستمرة.

إنتاج متبادل، علاقة متبادلة

لم تكتفِ الصحافة المكتوبة في إسرائيل بتسليط الضوء على عمل وحدة المستعربين، وكانت التقارير الإخبارية المصورة تتوازى مع جهد الصحافة لعرض وصناعة نموذج عن المستعرب باعتباره أداة إقصاء فاعلة ومهمة. بالإضافة لذلك، جسّدت الفترة التي عُرض فيها المسلسل، فترة بروز تناغم وتفاعل بين عمل المستعربين، وكيفية عرضهم وظهورهم في الفضاء الإعلامي. حيث نشأت ما أطلقت عليه تبادلية العلاقة والإنتاج بينهما، بحكم نشوء كل من الاستعراب الصهيوني، والخطاب الإعلامي، من ذات البنية الاستعمارية. بحيث ينتج المستعرب الخطاب ومادته، ويقوم الخطاب بإنتاج المستعرب، في دائرة من التراكم، بهدف تعزيز مجال النفي والقوة، في الممارسة والخطاب. بالإضافة لنوع من الاستعراض المتبادل حول مدى وحجم فاعلية الاختراق والعنف ضد الفلسطينيين.

لتوضيح ذلك، أسلط الضوء على العلاقة التبادلية بين السنيما في نموذج مسلسل "فوضى" والواقع في عمل وحدة المستعربين، بحيث بات كلاهما ينتج من عمل الآخر. إن "فوضى" عبارة عن محاكاة شبه واقعية لعمل المستعربين، تدعي مع بداية كل حلقة أن "كل ما يرد من أحداث لا يتطابق مع الواقع وهو من وحي الخيال"، لكن لا يخفي المخرج استناده في القصة لحقيقة مطاردة أحد قيادات العمل العسكري لحماس في الضفة الغربية "إبراهيم حامد". في زاوية أخرى تمكن المستعربون من محاكاة أحداث المسلسل، حين ظهر في مسلسل "فوضى" عملية اقتحام لمستشفى "رفيديا-نابلس" من أجل تصفية "أبو أحمد –الفهد"، بمعنى محاكاة عكسية، من الخيال إلى الواقع. يقول ليئور راز: "عندما كتبنا هذه الحلقة لم يكن هناك مثيل لهذه العملية في مستشفى،

وبدا هذا كأنه شيئا وهميا تماماً"[476]، ويعلق تقرير مفصل أعده "شاي ليفي" عن وحدة المستعربين ورد فيه مميزات غير معلنه عن المستعربين، وتحت بند "عندما تتجاوز النتائج الخيال"، يقول "ليفي" معلقاً على تنفيذ المستعربين لعمليتين منفصلتين في مستشفى الخليل ونابلس بعد أشهر من عرض المسلسل، "فقط في هذه الحالة يصبح الخيال حقيقة واقعية"[477]، ثم يورد تعليق "ليئور راز" على اقتحام المستعربين لمستشفى نابلس والخليل قائلاً: "لقد فعلوا ذلك أفضل منا بكثير"[478].يظهر من ذلك، أن عملية الربط بين أحداث المسلسل و اقتحام المستشفيات على أرض الواقع، كانت بمثابة استدراك المستعربين لفضاء يجب اختراقه، وهذا يحيلنا إلى ما ظهر في تعريف وحدة الدوفدفان، بأن المستعرب يظهر في كل مكان وكل وقت وأي مظهر[479]. حيث لم يخفِ المستعربون عملية اقتحامهم لمستشفى نابلس والخليل، وهذا ما يعزز ادعاء التبادلية في العلاقة والإنتاج، وأقدم في هذا السياق عرض لما دار خلال اقتحام مستشفى الخليل، كما ورد في التسجيل المنشور للعملية:

> **المستشفى الأهلي في الخليل، يوم الخميس الموافق 12.11.2015، الساعة الثانية والأربعون دقيقة تقريباً، رجل برفقة امرأة حامل يدخلون المستشفى، يتبعهم بعدة خطوات امرأة منقبة بصحبة رجلين أحدهما على كرسي متحرك ومغطى برداء، بعد دخولهم جميعاً من باب داخلي في المشفى يتبعهم 16 شخص "يبدون في مقتبل العمر"، وأولهم يحمل حقيبة ظهر، ينتقل المشهد المسجل ليوثق لحظة التحول من التنكر إلى الحقيقة، وتلتقط كاميرا أخرى الممر المؤدي لغرفة "عزام الشلالده"، خلال لحظات ينهض الشخص الجالس على الكرسي المتحرك "يظهر أنه قائد العملية"، وهو أول من يشهر بندقية أتوماتيكية تحمل فوهة كاتمة للصوت، ويتبعه انتشار منظم لجميع القوة المشكلة من 21 فرد، وفي أقل من 5 دقائق يظهر في ذات الكاميرا خروج المجموعة مع الكرسي المتحرك الذي يجلس عليه شخص يحيطوه ما يقارب الخمسة، ثم تغادر القوة المستشفى، ليتضح أن الشخص الجالس على الكرسي المتحرك عند مغادرتهم المستشفى هو "عزام شلالدة"، حيث تم اختطاف "عزام" وهو جريح من غرفته، بالإضافة لإعدام ابن عمه "عبد الله" وتكبيل أخيه "بلال" بسرير مجاور داخل الغرفة**[480].

كان هدف وحدة المستعربين التي اقتحمت المستشفى، هو اعتقال "عزام" وعملية الاعدام التي نفذت لم تكن على خلفية التشخيص ثم التصفية، ويبدو أن إطلاق النار الذي تم كان من كاتم الصوت فور اقتحام الغرفة، حيث أصيب عبد الله "بثلاثة أعيرة نارية في الجهة اليسرى من الرأس، والصدر وساعد اليد اليمنى"[481]،

---

[476] شاي ليفي، مصدر سبق ذكره (بالعبرية).

[477] المصدر السابق

[478] المصدر السابق

[479] حديث قائد وحدة دوفدفان. مصدر سبق ذكره (بالعبرية).

[480] Israel executes Palestinian in hospital room, the electronic intifada, 13 november 2015.https://electronicintifada.net/blogs/ali-abunimah/israel-executes-palestinian-hospital-room (reused in 22.4.2018). النص هو تفريغ لأحداث الفيديو المنشور حول العملية.

[481] المركز الفلسطيني لحقوق الانسان، قائمة باسماء ضحايا جرائم قوات الاحتلال الاسرائيلي منذ تاريخ 2 أكتوبر 2015، http://pchrgaza.org/ar/?p=11687 (استخدم بتاريخ، 22.4.2018).

وبتحليل مشاهد الفيديو يتضح أن الوحدة التي جاءت تعمدت أن لا تخفي عملية الاعتقال من حيث تقنية الاقتحام والتنكر، ثم التنفيذ والانسحاب، ومن المعلوم أن وجود الكاميرات لم يكن مخفياً، و لم تكن الكاميرات سرية إذ وضعت لافته على مدخل المشفى الرئيس–كما يظهر في التسجيل–وضع عليها بأن المستشفى مراقب بالكاميرات، هذا ما يؤكد معرفة الوحدة بوجود الكاميرات، وبالتالي توقع سيناريو تسجيل العملية بالكامل. وما يعزز نقاشي، أنه وفي تاريخ 4.10.2015 أي قبل وقوع حادث مشفى الخليل بشهر تقريباً، اقتحمت وحدة من المستعربين مستشفى نابلس التخصصي، وقاموا باعتقال الشاب "كرم المصري" وهو مصاب بكسر في يده، بنفس الطريقة تقريباً[482]، في المقابل وثق التلفزيون الإسرائيلي في تقرير أعده برنامج "الحقيقة–عوفدا"[483] حول وحدة المستعربين "يمام"، نشر بتاريخ 20.11.2015، وهي الوحدة المسؤولة عن تنفيذ اقتحام مستشفى نابلس، عملية اعتقال "كرم منصور" من غرفته داخل المستشفى، حيث رافق الاقتحام تسجيل واقعي لتفاصيل الاقتحام حتى اعتقال "منصور"، وتضمن التقرير بث مقاطع عن العملية، بالإضافة لمقابلة مع مسؤول الوحدة، وركز التقرير على عرض قدرات وحدة "اليمام" ومسؤوليتهم عن اعتقال وتصفية مطلوبين تسببوا بإصابة وقتل إسرائيليين. بذلك تظهر بوضوح وجود علاقة تبادلية بين صناعة صورة حول المستعربين في السينما، وعملهم على أرض الواقع من أجل صناعة هذه الصورة، كوسيلة للإخضاع والسيطرة.

خاتمة

تمثل هذه الحقبة التاريخية مؤخراً، أبرز وأكثف حقبة لنشاط المستعربين، منذ بدايات الاستعراب الصهيوني وقت الهجرات الأولى، وتبلور الحراسة وتنظيمات الحراسة. لذا ستكون هذه الفترة كمنتج لتاريخ الاستيطان الصهيوني المستمر، والمقاومة الفلسطينية المستمرة، أهم محطة يظهر فيها الاستعراب الصهيوني بأوضح صوره. والتي لا يخفي فيها حجم العنف والتمثيل الاستشراقي، الذي كان يخفيه منذ بدايته من العام 1880. ولأنني استند لمفهوم العنف كمكون أساسي للاستعراب الصهيوني، بالإضافة لبنية الاستعمار الاستيطاني والاستشراق، تجسد هذه الحقبة مركزية المستعربين في المشهد الاستعماري، باعتبارهم أداة أساسية لاستكمال المشروع الصهيوني.

---

[482] وكالة معاً الاخبارية، 4.10.2015، https://www.maannews.net/Content.aspx?id=801563 (استخدم بتاريخ 22.4.2018)

[483] עובדה، עובדה עם אילנה דיין – המסתערבים שלכדו את רוצחי בני הזוג הנקין. פורסם 20.11.2015، http://www.isramedia.net/forum/2/%D7%97%D7%93%D7%A9%D7%95%D7%AA?p=56334 (استخدم بتاريخ، 23.4.2018) عوفدا، عوفدا مع إلينا ديين– المستعربين الذي القوا القبض على قتلة الزوجين هينكن.

وبالعودة إلى الخطاب الإعلامي الصهيوني الذي تبنى المستعربين، وسعى لإعادة إنتاج صورتهم ضمن الحاجة الوظيفية لبنية الدولة الكولونيالية. أصبح نشاط المستعربين لا يعني فقط الممارسة الفعلية لعمليات الضبط والسيطرة، من خلال الاعتقالات والتصفية وتفريق المظاهرات، بل دخل في مرحلة تعزيز وإعادة إنتاج ضمن فضاء الخطاب الإعلامي. وبما أن الخطاب كما يوضح لنا فوكو، هو إنتاج مؤسسي، وموقع تمارس فيه سلطات رهيبة، ذات فاعلية الإقصاء والعزل والمراقبة والسيطرة[484]. ويجسد الخطاب الإعلامي الصهيوني حول المستعربين ذلك النموذج الذي تتفاعل فيه مكونات السلطة الاستعمارية من أجل الإقصاء. وبهذا المعنى يفسر لنا فوكو بأن "إنتاج الخطاب في كل مجتمع، هو في نفس الوقت إنتاج مراقب، ومنتقى، ومنظم، ومعاد توزيعه من خلال عدد من الإجراءات التي يكون دورها هو الحد من سلطاته ومخاطره، والتحكم في حدوثه المحتمل، وإخفاء ماديته الثقيلة والرهيبة"[485]. بالتالي ندرك بأن المجتمع الاستيطاني، كجزء من البنية الاستيطانية، بمختلف مؤسساتها حَضنَ وانتجَ بدوره الخطاب الاعلامي حول المستعربين، وهذا الإنتاج عكس معنى رغبة السلطة الكولونيالية في تعزيز سيطرتها ومحاولات ضبطها للفلسطينيين. ميزة أخرى، بذات الأهمية؛ هي أن الخطاب الإعلامي الذي يُنتج صورة ودور المستعرب الجديد، استخدم بقوة تقنيات الإظهار والإخفاء. وبقدر ما سعى الخطاب الإعلامي لإظهار المستعرب في صورة "البطل"، ضمن المكانة التي أنشأتها الدولة للمستعرب، كما ظهر في موقع "البطولة"، فإن هذا الخطاب يُخفي الرغبة الاستعمارية لإنهاء وانهاك الفلسطيني، في الوقت الذي تعرضت فيه صورة الجندي النظام بعد حرب تموز2006 وعملية نحال عوز2014 للاهتزاز كما سأوضح.

في منظور إضافي، كان ظهور المستعربين في فضاء الإعلام المرئي والمسموع والمكتوب، يتم ضمن عملية صناعة نموذج "البطولة والأسطورة" كرسالة وخطاب إعلامي موجه، للمجتمع الاستيطاني من جهة، وللفلسطينيين من جهة أخرى. فمن زاوية المجتمع الاستيطاني، تبلورت ضرورة عرض نموذج البطولة بحكم الحاجة لطمأنت الذات الاستيطانية لقدرتها المقترنة ببقائها، ومن زاوية أخرى، كان الهدف عرض هذا النموذج كمحاولة من أجل الإنهاك ونشر الخوف لضبط وإخضاع الفلسطينيين وتضييق فضاء مقاومتهم. حيث تتعمد وحدة المستعربين مؤخراً، تقديم عملياتها كتجارب "خارقة" وناجحة، وهذا يظهر في التسجيلات المسربة أو التي التقطتها بعض كاميرات المراقبة في مواقع تنفيذ عمليات الوحدة، وفي الكتابات المنشورة والتقارير التي استعرضتها سابقاً، في المقابل يؤدي الإعلام الإسرائيلي دوراً موازياً في تقديم المستعربين كنموذج "خارق للبطولة" كترجمة للرغبة الاستعمارية، التي تتجسد كرد على اهتزاز صورة الجيش الاسرائيلي، والجندي

---

[484] ميشيل فوكو. نظام الخطاب، ترجمة محمد سبيلا. بيروت: دار التنوير، 1984، ص5. نقلاً عن نسخة الكترونية: https://www.goodreads.com/book/show/9520571 (استخدم بتاريخ، 23.4.2018).

[485] المصدر السابق، ص4.

الاسرائيلي النظامي، بعد سلسلة صدمات تعرض لها المجتمع والدولة الاستيطانية منذ حرب تموز 2006 مع حزب الله، ثم في شن ثلاث حروب على قطاع غزة بدأت في ديسمبر 2008 تحت اسم عملية الرصاص المصبوب، وعملية عامود السحاب في نوفمبر 2012، ثم عملية الجرف الصامد في يوليو 2014. وكان المنعطف الحاسم هو نشر كتائب الشهيد عز الدين القسام لتسجيل خلال الحرب عن عملية نوعية في معسكر "نحال عوز"، الأمر الذي شكل صدمة كبيرة لدى المؤسسة الأمنية الاسرائيلية والمجتمع المراقب في اسرائيل لمجريات الحرب، حيث تضمن إصدار كتائب الشهيد عز الدين القسام تصويراً واقعياً بعدسة أحد منفذي الاقتحام[486]، وظهر في التسجيل أفضلية واضحة للمقاومين من حيث السيطرة على الموقع العسكري الاسرائيلي، في المقابل كان إداء الجنود الإسرائيليين يعكس حالة ظاهرة من الخوف والارتباك والهلع، وتحديداً بعد سحل المقاومين لأحد الجنود الإسرائيليين لمحاولة خطفه ثم قتله واغتنام سلاحه، وانتهت العملية بقتل خمسة جنود وانسحاب المقاومين دون خسائر.

كانت المشاهد السابقة باعتراف الإعلام والجيش الاسرائيلي تندرج تحت مفهوم "الحرب النفسية"، حيث نشر موقع القناة الثانية الاسرائيلية: "بأن الإصدار هو من أدوات الحرب النفسية التي تتبعها حركة حماس"[487]، وهو ما أرى فيه تأكيداً لادعائي القائم على أن مركزية المستعربين في الخطاب الإعلامي الاسرائيلي، جاءت رداً على مخرجات المواجهات العسكرية لإسرائيل منذ العام 2006 وحتى العام 2014، والتي هي جزء من تكوين العنف الاستعماري كرد فعل على المقاومة. بالتالي كانت الحاجة الاستعمارية تتجسد في إعادة الاعتبار لصورة الجندي الاسرائيلي، ليكون نموذج المستعربين هو الأداة الفاعلة التي من خلاله يمكن جمع عناصر الرواية الصهيونية وانتاج بطولة خارقة ضد "الأغيار". لذى تم استبدال –حسب قراءتي- لخطاب مركزية الجندي النظامي والجيش الذي لا يقهر، أمام الجيوش والتشكيلات العسكرية المقاومة، بخطاب المستعرب "الخارق" أمام ال"المطلوب القلق والفار دائماً"، كما يظهر في مقالة الصياد ومسلسل فوضى.

---

[486] انظر: عملية اقتحام نحال عوز، نشر بتاريخ **29.7.2014**، https://www.youtube.com/watch?v=gTz3rmkAVaQ (**استخدم بتاريخ، 13.4.2018**)

[487] חדשות 2، חמאס תיעד: חדירה במנהר הו ניסיון לחטוף חייל، 29.7.2014. http://www.mako.co.il/news-military/security/Article-9956ed7b8638741004.htm (استخدم بتاريخ، 13.4.2018)

الفصل الخامس

مقاربة ختامية

- مقولة الدراسة ومسارها

كان المستعربون، ولا يزالون، من أبرز أدوات الاستعمار الاستيطاني الصهيوني لتحقيق السيطرة/الإقصاء. ومن خلال دراستي، ومحاولة كتابتي لتاريخ الاستعراب الصهيوني، توصلت لتوثيق بداية تشكل ظاهرة المستعربين، مع بداية تشكل بنية الاستيطان الصهيوني في فلسطين. ومع تتبع وقراءة مسار تطور الاستيطان منذ بداية الهجرة اليهودية، وتتبع مسار العنف، توصلت إلى أن كتابة تاريخ المستعربين، هي كتابة لتاريخ عنف الاستعمار، والمتشكل تاريخياً كرد فعل على مقاومة السكان الفلسطينيين للسيادة الاستيطانية. وضمن هذه القراءة التاريخية، كانت الموقعية وثنائيات الاستعمار، وتشكيل الحدود الاستعمارية المتجدد، والتمثيل الاستشراقي مع بنية الاستعمار والعنف، ورد الفعل على المقاومة بكثافة استخدامهم، هي محددات قراءتي للمستعربين. وعلى ما يبدو أن محاولة فهم وقراءة ظاهرة الاستعراب الصهيوني خارج هذه المحددات، تبقى عاجزة عن الفهم المعمق والتاريخي، الذي يفكك الرواية الصهيونية التي تحتكر بدورها إنتاج رواية المستعربين.

تناولت في دراستي وعبر فصولها الأربع، تاريخ الاستعراب الصهيوني. وكان الفصل الأول، الإطار النظري، يتناول مقولة الرسالة وفرضيتها وسؤالها ومنهجية البحث المرتبط بموقعيتي، وفي نقاش مراجعة الأدبيات ركزت على محاولة فهم وتفكيك الرواية الصهيونية، عبر الخطاب الصهيوني الرسمي، متمثلاً بمؤسسات الدولة، والخطاب الصهيوني الأكاديمي، الذي يُعيد إنتاج رواية الخطاب الرسمي، بلغة أكاديمية. فمنذ وصل أوائل المستعمرين- المستوطنين إلى فلسطين، وبداية تشكل نواة وبنية المشروع الصهيوني خارج وداخل فلسطين، قدمت الرواية الصهيونية حكايتها بما يتناسب سويةً مع مسار الاستعمار الاستيطاني وحاجاته، ويمكن أن نبدأ من توصيف "ثيودور هرتسل" في كتابه "دولة اليهود" برؤيته لمستقبل إنشاء دولة يهودية كحاجز أمام "البربرية"، وصولاً إلى الكتابات الأكاديمية والبحثية التي وُجِدت في سياق واقع إقامة الدولة منذ العام 1948. لقد انبرت مختلف الأدبيات والمداخلات الإسرائيلية حول ظاهرة المستعربين على مخزون هائل من التجربة التاريخية والرصيد المعرفي التراكمي للخطاب الصهيوني. وكانت محاولة السعي لملىء حيز التاريخ، إما عبر تطبيع التجربة الاستعمارية في فلسطين، وترويج الدعاية الصهيونية بأن استعمار فلسطين جزء من حركة استعمار عالمية ومصير مرتبط بالحداثة، مثل ما قدمه "باروخ كيمرلينغ"[488]، أو عبر حكاية ضرورات الوجود والبقاء،

[488] انظر في : باروخ كيمرلينغ. **المجتمع الاسرائيلي مهاجرون مستعمرون مواليد البلد**، ترجمة هاني العبد الله، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2011.

والتي اقتضت تحقيق هذا "التحول" التاريخي في إقامة الدولة ك "حقيقة تاريخية" أدت إلى ولادة شعب ونفـــي آخر، كما يقدم "بني موريس"[489]. أو على غرار رؤية التجربة الصهيونية كحركة صراعات داخلية–خارجية تطورت ضمن سياق "التجربة والخطأ"[490] كما يؤكد "غرشون شافير".

وفي صورة أكثر تخصصاً حول المستعربين، تم عرض الظاهرة في الخطاب الرسمي كجزء من تجربة "الطلائعيين" في إنتاج اليهودي الجديد، وعبر ضرورات "الأمن والدفاع" سوياً، كما ينعكس في موقع "الهاجاناه"[491] تحت تعريف تجربة الاستعراب. يركز هذا الخطاب على مفاهيم البنى المؤسساتية للأمن كضرورة مكنت المجتمع مـــا قبل الدولة من "العبور" نحو "التحرر"، بالمقابل الوقوف عند مفهوم "الطلائعيين" كنماذج ثورية تعبر عن بعث نموذج اليهودي الجديد. بهذا المعنى يكون المستعرب تجسيداً لتلك الفكرة والتي يتوسط فيها بين "الحداثة الغربية" ومحاولات الأصلنة، ولكن فقط من خلال المؤسسة والمشروع القومي الصهيوني. وبمحاذاة المســـار الرســـمي للخطاب الصهيوني، عرض بعض الباحثين والكتاب الوصف التاريخي لتبلور المستعربين كجزء مـــن التجربـــة الرومانسية في اللقاء مع الشرق، كما يستخدمه بعض المؤرخين أمثال "غيل إيال"[492]، إذ يرى في المســـتعرب تعبير عن هوية "هجينة" كاستجابة لشروط الواقع الاستيطاني الجديد، ومحاولة لطمأنة الذات، والتي كان دور الاستشراق الصهيوني فيها حاسماً كونه بات "انعزالياً" يسعى لترسيخ الحدود وتطهير المستعربين من "هجنتهم" في إنتاجهم ضمن تجربة المؤسسة الأمنية القائمة على الفصل[493]. أو مثل قراءة كيمرلينغ والـــتي تـــدلل بـــأن الاستعراب الصهيوني جزء من الوعي بحاجات حركة العمل في مخاضها القومي، والتي أنتجت احتلال العمـــل والحراسة، بالتالي فإن الحاجة الاقتصادية بالتوازي مع الصراع كانا مكوناً مركزياً للظـــاهرة[494]. أو ســـحب النقاش في إطار الصراع الطبقي الداخلي للمجتمع الصهيوني، كما قدم "يوناتان مندل"[495]، حيث أولى اهتمامه

---

[489] انظر في: بني موريس. **طرد الفلسطينيين وولادة مشكلة اللاجئين**، وثيقة اسرائيلية. عمان: دار الجليل،1993.

[490] غرشون شفير. الأرض، العمل والسكان في الاستيطان الصهيوني. (**الكرمل**: مجلد 20، العدد 58، 1999): ص137.

[491] ארגון ההגנה – האתר הרשמי. http://www.irgon-haagana.co.il/show_item.asp?levelId=59798&itemId=47755&itemType=3 (استخدم بتاريخ 12.9.2017).
تنظيم الهاجاناه، الموقع الرسمي.

[492] انظر: غيل إيال. **نزع السحر عن الشرق**، ترجمة حسن خضر، رام الله: مدار،2009.

[493] يدعي إيال بأن المؤسسة الأمنية لعبت دوراً حاسماً في ترسيخ الفصل والحدود بين اليهود والعرب، ويعزز هذا الادعاء بإثارة النقاش حول تجربة الاتصال بين اليهود و العرب مقابل الانفصال، والتي انتجت حالات هجينة مثل المستعربين. سنقدم لاحقاً تفسيراً ضمن النقاش حول فكرة المهجنين.

[494] انظر: مراجعة الأدبيات، خطاب الاكاديميا الاسرائيلية، ص12.

[495] Yonatan Mendel, "*Re-Arabising the De-Arabised: The Mista'aravim Unit of the Palmach*", in A. Bernard, Z. Elmarsafy, and D. Attwell (eds.) Orientalism: Thirty Years Later, Palegrave Macmillan, 2013, pp. 94-116.

لدور الهيمنة الاشكنازية في انتزاع هوية اليهود الشرقيين عبر دمجهم في المشـــروع الصـــهيوني، واســـتخدام الاستعراب كحالة انتفاع وعبور معاً، لتتم عملية "صهينة الشرقيين" كنتيجة.

إن مقابل الرواية التاريخية الصهيونية لظاهرة المستعربين، كان من الضروري تقديم رواية أصلانية تؤرخ الظاهرة ضمن المحددات التي ذكرتها سابقاً، وأبرزها العنف والثنائيات الاستعمارية والموقعية. والتي من خلالها تمكنت في كل فصل من فهم مكانة ودور المستعربين، لذا عالجتُ في الفصل الثاني بدايات الظاهرة، والمقترنة ببـــدايات مسار الاستيطان الصهيوني. فقد كانت رغبة المستعربين الأوائل من الحراس الظهور بمظهر العربي، معتبرين ذلك بمقام تسهيل لمهمة الحراسة، وتمكينهم من كسب الاحترام، حسب الرواية الصهيونية. وكأن الاستعراب دون الظهور البارز في المشهد الاستيطاني، لا يُجدي نفعاً لتحقيق أهداف الحراسة، كترجمة عمليـــة لمعـــنى البقـــاء الاستيطاني. مقابل ذلك كانت قراءتي تبين قلق الهوية، والحاجة إلى التمثيل الأصلاني لجسر هوة العلاقة مـــع الأرض. فكان اقتران الحراسة بالاستعراب محاولة لإبراز فاعلية الحدود الاستعمارية، بشكل غير قطعي ومبطن، بمعنى أن الاستعراب كان بداية تحقيق معنى الحدود وفاعليتها كاختراق هادئ لوعي السكان المحليين، عبر تطبيع وجود المستوطنة وحدودها. لذلك كان المظهر العربي والتمثيل شرطاً لنجاح الحراسة، والحراســـة باعتبارهـــا ممارسة تصنيف للحدود، تحتاج عند غياب القوة المادية ومؤسسة العنف، من أن تتمظهر وفق حاجة الاستيطان القائمة في المرحلة تلك على البقاء.

في المرحلة اللاحقة من بلورة البقاء الاستيطاني، تناولت في الفصل الثالث، تطور مسار البقـــاء الاســـتيطاني، وعلاقته بالهجرات الصهيونية، التي أنتجت ممارسة الإقصاء، باعتبارها جزءا تكوينيا من بنية الاستيطان، الـــتي كانت كامنه وفق مقومات الظروف الاستيطانية في حينه، كما هو حال العنف أيضاً. حيث كان دخول موجة الهجرة الثانية 1903، وزيادة النسبة العديدة للمستوطنين، وتبلور وعي استيطاني قومي بالفكرة الصهيونية، قد أسس لممارسة سياسة احتلال العمل والحراسة. تبع ذلك تبلور التنظيمات شبه العسكرية الأولى للحراسة، والتي استندت إلى الاستعراب الصهيوني، كملاذ تدريجي لتحقيق الإقصاء واحتلال العمل والحراسة. فمـــع ظهـــور تنظيم بارغيورا 1907، وهشومير 1909، على يد مجموعة من مستوطنين الموجة الثانية، الذين نقلوا تجربـــة تنظيم مجموعات الحراسة من شرق أوروبا إلى فلسطين، كان مسار تطور الاستعراب يتوازى في النمو مع مسار تطور الاستيطان. حيث أفرزت تجربة تنظيمات الحراسة، أول إطار استيطاني لاحتكار وتنظيم العنف، والذي من خلاله تبلورت فكرة وجود قوة محاربة، تؤطر العنف في كامل اليشوف. كما أن الاستعراب ومعرفة المحيط العربي واتقان تمثيله كان شرطاً لنجاح هذه التجربة، والذي تحول لاحقاً مع الـــدخول في حقبـــة الانتـــداب البريطاني، إلى وسيلة استعمارية لجمع المعلومات والاستعداد لتنفيذ أكبر عملية إقصـــاء في تـــاريخ الشـــعب

الفلسطيني. أضف إلى ذلك، بأن حقبة الانتداب البريطاني، كحاضنة استعمارية للمشروع الصهيوني، جسدت بداية مسار المأسسة، أي نقل تجربة الاستعراب من حيز حراسة حدود المستوطنة، إلى حيز حماية حدود المشروع، عبر التمثيل والاختراق والعنف. وكان التعاون البريطاني بعد ظهور الهاجاناه، ودمج المستعربين في قواتها، خاصة في العام 1941، قد مهد لتشكل المستعربين ضمن المؤسسة، باعتبارهم وسيلة اختراق ناجحة، تمكن من تحقيق أهداف استعمارية مهمة، والتي تمحورت حول الإعداد لحرب النكبة.

في الفصل الرابع، أقدم قراءتي لتاريخ المستعربين منذ حرب النكبة من العام 1947-1948، وإقامة الدولة وحتى العام 2018. ومن خلال مفهوم النكبة المستمرة، والتي جسدت مسار الهدم والبناء المستمر، كان نشاط ودور المستعربين جزءا من هذه السيرورة. حيث دحضت ادعاء انقطاع عمل المستعربين في العقود الأربعة الأولى، وبرهنت على استمرار نشاطهم ضمن حالات كمون مقابل كثافة استخدامهم بعد بداية الانتفاضة الأولى، كجزء من رد الفعل الصهيوني على مقاومة السكان الفلسطينيين. لقد كان أبرز محددات نشاط المستعربين في هذه الحقبة هو اعتراف المؤسسة الأمنية بدورهم، وإنتاج هذا الدور في الفضاء الإعلامي، كجزء من خطاب السيطرة الصهيوني على الفلسطينيين. كما كان استخدامهم –جغرافياً– مرتبط بحيز السيادة الاستيطانية، عبر استخدام أعلى درجات العنف والسيطرة.

كما توقفت في هذا الفصل، عند تقنيات الاستعراب الأربعة، (تنكر، اختراق، عنف وفوضى)، وعززت ذلك بعرض 3 نماذج من عمليات المستعربين، التي تناولتها وسائل الإعلام الصهيونية (المكتوبة، والمسموعة، والمرئية). ودور الخطاب الصهيوني في تعزيز فضاء السيطرة، عبر المستعرب كنموذج اقصائي فاعل. وفسرت ذلك بوجود رغبة في إظهار المستعربين، وتوثيق عملياتهم، بكثافة، كجزء من مسار السيطرة. ويبدو أن رغبة المؤسسة الصهيونية والمستعربين في الظهور، تتحقق عبر كثافة تداول صورهم وعملياتهم المسجلة، أي التواجد في أوسع حيز من الفضاء الاستعماري، باعتبارهم أبرز أدوات الاستعمار الاستيطاني في السيطرة/الإقصاء. كما أن نقاش ظاهرة المستعربين اليوم في حالة من التسارع والتعاظم، خاصة داخل خطاب الإعلام الصهيوني، وهو كما استنتجت من قراءتي، نقاش بين المستعمِر والمستعمِر، لكنه يستهدف إسماع المستعمَر، بغرض إعادة إنتاج وممارسة السيطرة.

- **في الفوضى والعنف: 3 مشاهد**

المشهد الأول: تنكر، اختراق واختطاف

في 7 آذار 2018، كنت قد لبيت دعوة مشرفتي في الرسالة، د. رنا بركات، لحضور سلسلة لقاءات غير "رسمية"، حول الدراسات الأصلانية، والتي ثابرت هي على إنشائها كتجربة خارج الفضاء التقليدي الأكاديمي. فتمكنت "هي" من تنظيم مجموعة من الطلاب، من خلفيات أكاديمية مختلفة، وبرغبة ذاتية –تطوعية، وخارج سياق التقييم الأكاديمي واحتساب الساعات وفق أنظمة الجامعة، بحيث يستمعون لسلسة محاضرات مع بروفسور متخصصة في الدراسات الأصلانية من "هاواي"، د.كاهولاني، ويناقشون موضوعاً واحداً من وجهات مختلفة: كيف نكتب روايتنا – كرواية أصلانية– خارج أدوات سلطة الخطاب المعرفي المهيمن؟ وكيف يمكن أن ننتج معرفة تحررية؟. في ذلك اليوم، قدمت د.رنا إطاراً معرفياً لمعنى الدراسات الأصلانية، وكنت قد التقطت منه بضع مؤشرات حول معنى الكتابة كنوع من المقاومة. قبل ذلك بدأت د. رنا في تقديم أفراد المجموعة إلى كاهولاني، عبر "السكايب"، وطلبت مني تقديم نفسي من خلال مشروعي البحثي حول "المستعربين"، لملمت لغتي الإنجليزية وتحدثت بحماسة وتحفظ معاً. بعد بضع دقائق التفتت إلي زميلة ذات خلفية صحافية في المجموعة، وهمست لي، وسط حديث كاهولاني: "الجيش اقتحموا الجامعة، وفي إطلاق نار". مباشرة شاركت رنا بالمعلومة، عبر قصاصة ورق، لتخرج من القاعة بسرعة وتتفحص، ثم تعود بصمت، وتقول لي: "المستعربين في الجامعة".

قد يبدو التقديم السابق، مناسب تماماً للإجابة على سؤال أهمية الدراسة، والتي تتجاوز بذلك المعنى التقليدي في كتابة مبررات الدراسة، خاصة تحت واقع الوجود المادي والملموس لمعاني السيطرة الاستعمارية المباشرة والمستمرة، حتى داخل الكتابة أحياناً. وبالعودة إلى حادثة دخول المستعربين إلى جامعة بيرزيت، والتي سأتناولها كمحور مركزي في كتابة خلاصة دراستي. سأقدم قراءتين "يبدو" أنهم متضادتين في تناول الحدث والرد عليه: البيان الرسمي الذي أطلقته الجامعة إثر الحادث، وتعليق الخطاب الإعلامي الصهيوني –كجزء من خطاب المؤسسة الرسمي– على الحادث. في المقابل سأقدم مقاربتي ومقولتي الاستنتاجية من خلال قراءة المشهد من زاوية دراستي في الصفحات السابقة.

بيان الجامعة الصادر تعقيباً على حادثة اعتقال المستعربين لأحد الطلاب داخل الجامعة:

> **تستنكر جامعة بيرزيت اقتحام المستعربين المدعومين بقوات الاحتلال حرمها الجامعي واعتقال رئيس مجلس الطلبة الطالب عمر الكسواني، اليوم 7 آذار 2018 في تمام الساعة الرابعة عصرا، في انتهاك صارخ لكل الأعراف والمواثيق الدولية التي تُدين الاعتداء على المرافق الأكاديمية. وكانت قوة من المستعربين قد تخفت كطلبة من الجامعة، وقامت باعتقال الطالب الكسواني في مركز الحرم الجامعي، وتصدى لها مجموعة من الطلبة**

وحرس الجامعة، وأطلق المستعربون الرصاص، ومن ثم قامت قوة عسكرية من قوات الاحتلال بإسناد المستعربين، واحتجزت الحرس الجامعي في غرفة الحرس، واختطفت الطالب وأصابت ثلاثة آخرين. تنظر الجامعة بخطورة بالغة إلى هذا الاقتحام الهمجي، واستمرار سياسة الاحتلال الممنهجة لتدمير الحياة التعليمية في فلسطين عبر استهداف المؤسسات الأكاديمية، لا سيما مؤسسات التعليم العالي. وتستنكر جامعة بيرزيت بشدة هذه الانتهاكات من قبل الاحتلال الإسرائيلي والذي يستخدم المستعربين في انتهاك حرمة مؤسسات التعليم العالي وتناشد المؤسسات الدولية الحقوقية والأكاديمية لمناصرة جامعة بيرزيت ومؤسسات التعليم العالي، لأن هذه الانتهاكات تعيق مسيرة المؤسسات التعليمية وأداء دورها الأكاديمي والإنساني. وتؤكد جامعة بيرزيت أن هذه الاعتداءات ما هي إلا استمرار لسياسة الاحتلال التي تستهدف كافة فئات الشعب الفلسطيني[496].

يركز بيان الجامعة على ثلاث محاور رئيسية: موقف الجامعة عبر "الاستنكار" كرد فعل على عملية الاعتقال؛ واعتبار المستعربين أداة انتهاك بيد الاحتلال "لحرمة" العملية والمكان التعليمي؛ والاستناد إلى المواثيق والأعراف الدولية كإطار يصنف ويواجه مثل هذا الاعتداء. أما الرواية الصهيونية، والتي كانت أوضح من حيث تسليط الضوء على سياق ومعنى عملية الاعتقال، ووجدتُ من خلالها مختلف تجليات مقولة دراستي، حيث سأعرضها ضمن تغطيتين كما ورد في الإعلام العبري: الأول نقلاً عن الموقع الإلكتروني لـــ "يديعوت أحرنوت". والآخر من الموقع الاخباري العبري "إسرائيل اليوم".

الخبر الأول: "فوضى في بيرزيت: مستعربين داهموا الجامعة"[497]:

عملية الاعتقال كانت "غير عادية" فقد تمت داخل الجامعة وخلال يوم دراسي، حيث قام مستعربون متخفون ومتنكرون في هيئة صحفيين فلسطينيين باعتقال رئيس اتحاد الطلاب. تظاهروا بأنهم صحفيون فلسطينيون– اعتقلوا رئيس مجلس الطلاب، فقد ألقت وحدة من المستعربين التابعة لحرس الحدود القبض على طالب في جامعة بيرزيت للاشتباه في تورطه في نشاط إرهابي. الاعتقال غير العادي، الذي يبدو أنه مأخوذ من مسلسل "فوضى"، يحدث في منطقة الجامعة وخلال اليوم الأكاديمي[498].

يحتمل العنوان سياقين، الأول: حدوث حالة من الفوضى، بمعنى الإرباك، والتخبط، إثر اقتحام المستعربين للجامعة وتنفيذ عملية الاعتقال. والآخر: استعارة تجربة مسلسل "فوضى" كتوصيف لعملية الاقتحام. ومن خلال السياقين يتبين معنى الاستعراب الصهيوني كما تناولته في الفصل الرابع، من حيث مكانته في المشهد الاستعماري، كأداة سيطرة وإقصاء، عبر (التنكر، الاختراق، العنف والفوضى). وكأحد أدوات الخطاب

---

[496] بيان استنكار من جامعة بيرزيت لاقتحام قوات الاحتلال والمستعربين الحرم الجامعي. جامعة بيرزيت: 7آذار 2018.
https://www.birzeit.edu/ar/news/byn-stnkr-mn-jm-byrzyt-lqthm-qwt-lhtll-wlmstrbyn-lhrm-ljmy
(استخدم بتاريخ، 20.4.2018).

[497] אליאור לוי ויואב זיתון. "פאודה" בבירזית: מסתערבים פשטו על האוניברסיטה. Ynet: 07.03.18،
https://www.ynet.co.il/articles/0,7340,L-5149366,00.html(استخدم بتاريخ، 20.4.2018). إليؤر ليفي ويوئاف زيتون.
فوضى في بيرزيت: مستعربين داهموا الجامعة.

[498] المصدر السابق.

الاعلامي الصهيوني في فرض المزيد من السيطرة الاستعمارية عبر الفضاء الاعلامي، ومن خلال علاقة متبادلة، ضمن دائرة الإنتاج وإعادة الإنتاج.

الخبر الثاني: " مسجل: مستعربون متخفون يعتقلون مشتبه"[499]:

تماماً في الأيام التي يصل فيها مسلسل "فوضى" لذروته، اليوم الأربعاء نحن نتلقى نموذج إضافي فيه النتائج لا تقل إثارة. وحدة مستعربين حرس الحدود اعتقلت اليوم مطلوب في جامعة بيرزيت، عندما تنكر مقاتليها كطلاب ومحاضرين. المطلوب أُعتقل بسبب الضلوع في التحريض على هجمات ارهابية، والتي نفذها من منطقة الجامعة الواقعة في قرية قرب رام الله. المقاتلين أخذوا بالحسبان امكانية أن يتم تصويرهم أثناء العملية[500].

تتناول الرواية الصهيونية جانبا حادا في "الإعجاب" بما استطاع أن يقوم به المستعربين. فكانت فكرة التنكر "الاحترافي"، واختراق حيز الجامعة، واعتقال فلسطيني، والظهور في تسجيل مصور، تتوازى مع ربط الحدث بمسلسل "فوضى". لقد شكل مسلسل "فوضى" منعطفاً جديداً في إنتاج ممارسة وخطاب المستعربين، ليس فقط عبر "جاذبية" الاسم التي باتت تتردد في وصف عمليات المستعربين، بل في حجم وكثافة العنف، وقدرة الاختراق، والتنكر، التي تنتج الفوضى في الحيز المستَعمَر. من جهة أخرى ركزت الرواية الصهيونية في موضعة الفلسطيني في إطار "الإرهابي، المخرب، والمطلوب"، وتعمدت عبر ذلك تطبيع دور ومهمة المستعرب، كجزء من نشاط الدولة في "مكافحة الإرهاب"، وهو جزء من الخطاب العالمي "الغربي" المهيمن. في المقابل قدمت الجامعة خطابا استنكاريا يعود إلى ذات المرجعية التي أنتجت خطاب "الإرهاب"- باعتباره أداة سيطرة وتصنيف وفق قراءتي- وهي مرجعية "الأعراف والمواثيق الدولية". فإذا كان الخطاب الصهيوني يكشف ويُمعن في استخدام الموقعية: مستعرب/مطلوب، وقع بيان الجامعة ضحية الخطاب المعرفي المهيمن، وفصل بين المشهد الاستعماري القائم على الثنائية الاستعمارية، وحرم الجامعة باعتباره حيز خاص له مكانته الاعتبارية، التي تمنع وقوع مثل هذا الحدث فيه.

بين هاتين القراءتين، أُعيد تقديم مقولتي الأساسية: من أجل فهم دور وعمل ومكانة المستعربين اليوم، يجب فهم تاريخ الاستعراب الصهيوني. وتاريخ الاستعراب الصهيوني، هو تاريخ الاستيطاني الصهيوني في فلسطين. إن مكونات الاستعراب من عنف ونزعة استشراقية إقصائية عنيفة، وارتباطه ببنية الاستعمار الاستيطاني المستمر، تجعلني أُدرك مشهد اقتحام الجامعة واعتقال طالب، من خلال ما تناولته سابقاً في تعريف موقع الدوفدفان – وحدة المستعربين، والذي ورد فيها بأن الاستعراب هو الظهور في كل مكان وشكل ووقت، وبجاهزية عالية،

---

[499] תיעוד: מסתערבים מחופשים עוצרים חשוד. ישראלהיום: 07.03.18، http://www.israelhayom.co.il/article/540679(استخدم بتاريخ، 20.4.2018). مسجل: مستعربون متخفون يعتقلون مشتبه. اسرائيل اليوم.

[500] المصدر السابق.

لتنفيذ عمليات خاصة، بأدق النتائج[501]. لذا كانت عملية اقتحام الجامعة جزءا من هذا الوعي الاستيطاني، بحاجة التواجد والسيطرة على الفلسطينيين في أي وقت وأي مكان، بمعنى تضييق فضاء المقاومة، ومحاولة فرض حصار للوعي الفلسطيني من أجل إنهاكه.

إذاً، يجب أن ندرك مشهد اقتحام المستعربين للجامعة، في إطار موقعيتهم كمستعمرين، مستوطنين، يمثلون الفلسطيني، من أجل نفيه والسيطرة عليه. ثم قراءة عنف المستعربين كجزء بنيوي من عنف الاستعمار الصهيوني المستمر، الذي لا ينفصل فيه مكان ممارسة العنف، عن سياق العنف المستمر، والمتمثل بالسيطرة المستمرة ومسار ماكنة الاستعمار الاستيطاني. ويتضح من ذلك بأن هدف الاستعراب، هو هدف الاستيطان الصهيوني، إقصاء الفلسطينيين، ونفيهم المستمر، وممارسة سيادة استيطانية على الأرض. ويكون ذلك عبر محاصرة وعي الفلسطيني، وإشعاره بأن عنف الاستعمار متواجد، في كل فضاء وحيز. ومن خلال هذه الحادثة يمكن استخلاص مقولة أساسية حول معنى عنف الاستعراب المستمر، والتي تُفسر عبر رغبة "الإنهاك والإنهاء" المستمرة.

المشهد الثاني: تنكر، اختراق، فض مظاهرة واطلاق نار

إثر عملية اقتحام الجامعة، قررت الكتل الطلابية، ونقابة العاملين، عمل وقفة احتجاجية في اليوم التالي. ودعت الكتل الطلابية خلال الوقفة، تصعيد المواجهة والتظاهر عند نقاط التماس، كرد على دخول المستعربين الجامعة وتنفيذ عملية الاختطاف. وورد على لسان والدة الطالب المعتقل، عمر الكسواني، التي حضرت الوقفة، قائلة: "أنا فعلاً خايفة على ابني، وخايفة على المستوى اللي وصلنا له، إنو لا في أمن ولا أمان، ولا في خلفية أمنية للطالب تحميه"[502]. تُحيلنا هذه الكلمات إلى النقاش السابق، حول معنى استخدام المستعربين لتضييق فضاء مقاومة الفلسطينيين، والإمعان في إنهاكه وإنهاءه. كما تفتح أمامنا سؤال عنف التمثيل والاختراق، كممارسة تسعى لكسر ثقة الفلسطيني بمحيطه، وارباكه، وادخاله في صدمات متتالية من عدم اليقين، وإثارة الشك المستمر بجدوى التماسك والثبات في فضاء المقاومة. ولتفسير ذلك أعود لمشهد التظاهر السائد، كفعل احتجاجي مقاوم، يسعى المستعربون إلى اختراقه بالعنف والفوضى.

قبل ثلاث سنوات، من حادثة اقتحام المستعربين للجامعة، وفي تاريخ 7.10.2015، خرج طلاب من جامعة بيرزيت في مظاهرة احتجاجية، برفقة متظاهرين آخرين، باتجاه مدخل مدينة البيرة الشمالي، الذي شهد وقوع

---

[501] حديث قائد وحدة دوفدفان، مصدر سبق ذكره.

[502] وقفة داخل جامعة بيرزيت استنكارا لاقتحام الجامعة من قبل المستعربين واعتقال الطالب عمر الكسواني. شبكة قدس الاخبارية: 10.3.2018، https://www.youtube.com/watch?v=itK2SesyCZs (استخدم بتاريخ، 20.4.2018).

مواجهات مستمرة في السنوات الأخيرة. وفي ذروة مقاومة المتظاهرين، قام مجموعة من المستعربين بـــاختراق المسيرة واعتقال ثلاثة شبان، وإصابة اثنين منهم إثر اطلاق النار، وكما نقلت جريدة الأيام الحدث، في اليـــوم التالي، تحت عنوان "مستعربون ينفذون عملية اختطاف متظاهرين بمساندة ومراقبة قناصة الاحتلال"[503]، جاء فيه:

> **تقدم المتظاهرون سبعة من الملثمين في المدخل الشمالي للبيرة. وهم يرتدون زياً عادياً، مثلهم مثل باقي الشباب الاخرين، حتى أنهم حملوا على ظهورهم حقائب بدت كأنها حقائب طلبة، وكان الملثمون منهمكين بالفعل بإلقاء الحجارة باتجاه قوات الاحتلال التي كانت تبتعد حوالي 200 م عن الموقع. ارتفعت وتيرة إلقاء الحجارة بعدما انضم عدد آخر من الشبان، وما هي إلا لحظات حتى أمسك ثلاثة من الملثمين بأحد الشبان، في حين أمســـك اثنان آخران شاب ثان، وأطلق ملثم من مسدسه الصغير الذي أخرجه من جيبه، النار باتجاه شاب ثالث فأصابه في الجهة اليسرى من رأسه. أعطيت الإشارة إلى جنود الاحتلال الذين تدفقوا إلى الموقع المحدد لحماية الملـــثمين (المستعربين السبعة) وانهال الجنود والمستعربون بالضرب المبرح على أحد الشبان الذي القي القـــبض عليـــه، وأطلقت رصاصة على فخذه الأيسر من مسافة قريبة جداً لم يقو بعدها على الوقوف. تراجع الملثمون الســـبعة باتجاه دوريات قوات الاحتلال وهم يشهرون مسدساتهم، ومن ثم اختفوا في مركبة عسكرية، على مـــا يبـــدو كانت مخصصة لهم**[504].

لقد تمكن المستعربون من الدخول وسط التظاهرة، وعبر تمثيل الفلسطيني، وتقنيات التنكر، استطاع المستعربون السبعة، أن يتقدموا الصفوف دون إثارة أي شبهة حولهم. المشهد يبدو كما ورد في خـــبر جريـــدة الأيـــام "مربكاً"، ومشاهدة لقطات التسجيل من عدسات الصحفيين[505] تثير "الصدمة". وأعود في قراءة هذا المشهد إلى المقابلة الإذاعية التي تناولتها في الفصل الرابع[506]، والتي وصف فيها المستعرب اختراق وتفريق المظاهرة تحت بند "كسر التوازن". وما حدث بالفعل، أن ترجمة مفهوم كسر التوازن، تعني إحداث أكبر قدر من العنـــف والفوضى، خلال اختراق التظاهرة، من أجل إنهاءها. ويفسر ذلك حجم العنف الذي مارسه المستعربون خلال وبعد اعتقال الشبان الثلاثة، من ضرب واطلاق نار من مسافة "صفر" على من وقعوا في أيديهم. من خـــلال هذا المشهد يسعى المستعربون، ومن خلفهم ماكنة الاستعمار الصهيونية، إلى خلق حالة شك وعدم ثقة بـــين صفوف الفلسطينيين المنخرطين في فضاء المقاومة. وعبر ممارسة مفهوم "كسر التوازن"، نفهم بأن حالة التظاهر، المقاومة، الاحتجاج، كلها تجليات لتماسك وتوازن الفلسطينيين في فضاء مناهض للفضاء الاستعماري، بالتالي

---

[503] حسام عز الدين. مستعربون ينفذون عملية اختطاف متظاهرين بمساندة ومراقبة قناصة الاحتلال شمال البيرة، جريدة الأيام: الخميس، 8.10.2015. http://www.al-ayyam.ps/pdfs/2015/10/08/p01.pdf (استخدم بتاريخ، 20.4.2018).

[504] المصدر السابق.

[505] انظر: تقرير مراسل تلفزيون فلسطين، علي دار علي: وحدة مستعربين تهاجم طلبة جامعة بيرزيت، نشر بتاريخ 7.10.2015، https://www.youtube.com/watch?v=HVM7gL-DigE (استخدم بتاريخ، 20.4.2018).

[506] انظر: الفصل الرابع، فضاء جديد ، المستعرب في دور مزدوج 2000-2018، ص139.

تكون الفوضى هي بهدف تفكيك هذا الاتزان، وتحويله إلى إطار خطر ومحفوف بالعواقب المرتبطة بأعلى درجات العنف.

بعد هذه الحادثة بيومين، وتحديداً يوم السبت، توجهت إلى الجامعة لاستكمال عملي في الدراسة، وكنت محاطاً بفيض من الأسئلة حول علمية المستعربين يوم الخميس، و لم أُدرك أثر ذلك-أي تمثيل واختراق الفلسطيني من أجل إرباكه- إلا بعدما مررت بمجلس الطلبة، الذي كان يرعى تجمهراً طلابياً، داعياً إلى الخروج نحو نفس الموقع شمال البيرة، والبدء في التظاهر هناك. والأهم هو بدء مجموعة من الطلاب الناشطين بالحديث على مكبرات الصوت، والتحذير من المستعربين، والطلب من المشاركين في المظاهرة بإبراز وسط البنطلون، وعدم وضع الملابس العلوية بشكل يُخفي الوسط، بحكم اعتقادهم بأن ما يميز المستعربين في المواجهة الأخيرة، هو إخفائهم لأسلحتهم تحت ملابسهم العلوية في منطقة الوسط. عبر ذلك بدأت أُدرك معاني الاستعراب الصهيوني، في هذا النموذج، في محاولته المستمرة إثارة مخاوف الفلسطينيين، ومحاصرة وعيهم، وانهاكهم المستمر، وإرباك فضاء مقاومتهم من خلال تمثيل الفلسطيني، واختراقه بالعنف والفوضى. وهذا ما يجسد مقولتي بأن هدف الاستعراب هو السيطرة المستمرة، والإقصاء المستمر.

المشهد الثالث: تنكر، اختراق، قتل وفوضى

استطيع القول، عبر إضافة هذا المشهد، بأن عنف الاستعراب الصهيوني، هو أعلى درجات عنف الاستعمار الاستيطاني الصهيوني. ولتوضيح ذلك سأقدم مشهد اقتحام مدينة رام الله لتخليص وحدة من المستعربين كانت قد انكشفت وسط عملية كانت تسعى لتنفيذها. فكما ورد في تقرير "بتسيلم" حول الحادث:

> **في ساعات ما بعد الظهيرة من يوم الجمعة، الموافق 4.1.2007، دخلت قوة خاصة من الجيش الإسرائيلي بملابس مدنية (مستعربين) إلى وسط مدينة رام الله في إطار حملة لاعتقال مطلوبين فلسطينيين. في حوالي الساعة 15:00، أحاطت القوة ببناية اختبأ فيها المطلوبون. وعندما لاحظت القوة أن أحد المطلوبين، ربيع حامد، يفر من المكان، بدأ المستعربون بإطلاق النار. وقد أصيب ربيع حامد جراء إطلاق النار، غير أنه نجح بالفرار وهو مصاب بإصابات بالغة.انكشف المستعربون نتيجة إطلاق النار، ولهذا فقد تم استدعاء قوة شملت عدداً من جيبات حرس الحدود، الجرافات العسكرية ومروحيتين حربيتين إلى المدينة من أجل تخليص المستعربين**[507]

وفي تغطية أعمق للخبر، نقلته جريدة الأيام على صفحاتها الأولى تحت عنوان "العدوان خلف أربعة شهداء وعشرين مصاباً وأضرار مادية كبيرة- الاحتلال ينشر الموت والدمار وسط رام الله والبيرة"[508]:

---

[507] (25.1.2007): تطالب منظمة بتسليم النائب العسكر ي العام بفتح تحقيق من قبل الشرطة العسكرية حول قتل المدنيين في رام الله وتطالب الجيش بعدم استخدام المستعربين في العمليات القتالية. بتسليم: 4.1.2007، https://www.btselem.org/arabic/firearms/20070104_ramallah_incursion(استخدم بتاريخ، 20.4.2018).

[508] حسام عز الدين. "العدوان خلف أربعة شهداء وعشرين مصاباً وأضرار مادية كبيرة- الاحتلال ينشر الموت والدمار وسط رام الله والبيرة"، جريدة الأيام: الجمعة 5.1.2007، http://www.al-ayyam.ps/pdfs/2007/01/05/p01.pdf(استخدم بتاريخ، 20.4.2018).

حسب رواية من أحد المصادر الأمنية، فإن أحد أفراد القوات الخاصة الاسرائيلية، وبزي مدني، دخل أحد المحال التجارية، وسط المدينة، مقابل حسبة البيرة، حيث كان يتواجد أحد المطلوبين. وسأل جندي الاحتلال المتنكر صاحب المحل عن دورة المياه بادعاء قضاء الحاجة، ثم تبعه جندي متنكر آخر، وأشار الأول للثاني بأن المطلوب موجود في المحل، عندها قفز المطلوب إلى الخارج ولحقه فردان من القوات الخاصة الإسرائيلية، وأطلقا باتجاهه النار، ثم وقع تبادل للنار بينه وبين أفراد القوات الخاصة، حيث يُعتقد أن أحدهما قد أُصيب. وإثر وقوع تبادل إطلاق النار، اقتحمت قوات الاحتلال المعززة وسط المدينة، في محاولة لحماية أفراد القوات الخاصة وإخراجهم سالمين. واستخدمت قوات الاحتلال جرافة عملاقة لفتح الطريق أمام جيبات الاحتلال، حيث عمدت الجرافة إلى تدمير وتخريب كل ما كان أمامها[509].

جسّد حادث اقتحام وسط المدينة، ومحاولة المستعربين تنفيذ عملية تصفية، من ثم كثافة إطلاق النار، وحجم الاصابات، وتدخل الجرافات، والمروحيات، فاعلية العنف والفوضى في انكشاف المستعربين، والذي يعني المزيد من العنف والفوضى، كمحاولة لفرض الخضوع، والاستسلام، على الفلسطيني في مجابهة المستعربين. وكأن رسالة انكشاف المستعربين كانت تفيد بأن ثمن الانكشاف، هو المزيد من القتلى والجرحى، والتخريب والدمار المفتوح، والموصوف بحالة الفوضى في إطلاق النار، وممارسة أكبر أدوات العنف، من جيبات، وقوات اسناد، وجرافات، وطائرات مروحية. لذا يكون مغزى هذه الرسالة، أن الخيار الوحيد المتاح أمام الفلسطيني عند مواجهة المستعرب، هو الاستسلام والخضوع، وهي غاية الثنائية الاستعمارية في كسر مقاومة الفلسطيني. وعند مقاومة الفلسطيني لتمثيل المستعرب، واختراقه، تكون العواقب مفتوحة، بحكم احتلال معادلة السيطرة الاستعمارية، والتي تعني زعزعة معاني السيادة الاستيطانية. وكما ذكرت سابقاً، بأن أعلى لحظة لعنف المستعرب، هي أقرب لحظة موقعية بين المستَعمِر– المستعرب والفلسطيني. ومن خلال هذه اللحظة يتوقع دائماً المستعرب أن يقع الفلسطيني ضحية الصدمة، والإرباك. أما عكس ذلك فهو ترجمة لرد فعل السيطرة الاستعمارية التي تجسدت وقت انكشاف المستعربين، بأعلى درجات العنف. ليكون عنف المستعربين، المستمر، هو أعلى درجات وأشكال عنف الاستعمار الاستيطاني الصهيوني في فلسطين.

- **تعقيب: الموقعية، الاستشراق، العنف، الثنائيات الاستعمارية**

كانت النماذج الثلاث السابقة، محاولة لمطابقة مقولتي في الدراسة على الواقع. وعبر افتراضي بأن قراءة الاستعراب الصهيوني لا تنضج بمعزل عن فهم بنية الاستعمار الاستيطاني، ومكوناته القائمة على التقسيم والعنف، أعود لمداخلة سعيد التي يتناول فيها الموقعية في كتابه الاستشراق، ليوضح دورها في مركزية إنتاج المعرفة حول "الشرق" واستخدام هذه المعرفة لأغراض سياسية، حيث لا يوجد إنتاج معرفي في العلوم الإنسانية، كما يؤكد سعيد، يمكن أن يتبرأ من انشباك مؤلفه كفاعل إنساني في ظروف حياته[510]. وهذا يعني

---

[509] المصدر السابق.

[510] ادوارد سعيد، الاستشراق: المعرفة. السلطة. الانشاء، 1995. ص 42- 43.

بالنسبة لي أن أقدم مداخلتي وفق موقعي كفلسطيني، وتقديم رواية أصلانية تأخذ بالاعتبار قراءة ونقد الرواية الصهيونية، بحكم ارتباطها البنيوي بمصالح تشربتها من المجتمع الاستيطاني.

تنعكس الموقعية في إبراز الثنائيات الاستعمارية، والعنف. ولتوضيح ذلك أعود لقراءة فانون حول الاستعمار، باعتباره فضاء من رغبة الاستغلال والعنف معاً، وهو عالم قائم على التقسيم الثنائي. يقول فانون: "إن العالم الاستعماري عالم ثنائي"[511] ، وهذه الثنائية تنبع من التقسيم الحاد والواضح على أساس القومية والعرق، إذ يتميز الوضع الاستعماري "بأنه يفرض على العالم انقساماً ثنائياً. والتحرر من الاستعمار يوحّد هذا العالم، إذ يخلصه من فقدان التجانس بقرار جذري، يوحّد على أساس الأمة، وعلى أساس العرق أحياناً"[512]. لهذا نرى أن حدة التقسيم سمة راسخة في بنية الاستعمار الاستيطاني الصهيوني، لكن بحكم عدم اكتمال المشروع الصهيوني، وتحقيق السيادة الاستيطانية المطلقة، تبقى الحدود في حالة تشكل دائم، خاصةً أمام مواجهة مقاومة الفلسطينيين المستمرة.

يقدم مفهوم العنف محوراً مركزياً لفهم بنية الاستعمار الاستيطاني، فكما استخدم فانون مفهوم العنف لوصف الاستعمار الفرنسي، كان نظام التمييز العنصري والتقسيم الطبقي هما مولدات الممارسات الاستعمارية العنيفة. وفي سياق الاستعمار الاستيطاني الصهيوني أيضاً، أرى أن العنف شرط ملازم لبنية الاستعمار الاستيطاني، فمع بناء المجتمع الاستيطاني الأول في فلسطين، كان الفصل على أساس ملكية الأرض سمة ثابتة في الاستيطان، ولازم تطور نمو الهجرة الاستيطانية تشكل المستعربين وتنظيمات الحراسة ومؤسسات الاستعراب لاحقاً. ولم تكن حرب النكبة هي الحدث الأول للممارسة العنف بالشكل المادي والمباشر، بل كان العنف ملازما لمسار الاستيطان الصهيوني، وضمن استمرار منهجية النفي والسيطرة، والهدم والبناء، حتى يومنا هذا نفهم معنى أن النكبة مستمرة، والاستعراب الصهيوني مستمر. وضمن النماذج الثلاث السابقة، يمكن بوضوح إدراك المشهد المستمر لإنتاج النكبة ضمن سلسلة عمليات السيطرة والنفي، التي لا تنقطع في عزل وإقصاء الفلسطيني.

---

[511] فرانز فانون، معذبو الأرض. ترجمة: سامي الدروبي وجمال الاتاسي، بيروت: دار القلم ، ص 38.

[512] المصدر السابق، ص 42.

– استنتاج

إن جذور ظاهرة المستعربين بدأت مع بداية ظهور المجتمع الاستيطاني الصهيوني في فلسطين حسب قـــراءتي، حيث أن الوقوف عند البدايات التاريخية لتشكل المستعربين فترة "البيشوف"، أي مرحلـــة تأســـيس المجتمـــع الاستيطاني السابق للدولة، تقتضي الإشارة إلى ارتباطها التاريخي والوجودي ببنية الاســـتعمار الاســـتيطاني في فلسطين. تتميز ظاهرة المستعربين كونها ذات سمة ديناميكية بحكم اقترانها بعملية الإنشـــاء المســـتمر للحـــدود واختراقها معاً، وهذه السمة مرتبطة شرطاً بمنطق المحو/الإنشاء وتعبر عن بنية مكونة لهـــا، خاصـــة في إقامـــة الثنائيات والحدود بشكل صارم ومرن معاً. إذ تشكل الحدود والثنائيات وحالة التنكر والاختراق والســـيطرة والاستحواذ والعنف جزء من ذات الظاهرة. إن تجربة المستعربين تعبر عن تجسيد لضرورة وجـــود الحـــدود وحاجة اختراقها، إذ يصبح التنكر والعبور سمة مكونة لا صفة تابعة. بهذا المعنى لا يكون هناك مستعرب بدون وجود للحد الفاصل والقابل للاختراق، أو بدون فكرة إنشاء صورة الأصلاني والحدود من حوله، ولا يكون الاستعراب بمعزل عن عنف الإنشاء/المحو والسيطرة/الإقصاء، بالتالي يمكن أن أقول بأن الاستعراب الصهيوني هو مكون وأداة ونتيجة معاً للاستعمار الصهيوني في فلسطين. كما يهدف الاستعراب الصهيوني، إلى إنهاك وإنهاء مقاومة الفلسطينيين، ومن خلال كثافة استخدامهم، كرد فعل على مقاومة الفلسطينيين، يتضح بأن مســـار السيطرة والإقصاء لا يزال مستمر، ومرتهن بمقاومة الفلسطينيين. من زاوية أخرى جسد الاســـتعراب وفـــق استنتاجي أعلى درجات عنف الاستعمار الصهيوني، بحكم تقمص المستعرب لصورة الفلسطيني، ونزع محتواها لصالح مضمنون استيطاني، يحاول تمثيل الفلسطيني من أجل تعميق نفيه المستمر.

قائمة المصادر والمراجع العربية

الكتب

أبو عمشة، عادل. **الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في الضفة الغربية وقطاع غزة قبل وأثناء الانتفاضة.** نابلس: جامعة النجاح الوطنية، 1989.

أرنسون، جيفري. **سياسة الأمر الواقع في الضفة الغربية.** بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1990.

أفيف، أفيفا. **المجتمع الاسرائيلي**، ترجمة محمد صالح. القاهرة : مركز الدراسات الشرقية، جامعة القاهرة، 1998.

اندرسون، بندكت وآخرون. **القومية مرض العصر أم خلاصة.** اعداد فالح عبد الجبار. بيروت: دار الساقي، 1995.

أندرسون، بندكت. **الجماعات المتخيلة: تأملات في أصل القومية وانتشارها**، ترجمة ثائر ديب. الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2014.

إيال، غيل. **نزع السحر عن الشرق.** ترجمة: حسن خضر، مدار: رام الله، 2009.

البديري، هند. **أراضي فلسطين بين مزاعن الصهيونية وحقائق التاريخ.** القاهرة: جامعة الدول العربية: الأمانة العامة، 1998.

تلمي ،افرايم ومناحم. **معجم المصطلحات الصهيونية.** ترجمة أحمد العجرمي، عمان: دار الجليل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينية، 1988.

جريس، صبري. **تاريخ الصهيونية 1862–1948: الجزء الأول–التسلل الصهيوني إلى فلسطين(1862–1917).** رام الله: مركز الأبحاث منظمة التحرير الفلسطينية، 2015.

دوعر، غسان. **المستعربون فرق الموت الاسرائيلية**، رام الله: دار الشروق، 2004.

زريق، إيليا وآخرون. **تصويب بهدف القتل.** القدس: مركز المعلومات الفلسطيني لحقوق الانسان،1992.

زريق، رائف. **إسرائيل خلفية أيديولوجية وتاريخية**، دليل اسرائيل العام2011. رام الله: مؤسسة الدراسات الفلسطينية،2011.

ساند، شلومو. **اختراع الشعب اليهودي.** ترجمة سعيد عياش، رام الله: مدار– المركز الفلسطيني للدراسات الاسرائيلية، 2013.

سترنهيل، زئيف. **الأساطير المؤسسة لإسرائيل**، ترجمة عزت الغزاوي. رام الله: مدار– المركز الفلسطيني للدراسات الاسرائيلية، 2001.

السرخي، عناد. **الكيبوتس منذ النشأة –استمرارية أم تغيير 1881_2007.** رام الله: مدار– المركز الفلسطيني للدراسات الاسرائيلية، 2008.

سعيد، ادوارد. **الاستشراق: المعرفة. السلطة. الإنشاء**، ترجمة: كمال أبو ديب، بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، 1995.

سعيد، ادوارد. **تغطية الاسلام: كيف تتحكم أجهزة افعلام ويتحكم الخبراء في رؤيتنا لسائر بلدان العالم**. ترجمة محمد عناني، القاهرة: رؤية، 2005.

شاليف، أرييه. **الانتفاضة: أسباب –خصائص– انعكاسات**، ترجمة عليان الهندي. القدس: جمعية الدراسات العربية، 1993.

فانون، فرانز. **معذبو الأرض**. ترجمة: سامي الدروبي وجمال الاتاسي، بيروت: دار القلم،1972.

فوكو، ميشيل. **نظام الخطاب**. ترجمة محمد سبيلا، بيروت: دار التنوير، 1984.

كوهين، هيليل. **جيش الظل: المتعاونون الفلسطينيون مع الصهيونية 1917–1948**. ترجمة هالة العوري، بيروت: بيسان للنشر والتوزيع،2015.

كيمرلنغ، باروخ ويوئيل شموئيل مغدال. **الفلسطينيون صيرورة شعب**، ترجمة محمد غنايم، رام الله: مدار– المركز الفلسطيني للدراسات الاسرائيلية، 2001.

كيمرلنغ، باروخ. **المجتمع الاسرائيلي مهاجرون مستعمرون مواليد البلد**، ترجمة هاني العبد الله، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2011.

لومبا، آنيا. **في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية**. دمشق: دار الحوار،2007.

المسيري، عبد الوهاب. **الصهيونية والعنف من بداية الاستيطان إلى انتفاضة الأقصى**، القاهرة: دار الشروق، 2001.

المسيري، عبد الوهاب. **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: نموذج تفسيري المجلد 6**. القاهرة: دار الشروق، 1999.

المسيري، عبد الوهاب. **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: نموذج تفسيري المجلد 7**، القاهرة: دار الشروق، 1999.

منصور، جوني وفادي النحاس. **المؤسسة العسكرية في اسرائيل (تاريخ، واقع، استراتيجيات وتحولات)**. رام الله: مدار، المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية، 2009.

منصور، جوني. **معجم الأعلام والمصطلحات الصهيونية والاسرائيلية**. رام الله: مدار–المركز الفلسطيني للدراسات الاسرائيلية، 2009.

موريس، بني. **طرد الفلسطينيين وولادة مشكلة اللاجئين**، وثيقة اسرائيلية. عمان: دار الجليل،1993.

هرتسل، ثيودور. **دولة اليهود**، دار الزهراء للنشر،1994.

يهاف، دان. **طهارة السلاح: أخلاق واسطورة وواقع 1936–1956**. ترجمة جوني منصور، رام الله: مدار، المركز الفلسطيني للدراسات الاسرائيلية، 2004.

المجلات

بريك، نزيه. الكيبوتس – بين نمط الاشتراكية والاستعمار الاستيطاني. **قضايا اسرائيلية**، العدد 7\6 (صيف\2002):99-110.

بشارة، عزمي. "مائة عام من الصهيونية: من جدلية الوجود إلى جدلية الجوهر". **الكرمل**، العدد 53 (1997): 11-20.

حسونة، خديجة. "المستعربون بين الماضي والحاضر". **التراث والمجتمع**: العدد 42 (شتاء 2005\2006):72-82.

الخالدي، وليد. الخطة دالت مجدداً. **مجلة الدراسات الفلسطينية**: العدد 96(2013): ص303-381.

الخالدي، وليد. بناء الدولة اليهودية،1897-1948: الأداة العسكرية. **مجلة الدراسات الفلسطينية**، العدد 39(1999):65-104.

خوري، الياس. النكبة مستمرة. **مجلة الدراسات الفلسطينية**، عدد 89(شتاء\2012):37-50.

زريق، إيليا وأنيتا فيتولو. "الحصاد الدامي لفرق الموت الاسرائيلية". **مجلة الدراسات الفلسطينية**، المجلد 3، العدد 10 (1992):102-129.

زريق، إيليا. "الصهيونية والاستعمار". **عمران للعلوم الاجتماعية والانسانية**، مج2، ع8 (2014):7-34.

زريق، رائف. "48 عاماً على هزيمة 67-67 عاماً على نكبة 48". **مجلة الدراسات الفلسطينية**، العدد104(خريف2015):7-13.

شفير، غرشون. "الأرض، العمل والسكان في الاستيطان الصهيوني". **الكرمل**: مجلد 20، العدد 58،(1999):128-148.

غانم، هنيدة. "المحو والإنشاء في المشروع الصهيوني". **مجلة الدراسات الفلسطينية**، عدد96(2013):118-139.

منصور، جوني. المستعربون: "البدايات والجرائم، كيف اعدوا المستعرب وما هي مهماته". **قضايا اسرائيلية**، العدد 15 (صيف 2004):6-20.

وولف، باتريك. "البنى الأولية للعنصرية: الأرض والعمل والتمييز". ترجمة أحمد عوض، **الثقافة العالمية**، مجلد22،عدد116 (2003):116-159.

المواقع الالكترونية

(25.1.2007) تطالب منظمة بتسليم النائب العسكر ي العام بفتح تحقيق من قبل الشرطة العسكرية حول قتل المدنيين في رام الله وتطالب الجيش بعدم استخدام المستعربين في العمليات القتالية. بتسليم: 4.1.2007، نقلا عن:

https://www.btselem.org/arabic/firearms/20070104_ramallah_incursion

(استخدم بتاريخ، 20.4.2018).

معجم المعاني، الموقع الالكتروني. نقلا عن:
http://www.almaany.com/ar/dict/ar-ar/%D9%85%D8%B3%D8%AA%D8%B9%D8%B1%D8%A8 (استخدم بتاريخ، 30.12.2016)

مذكرة بالمرستون إلى سفير بريطانيا في تركيا بخصوص توطين اليهود في فلسطين. موسوعة النكبة. نقلا عن:
http://www.nakba.ps/historical_documents_details.php?id=14 (استخدم بتاريخ 25.1.2018).

الحردان، أناهيد. النكبة، موقع ذاكرات، نقلا عن:
http://zochrot.org/ar/contentAccordion/nakba (استخدم بتاريخ، 8.4.2018).

النكبة في أرقام .موسوعة النكبة الفلسطينية، نقلا عن:
http://www.nakba.ps/numbers.php (استخدم بتاريخ، 8.4.2018).

بن فورت، يشعياهو. اقتباس من مقال "الخطأ والسذاجة والتلون"، يديعوت أحرنوت، في تقرير بعنوان "التوسع الاستيطاني، تتبع تاريخي" منشورات وزارة الإعلام الفلسطينية، نقلا عن:
www.minfo.gov.ps/Docs/II%20estitan.doc (استخدم بتاريخ: 11-1-2016)

الانتفاضة الفلسطينية الثانية. موسوعة الجزيرة، الجزيرة، نشر في 28.9.2016. نقلا عن:
http://www.aljazeera.net (استخدم بتاريخ، 19.4.2018).

فوكو، ميشيل. نظام الخطاب، ترجمة محمد سبيلا. بيروت: دار التنوير، 1984، ص5. نقلاً عن:
https://www.goodreads.com/book/show/9520571 (استخدم بتاريخ، 20.4.2018).

المركز الفلسطيني لحقوق الانسان، التقرير الاسبوعي حول الانتهاكات الاسرائيلية في الاراضي المحتلة 4-10 مارس 2004، مقلا عن:
http://www.pchrgaza.org/files/w_report/arabic/2004/11-03-2004.htm
(استخدم بتاريخ، 5.7.2016).

بيان استنكار من جامعة بيرزيت لاقتحام قوات الاحتلال والمستعربين الحرم الجامعي. جامعة بيرزيت: 7آذار 2018، نقلا عن:
https://www.birzeit.edu/ar/news/byn-stnkr-mn-jm-byrzyt-lqthm-qwt-lhtll-wlmstrbyn-lhrm-ljmy (استخدم بتاريخ، 20.4.2018).

وقفة داخل جامعة بيرزيت استنكارا لاقتحام الجامعة من قبل المستعربين واعتقال الطالب عمر الكسواني. شبكة قدس الاخبارية: 10.3.2018، نقلا عن:

https://www.youtube.com/watch?v=itK2SesyCZs (استخدم بتاريخ، 20.4.2018).

عز الدين، حسام. مستعربون ينفذون عملية اختطاف متظاهرين بمساندة ومراقبة قناصة الاحتلال شمال البيرة، جريدة الأيام: الخميس، 8.10.2015. نقلا عن:

http://www.al-ayyam.ps/pdfs/2015/10/08/p01.pdf (استخدم بتاريخ، 20.4.2018).

عز الدين، حسام. "العدوان خلف أربعة شهداء وعشرين مصاباً وأضرار مادية كبيرة– الاحتلال ينشر الموت والدمار وسط رام الله والبيرة"، جريدة الأيام: الجمعة 5.1.2007، نقلا عن:

http://www.al-ayyam.ps/pdfs/2007/01/05/p01.pdf (استخدم بتاريخ، 20.4.2018).

تقرير مراسل تلفزيون فلسطين، علي دار علي: وحدة مستعربين تهاجم طلبة جامعة بيرزيت، نشر بتاريخ 7.10.2015، نقلا عن:

https://www.youtube.com/watch?v=HVM7gL-DigE (استخدم بتاريخ، 20.4.2018).

المركز الفلسطيني لحقوق الانسان، قائمة باسماء ضحايا جرائم قوات الاحتلال الاسرائيلي منذ تاريخ 2 أكتوبر 2015:

http://pchrgaza.org/ar/?p=11687 (استخدم بتاريخ، 30.3.2018).

وكالة معاً الاخبارية، 4.10.2015:

https://www.maannews.net/Content.aspx?id=801563 (استخدم بتاريخ 22.4.2018)

المراجع بالانجليزية

Books

Al-Hardan , Anaheed. *Palestinains in Syria: Nakba Memories of Shattered Communities*. NYC: Columbia University press, 2016.

Zeraq , Elia. *Targeting To Kill: Israel's Undercover Units*, Jerusalem: Palestine Human Rights Information, 1992.

Encyclopaedia Judaica. Jerusalem: Keter Publishing House Jerusalem ltd, vol 7,1972

Shapira, Anita. *Land and Power : the Zionist Resort to Force 1881 – 1948*. New York: Oxford University Press , 1992,p53.
Allon, Yigal. *The Making Of Israel's Army*, New York: Universe Books , 1970.
Patai, Raphael. *Encyclopedia of Zionism and Israel*, New York: Herzl Press,1971, p462.
Veracini, Lorenzo. *Settler Colonialism: a Theoretical overview*. Basingstoke: Palgrave Macmillan , 2010.
Perlmutter, Amos. *Military And Politics In Israel Nation- Building And Role Expansion*. London: cass,1969.
Mendel, Yonatan. *"Re-Arabising the De-Arabised: The Mista'aravim Unit of the Palmach,"* in A. Bernard, Z. Elmarsafy, and D. Attwell (eds.) Orientalism: Thirty Years Later, Palegrave Macmillan, 2013.

Articles

Wolf , Patrick ."Settler Colonialism and the Elimination of the Native". Journal of Genocide Research (2006), 8(4), December, 387–409.

Websites

Barakat, Rana. Writing/righting Palestine Studies: Settler Colonialism, Indigenous Sovereignty and Resisting The Ghost (s) of History, setller colonial studies,2017, http://www.tandfonline.com/doi/abs/10.1080/2201473X.2017.1300048?journalCode=rset20 (accessed 15.9.2017).
Cambridge dictionary: https://dictionary.cambridge.org/dictionary/english/modus-vivendi (accessed in 15.3.2018).
Jewish Defense Organizations: bar gior . jewish virtual library: http://www.jewishvirtuallibrary.org/bar-giora , (accessed, 3.3.2018).

Jewishvirtuallibrary, balfour declaration:
https://www.jewishvirtuallibrary.org/text-of-the-balfour-declaration (accessed, 3.4.2018).

Israel executes Palestinian in hospital room, the electronic intifada, 13 november 2015:
.https://electronicintifada.net/blogs/ali-abunimah/israel-executes-palestinian-hospital-room (accessed in 30.3.2018).

Inside Fauda - Avi Issacharoff, APB Speakers, Published on Apr 3, 2017:
https://www.youtube.com/watch?v=mVMPfNtEc4M&list=PLsNV0KwOABYUEjO0E4CQI2wTAHkOngqDl (accessed in 30.4.2018).

Encyclopedia Judaica-second Edition, vol.21 (wel-zy). Jerusalem: Keter Publishing House. P/ 539-540:
https://ketab3.files.wordpress.com/2014/11/encyclopaedia-judaica-v-21-wel-zy.pdf (accessed 6.1.2017).

المراجع بالعبرية

الكتب

בלובשטין، עמוס. המסתערבים- הוותה ודרכי פעולתה של המחלקה הערבית בפלמ"ח 1940-1950. عاموس بلوفوشتين. المستعربين- تأسيسها وطرق العمل للدائرة العربية في البالماخ.

גולדשטיין، יעקב. בדרך אל היעד- בר גיורא והשומר1907-1935, משרד הביטחון,1994. يعقوب جولدشتين. الطريق إلى الهدف- بارغيورا وهشومير 1907-1935.

גמליאל כהן، המסתערבים הראשונים (סיפורה של המחלקה הערבית של הפלמ"ח). ישראל: הוצאת משרד הביטחון. 2002. جمليال كوهين. المستعربيون الأوائل (قصة الدائرة العربية للبالماخ).

זיו، חני ויואב גלבר. בני קשת-מאה שנות מאבק חמישים שנות צה"ל, משרד הביטחון,1998. حاني زيو ويوأف جلبر. أبناء برج القوس-مئة عام نضال، خمسون عام لجيش الدفاع.

לב, עוזיאל. בר גיורא והשומר: מרעיון בטחוני לארגון בטחוני (1907-1914), הוצאת מערכות, משרד הביטחון בשנת1985. عوزيال لب. بارغيورا وهشومير: من فكرة الأمن إلى تنظيم الأمن.

ממט, רזיאל. שלום על הרובים-סיפורם של חיימקה לבקוב וחבירו. תל אביב, משרד הביטחון. 1986، ד41. روزيال مماط. السلام على الحراب-قصة حيمكا لبكوب ورفاقه.

צביקה דרור، המסתערבים של הפלמ"ח. הוצאת משרד הביטחון، 1986. تسبيكا دورر، مستعربو البالماخ.

مواقع الكترونية

חסקן، גיל. השומר -ההתגוננות היהודית בתק' העלייה השנייה،: http://www.gilihaskin.com/ (استخدم بتاريخ 1.10.2017) جيل حسكين، هشومير- الدفاع اليهودي فترة الهجرة الثانية.

ארגון ההגנה - האתר הרשמי: http://www.irgon-haagana.co.il/show_item.asp?levelId=59798&itemId=47755&itemType=3 (استخدم بتاريخ 12.9.2017). تنظيم الهاجاناه- الموقع الرسمي.

לוי، אליאור ויואב זיתון. "פאודה" בביר זית: מסתערבים פשטו על האוניברסיטה. Ynet: 07.03.18: https://www.ynet.co.il/articles/0,7340,L-5149366,00.html (استخدم بتاريخ، 20.4.2018). إليؤر ليفي ويوئاف زيتون. فوضى في بيرزيت: مستعربين داهموا الجامعة.

עפר דרורי، אתר הגבורה – מבוא והגדרות: http://www.gvura.org ، (استخدم بتاريخ، 5.4.2018). عوفر دروري. موقع البطولة- تقديم وتعريف.

אתר הגבורה: http://www.gvura.org/a344756-%D7%9E%D7%A4%D7%A7%D7%97-%D7%99-%D7%9E (استخدم بتاريخ، 5.7.2016). موقع البطولة.

לוי، שי . לוחמי הצללים: 10 דברים שלא ידעתם על המסתערבים، פורסם 18/11/15: http://www.mako.co.il/pzm-magazine/Article-5da80c044b91151006.htm (استخدم بتاريخ، 5.1.2017). شاي ليفي. مقاتلو الظلال: 10 أشياء لم تعرفوهم عن المستعربين.

תיעוד: מסתערבים מחופשים עוצרים חשוד. ישראל היום: 07.03.18.
http://www.israelhayom.co.il/article/540679 (استخدم بتاريخ، 20.4.2018).
مسجل: مستعربون متخفون يعتقلون مشتبه. اسرائيل اليوم.
דבר מפקיד יחידת דובדבן. https://www.idf.il/ (استخدم بتاريخ، 3.4.2018). حديث قائد وحدة دوفدفان.
פעילות היחידות המיוחדות בשטחים.ירושלים. בצלם,1992. تقرير بتسليم: عمليات الوحدات الخاصة في المناطق.
יהושוע ،יוסי וראובן וייס. הצייד.ידיעות אחרונות- אתרה גבורה 8.4.2005:
http://www.gvura.org/a343441-%D7%94%D7%A6%D7%99%D7%99%D7%93 (استخدم بتاريخ، 8.5.2016).
يوسي يهوشواع وروبين فييس، الصياد.
לפיד، אפרים . מ"השחר" עד "דובדבן" – מסתערבים פעילים בשטח، Israel defense، 14.2.2014: http://www.israeldefense.co.il (استخدم بتاريخ، 30.3.2018). أفرايم ليبد. من هشحر إلى دوفدفان- مستعربين نشطون في المنطقة.
דניאלי، מיכל. "היחידה": סיירת מטכ"ל. Mako، 1.7.2011:
https://www.mako.co.il/pzm-units/special-units/Article-38b1ec63a4ca031006.htm . ميكيل دانيال، الوحدة.
אלרואי ، גור.משרתי המושבה אורודנים גסי רוח? מאה שנה לאגודת 'השומר' – פרספקטיבה היסטורית. יד יצחק בן צבי، ד78،
http://www.ybz.org.il/?CategoryID=185&ArticleID=6942#.WIlf91uCzZ5 (استخدم بتاريخ 9.12.2017). جور ألوري. عمال المستعمرة أم طغاة فظين؟ مئة عام على جمعية هشومير.